



مَعَالِم

حضارات الشرق الأدي القديم

الدكتور محمد أبو الحارث عصفور

استاذ بجامعة بيروت العربية

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت - ص.ب. ١١٧٢١




إهداء

إختلفنا نشأة ولغة ودينا . . . ولكنني أتمثل فيها قول الرسول عن
الزوجة الصالحة : « إذا نظرت إليها أسرتك وإن غبت عنها حفظتك
في مالك وعرضك وإن أمرتها أطاعتك » . . . وبعد أن أسبغ الله عليها
نعمة الإسلام زادت مكانة عندي .

فإليها أهدي هذا

حقوق الطبع محفوظة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب. ١١٠٧١١



* الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا، بناية
كريدية، تلفون: ٣٠٣٨١٦ /
٣١٢٢١٣ / ٣٠٩٨٣٠
برقياً: دانضة، ص.ب. ١١-٧٤٩
تلکس: NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني
رقم ٣، غربي الجامعة العربية،
تلفون: ٣١٦٢٠٢

* المستودع: بئر حسن، تلفون: ٨٣٣١٨٠

مقدمة

كان الاعتقاد السائد لدى الكثيرين إلى زمن قريب أن دراسة الحضارات القديمة . لا يتناولها بالبحث إلا بعض الخاصة من المرفهين أو المترفين الذين يشبعون هوايتهم في التعمق في الدراسة والبحث عن المجهول . ولكن نظرا لأن كل ما تزخر به الحياة الراهنة من منتجات وخبرات وعادات وتقاليده ومظاهر مختلفة أخرى إنما ترجع في أصولها إلى مختلف الجهود البشرية ، وقد وضعت أسسها منذ عصور سحيقة وتطورت بمرور الزمن حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن فإن هذه الدراسة لم تعد موضوعا قاصرا على فئة من الناس بل ولا يمكن أن تفضل دراسة حضارة أمة على حضارة أمة أخرى غيرها ، ولذا أخذ الاهتمام بها يتزايد حتى أصبحت دراستها منتشرة في جميع أنحاء العالم المتمدين وكثيرا ما تتضافر جهود الباحثين من مختلف الدول والشعوب في دراسة الحضارات القديمة وتشجيعها على اعتبار أنها التراث الإنساني الذي استمدت منه مختلف الأمم أصول حضاراتها الحالية ، ومن ثم يعملون على توفير أسباب هذه الدراسة بموالات الكشوف الأثرية وترميم الآثار المختلفة ويعكفون على دراسة اللغات القديمة حتى يتمكنوا من وضع صورة حية أو قريبة من الواقع لهذه الحضارات ومظاهرها المختلفة ، وهكذا تشعبت فروع البحث وتعددت نواحيه حتى أصبح

من المستحيل أن يلم باحث أو دارس بحضارات مختلفة بل ولا بمختلف نواحي حضارة واحدة وعلى ذلك فإن وضع مؤلف واحد لعدد من الحضارات لا يمكن أن يكون جافاً ، إنما يرضى كل الرغبات ويسد كل الفجوات .

ومع أنى ترددت كثيراً في وضع هذا المؤلف إلا أنى وجدت أن الضرورة تقضى بأن أيسر على طلبتى بعض الشيء وأجنبهم مشقة البحث في العديد من المراجع لمجرد سرعة الاطلاع على المعالم الرئيسية للحضارات الإقليم الذى نعيش فيه ، الشرق الأدنى ، ، على أنه ينبغي أن لا يفهم من ذلك أن فى هذا المؤلف غنى عن الإطلاع على مختلف المراجع المتخصصة فى دراسة هذه الحضارات ونواحيها المتعددة .

وقد يبدو للقارىء أنسى فى تناول هذه الحضارات لم أراع ترتيبها حسب أهميتها أو أسبقيتها فى الزمن ولكنى أود أن ألفت النظر إلى أنى فضلت اتباع نفس الترتيب الذى سبق أن اتبعته فى كتابى السابق ، مصالمة تاريخ الشرق الأدنى القديم ، استكمالاً للفائدة المرجوة إذ أنى جردت ذلك الكتاب من كل ما يشير إلى المظاهر الحضارية إلا فيما يختص بالمعصور السابقة للكتابة على أساس أنها الوسيلة الوحيدة لتتبع تاريخ تلك المعصور ، وهكذا يمكن اعتبار هذا المؤلف مع سابقه متكاملين

مقدمة الطبعة الثانية

ما كنت أظن أنني سأعيد طبع هذا الكتاب بعد مرور نحو من عشرة أعوام على ظهور طبعته الأولى اذ اعتقدت أن موضوعه سيكتب فيه خلال تلك الفترة غير أن ما ظهر من مؤلفات لا يتناول الا حضارة قطر أو قطرين فحسب من أقطار الشرق الأدنى وهي في جملتها تسهب في ذلك وتعرض للكثير من التفاصيل التي تجعل من العسير الامام بالمعالم الرئيسية لحضارات اقليم الشرق الأدنى أو تكوين فكرة شاملة عنها .

ومن خلال تجربتي في التدريس ، وجدت أن كتابي هذا يناسب طلبة أقسام التاريخ في الجامعات العربية كما وكيفا - كما أنني لا أشك في أن الذين تبهرهم رؤية آثار أسلافنا يودون لو أن هذه الآثار تفصح لهم عن أسلوب الحياة الذي اتبعه أولئك الذين خلفوها وأن توضح لهم مظاهر حياتهم، فعسى أن يكون في هذا الكتاب ما يفي - قدر الامكان - بهذا الغرض وتوخيت فيه البساطة بحيث يستطيع القارئ العادي أن يستوعبه وأن يكون فكرة عامة لا بأس بها عن أصحاب تلك الحضارات التي كانت أقدم ما ظهر من حضارات في العالم والله ولي التوفيق .

المؤلف

محتوى الكتاب

الصفحة	الموضوع
أ	مقدمة
م	قائمة بالأشكال
١	تمهيد
١٤٤-٥	أولاً : حضارة مصر
	الأسرة - ١٦ ، الملك - ٢٧ ، المسكن - ٣٦ ،
	الملابس والزينة - ٤٣ ، الإدارة - ٥٨ ،
	الديانة - ٦٤ ، القضاء - ٩٤ ، العسكرية - ٩٧ ،
	الحياة الاقتصادية - ١٠٠ ، العلوم والآداب - ١٢٤ ،
	الفنون - ١٣١ .
١٥٤-١٤٥	ثانياً : بلاد العرب
١٧١-١٥٥	ثالثاً : الاقليم السوري
	(١) الأموريون - ١٥٥ ، (ب) الكنعانيون
	والفينيقيون - ١٥٨ ،

صفحة	الموضوع
	(ج) الآراميسون - ١٦٦ ،
	(د) العبرانيون - ١٦٨ .
١٩٣-١٧٢	رابعاً : اسيا الصغرى
	الاسرة - ١٧٣ ، الملك - ١٧٥ ، الإدارة - ١٧٦ ،
	المسكزية - ١٧٨ ، الديانة - ١٨٠ ،
	الحياة الاقتصادية - ١٨٧ ، العلوم والفنون - ١٨٨
٢٦٤-١٩٤	خامساً : بلاد النهرين
	الاسرة - ١٩٦ ، الملك - ١٩٩ ، المنازل - ٢٠٢ ،
	الملابس والزينة - ٢٠٥ ، الإدارة - ٢١٠ ،
	المسكزية - ٢١٢ ، الديانة - ٢١٦ ،
	القضاء - ٢٢٣ ، الحياة الاقتصادية - ٢٢٩ ،
	العلوم والآداب - ٢٤٢ ، الفنون - ٢٥٥
٢٦٨-٢٦٥	سادساً : ايران
	الحياة الاجتماعية - ٢٦٨ ، الدولة - ٢٧٢ ،
	المسكزية - ٢٧٦ ، الديانة - ٢٧٨ ، الفنون - ٢٨٣

- ك -

صفحة	الموضوع
٢٨٩	خاتمة
٢٩٥	المراجع العربية
٢٩٦	المراجع الاجنبية
٢٩٩	فهرس الأعلام

قائمة بالأشكال

الصفحة	الشكل
١٧	١ - تماثيل سيدات من العصر قبل التاريخي
١٧	٢ - تماثيل منقرع وزوجته
٢٤	٣ - قريق من المتصارعين
٢٥	٤ - راقصات يمان لوحة حية
١٦	٥ - لعبة محارلة معرفة الضارب
٢٦	٦ - لعبة الثعبان
٣٠	٧ - أحد الملوك بالوى القديم
٣٧	٨ - نموذج من الطين لمنزل من عصر ما قبل الأسرات
٤٠	٩ - رسم تخطيطى لمنزل من كاهون
٤١	١٠ - رسم تخطيطى لمنزل من العمارنة
٤٥	١١ - الوى التقليدى فى الدولة القديمة
٤٩	١٢ - الوى العادى للبرأة
٥٥	١٣ - سيدة اثناء تصفيف شعرها
٦٧	١٤ - إلهة السماء فى هيئة بقرة
٦٨	١٥ - إلهة السماء فى هيئة امرأة
١٠١	١٦ - إله النيل فى هيئة رجل
١٠٣	١٧ - نساء يقمن بتذرية القمح

الصفحة	الشكل
١٠٩	١٨- زورق من البردى به صائد سمك
١١٢	١٩- طريقة بناء السفن
١١٧	٢٠- نقل تمثال ضخم
١٢٠	٢١- نبيل على محفة يحملها حاران
١٢٣	٢٢- خطأ الفنان عند خروجه على وضع تقليدى
١٢٥	٢٣- ضخامة الشخص المم بالنسبة لمن حوله فى النقوش
١٤٠	٢٤- هرعى خفرع ومنقرع وأمامهما معا بدما الجنزية
١٤١	٢٥ أ - معبد الشمس
١٤٢	٢٥ ب - معبد من الدولة الوسطى
١٦١	٢٦- نموذج من الخزف لعربة يجرها الخيل
١٦٣	٢٧- نحت عاج يمثل مزج الفن الفينيق بالفن المصرى
١٦٤	٢٨- تطعيم بالعاج به طابع مصرى
١٦٥	٢٩- تابوت فى هيئة آدمية لأحد ملوك صيدا
١٦٦	٣٠- تابوت للملك من بيلوس عليه موكب جنزى
١٧٩	٣١- عربة مصرية تهاجم عربة حيثية
١٨١	٣٢- إله يقف على ظهر حيوان
١٨٢	٣٣- ملك يتعبد لإله فى هيئة ثور...
١٩٠	٣٤- منظر يبين اتجاه المراكب نحو مركز واحد
١٩١	٣٥- موكب يبين أشخاصا يغلب عليهم القصر وعدم تناسق الأعضاء
١٩١	٣٦- تمثال غريب اختصرت رأساه

الصفحة	الشكل
١٩٢	٣٧ - تمثال مجنح لأبو الهول
١٩٣	٣٨ - نقش حيثى
٢٠١	٣٩ - الملك أورنمو يحمل سلة البناء
٢٠٣	٤٠ - منزل من منازل جنوب العراق
٢٠٥	٤١ - نقبة للرجال تنتهى بصفوف من الهداب
٢٠٧	٤٢ - زى سايف يكشف أحد الزراعين
٢٠٨	٤٣ - الإله يلبس تاجا عليه قرون تتلاقى
٢٠٩	٤٤ - ملك يلبس تاجا مخروطى يعلوه سن مدبب
٢٠٩	٤٥ - عقود من الذهب
٢١٨	٤٦ - رمز الإله آشور
٢٣٧	٤٧ - نموذج من البرونز لمركبة تجرها أربعة حمير
٢٤٩	٤٨ - خريطة للعالم بها موقع بابل
٢٥١	٤٩ - لوح عليه نظرية هندسية
٢٥٦	٥٠ - قيثارة مثل بها رأس ثور
٢٥٧	٥١ - إبريق من الحجر نحتت به حيوانات
٢٥٨	٥٢ - تمثال مغنية أحد المعابد
٢٥٩	٥٣ - تماثلان تبدو فيها ضخامة الساقين
٢٦٤	٥٤ - منظر لمدينة بابل
٢٧٠	٥٥ - مدينة إيرانية قديمة
٢٧٥	٥٦ - نماذج من العملة الفارسية

الصفحة	الشكل
٢٨٠	٥٧ - معبد النار في نقش رستم
٢٨١	٥٨ - الإله أهورا مزدا
٢٨٣	٥٩ - دباييس من البرونز
٢٨٥	٦٠ - ثور مجنح من مدخل قصر اجزركسيس
٢٨٧	٦١ - أعمدة تلتهم برؤوس حيوانات

تمهيد

الحضارة :

الحضارة في اللغة خلاف البداوة لأنها تدل على سكنى الحضر أو لإجتماع الناس للتعاون على أسباب المعيشة ودفع المضرات ، فهي تمثل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى وتقابل كلمة Civilisation .

وبما أن كل مجتمع (مهاكان بدائيا) يصيب شيئا من التطور ببذل الجهد والكفاح الدائم فإن هذا اللفظ خرج عن مدلوله الاصلى إلى مدلول عام شامل فأصبحت كلمة الحضارة تطلق على كل إنتاج مادى أو أدبى للانسان سواء كان انتاجا راقيا أو بدائيا وعلى ذلك يمكن القول بأنه لا يوجد مجتمع دون حضارة ، وكثيرا ما يختلط هذا اللفظ فى معناه بكلمة الثقافة ولكن إذا ما تأملنا الاصل اللغوى لهذه الكلمة الأخيرة لوجدنا أنها تدل على التطور العقلى عن طريق التدريب والتعليم ، وهى تقابل لفظ Culture - كذلك يختلط اللفظان ، الحضارة والثقافة ، فى معناهما بكلمة المدنية وإن كان اختلاط هذه الأخيرة بكلمة الحضارة أعم من اختلاطها بالثقافة ، إلا أن المدنية أصلا تدل على سكنى المدن وقد تطور معناها حتى أصبح يدل على أقصى ما يصل إليه مجتمع ما فى ميدان حضارته أثناء عصر من العصور - وهكذا نجد أن كتب اللغة تميل الى ترتيب مراحل التطور الاجتماعى إلى البداوة ثم الحضارة وأخيرا المدنية ، على اعتبار أن البداوة تقوم على حياة الحيوان من صيد ورعى فن دأبها التثقل وعدم الاستقرار

والحضارة تدل على سكنى الحضر والانتظام فى مجتمعات تتعاون فى معيشتها أما المدنية فتدل على سكنى المدن والانتظام فى مجتمعات أكثر تعقيدا ورقيا أو كما تقول بعض كتب اللغة أنها تمثل الانغماس فى حياة الدعة والترف .

فالحضارة على أى حال تمثل كل مظهر من مظاهر الانتاج البشرى أو غالبا ما يحددها سلوك الإنسان وطرق معيسته وتفاعله مع البيئة ، ولذا كان من الطبيعي أن تختلف كل حضارة فى مظاهرها عن الحضارات الأخرى ، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة وعلى هذا يميز الناس بين الحضارة المصرية والحضارة اليونانية والحضارة الاسلامية وهكذا .

ومن العسير لإبراز مميزات كل من تلك الحضارات وخاصة القديمة منها لأننا - من جهة - مازلنا نشعر بقصور الدراسات المتعلقة ببعض مظاهرها وبما يزيد المشكلة تعقيدا أن بعض المدونات لم يمكن تفسيرها تماما حتى الآن ؛ كما أننا - من جهة أخرى - نستشهد على مظاهر هذه الحضارات بمخلفات أثرية نحن على يقين من أنها لم تسكن منتشرة بين عامة الناس وإنما هى من مخلفات ثروة القوم وخاصتهم فضلا عن كونها تمثل أرقى ما كانوا يمتلكونه وأفضل ما وصلت إليه الفنون فى أزمانهم فهى بالأحرى تمثل مخلفات المدنية لا مخلفات الحضارة ، ومع كل ينبغى أن لا تقلل من شأنها عند مقارنة الحضارات المختلفة بعضها البعض إذ لايسيل إلى التعرف إلى مظاهر هذه الحضارات إلا عن طريقها .

ومع أن الكثيرين قد يتساءلون عن الأسباب التى تدعو الانسان إلى الاحتفاظ بكثير من منتجاته الحضارية وهو ما أتاح لنا فرص العثور على

ما يمثل هذه المنتجات في الحضارات القديمة فإن من الممكن أن يعزى ذلك إلى عاملين أساسيين هما ديانة أهل هذه الحضارات وفنونها .

والديانة شأنها شأن الحضارة خرجت في معناها عن مدلولها الأصلي لأنها في اللغة كالدين لها معاني مختلفة منها الجزاء والمكافأة والطاعة والالتقياد والعادة والعبادة ، وهي كذلك إسم يجمع ما يعبد به الله والملة - إلا أن المعنى المألوف هو أنها « الاعتراف بقوة أو قوى تفوق البشر » تسيطر عليهم ويجب عليهم إطاعتها ويؤثر اعترافهم بها في سلوكهم وفي عقليتهم » - وقد تختلف في معناها بالعقيدة ولكن هذه الأخيرة تدل في اللغة على عقد الرأى أو عقد القلب والضمير على أمر معين كما تدل على الاقتناء والجمع فإذا قيل اعتقدت كذا أى عقدت عليه القلب والضمير ، واعتقدت ضيعة ومالا أى اقتنيتها - إلا أن المعنى الشائع للعقيدة هو أنها « إيمان بتفوق قوة من القوى ، ولكن ليس من الضرورى أن تسيطر هذه القوة على البشر ، وقد تطور هذا فأصبحت العقيدة اسما لما يدين به الانسان - ومن الواضح أن الانسان في الحضارات القديمة كانت له ديانات وعقائد عامة ولكننا لانعرف شيئا عن أصولها ونشأتها وطقوسها ومذاهبها إلا من عصور متأخرة وخاصة بعد أن عرفت الكتابة ، ومع هذا فان ما نعرفه عنها لا يعد كافيا لارتباطها بمواقف الانسان واحساساته الداخلية وهذه لا يمكن ادراكها لأنها لم تدون في أغلب الاحيان - ورغم هذا يمكننا أن نتصور بأنها كانت ساذجة بسيطة في أول الامر ثم تطورت ودخلتها زبادات وحواشي أخر جتها عن شكلها الأصلي ، وما دام الامر كذلك فإن الانسان - سواء في ديانتته أو عقائده - يحاول أن يسترضى هذه القوى بكل ما لديه من وسائل مادية وغير مادية فشيء لها المعابد

وقدم القرابين وقام بمختلف الطقوس من أجلها . وهذه بالطبع يبدو أثر البيئة فيها واضحا هي الأخرى .

ولما كانت الفنون هي كل ما يخرج ذوق الانسان ليحقق فائدة عملية في حياته

وليرضي به غريزة من غرائزه ، وبما أن الانسان تميز بالذوق السليم والشعور بالجمال فمن الممكن القول بأن الفن هو الانتاج الذي يرضي به الانسان شعوره بالجمال، لذا خضعت فنونه في كل من الحضارات القديمة إلى أصول وقواعد تميزت بها - وإن كانت قد وقعت في بعض الأخطاء إلا أنها لم تحدد عنها محافظة على تقاليدها وقواعدها - وبالتالي فإن كلا من هذه الفنون قد تأثرت هي الأخرى كذلك بالبيئة التي نشأت فيها وخضعت لمؤثراتها المختلفة .

وعلى هذا يمكن القول بأن أهم المخلفات الأثرية التي تتخذ منها شواهد وأدلة على مظاهر الحضارات المختلفة ترتبط بفنون أهل هذه الحضارات ودياناتهم ارتباطا وثيقا إلا أن كل المظاهر الحضارية في أى مجتمع من المجتمعات قوامها تفاعل الإنسان في هذا المجتمع مع بيئته التي عاش فيها ولذا تنوعت هذه المظاهر وتنوعت بين قطر وآخر وبين أمة وأخرى ولا يحدث بينها من التشابه إلا بقدر تشابه بيئاتها وإن كانت بعض المظاهر تجد سبيلها من مكان إلى آخر عن طريق النقل والمحاكاة وسنتناول فيما يلي أهم المظاهر الحضارية في مختلف أقطار الشرق الأدنى .

أولا : حضارة مصر

التعرف على الحضارة المصرية :

لعل من أشق الأمور دراسة الحضارة المصرية دراسة شاملة وافية لأنها وإن تناولها الباحثون بالدراسة في عصور مختلفة إلا أن الكشف عن أسرار اللغة المصرية لم يتم إلا منذ فترة وجيزة نسبيا وعلى ذلك ظلت حضارة مصر غامضة بالنسبة لهؤلاء الباحثين رغم أن آثارها كانت تحيط بهم وفي متناول أيديهم - فالليونان مثلا صادفتهم عقبات كثيرة في تفهم تلك الحضارة ، بل أنهم حينما جاءوا إلى مصر دهشوا أشد دهشة لما شاهدوه من حضارة في وادي النيل حيث كانوا يعتقدون بأنهم أرقى الأمم حضارة وثقافة - وقد بدت لهم مظاهر الحضارة المصرية غاية في الغرابة والغموض وكانوا بين مقدر لها وساخر منها ولكن الاغلب أنهم كانوا يكون لها الاحترام العميق مع أنهم عجزوا عن تفسير كثير مما شاهدوه من الاختلافات بينها وبين حضارتهم ، وقد استهوتهم كذلك بعض قواعد السلوك عند المصريين ولذا نجدهم يقارنون مظاهر هذه الحضارة بمظاهر حضارتهم فيذكر هيروودوت مثلا بأن المصرى كان يكتب من اليمين إلى اليسار في حين تكتب شعوب العالم الأخرى من اليسار إلى اليمين وفي مصر تخرج المرأة إلى الاسواق وتقوم بالعمل في الحقول بينما يظل الرجل في البيت ليقوم بالغزل أو النسيج كما أن النساج المصرى كان يدفع لحمة النسيج من أعلى إلى أسفل وهذا كله عكس ما يحدث في البلاد الأخرى .

ومع أن العالم القديم ظل ينظر إلى المصريين على أنهم شعب غريب

الاطوار إلا أنه كان يتطلع إلى مظاهر حضارتهم وينظر إليها نظرة التقديس والإجلال وكانت نقوشهم وطقوسهم الدينية التي كان يقوم بها الكهنة تمثل عالماً مليئاً بالأسرار والغموض وكثيراً ما طمع اليونانيون في الوصول إلى دراسة تلك الأسرار ولهذا نجد أن بعضهم وخاصة في عهد البطالمة يندمجون في الأوساط السكهنوتية ويقومون بالطقوس الدينية ولكنهم لم يستطيعوا فهم كل تلك الألغاز التي أحاطت بهم ، ومع هذا ظلوا على احترامهم وتقديرهم لرجال العلم والكهنة والمعابدات المصرية حتى وحدوا بين بعضها وبين الآلهة اليونانية .

ومنذ العصر اليوناني استمر الغموض يحيط بالنقوش المصرية ولم يستطع أحد تفسيرها رغم المحاولات العديدة التي بذلت في سبيل حل طلاسمها ولكن طريقة تلك الكتابة جعلت من المحتم الوصول إلى تفسيرها فمعظمها كتابة رمزية تصويرية وكانت دقة المصرى وعنايته الفاتحة بتدوين أهم الحوادث خير مساعد للعلماء في مهمتهم فقد صور الأشخاص والمناظر المختلفة وكتب فوقها ما يدل عليها وكانت أولى النتائج الهامة في سبيل حل طلاسم اللغة المصرية هي ما وصل إليه العالم الانجليزي توماس ينج Tomas Young الذي قرر بأن الكتابة المدونة فوق المناظر المختلفة هي شرح لتلك المناظر وأن أسماء الملوك المشتمين في تلك المناظر توضع داخل أشكال بيضاوية أي « خراطيش » وأن هذه الكتابة ليست كلها رمزية تصويرية أي أن أشكالها (رموزها) لا يدل كل منها على معنى وإنما بعض هذه الأشكال أو الرموز له قيمة صوتية فقط ولا يدل على معنى قائم بذاته . وفي نفس الوقت أو بعده بقليل عثرت الحملة الفرنسية على حجر رشيد وتوصل شمبليون من مقارنة

الخراطيش المكتوبة به إلى نفس النتيجة التي وصل إليها « ينج » كما توصل إلى القيمة الصوتية لبعض الرموز وبدأ يضع معجما للحروف والعلامات الهيروغليفية .

وتتابعت جهود العلماء بعد ذلك فأمكن تفسير اللغة المصرية وفهم كل ما أمكن العثور عليه من آثار مكتوبة - ومع أن الآثار المصرية مليئة بألاف النصوص والوثائق إلا أنها ليست كافية للتعرف على كل نواحي الحياة المصرية لأن كل ما كتب على الآثار المختلفة لا يخرج عن كونه شرح لبعض المناظر الدينية المتكررة مع الإشارة إلى الآلهة والقرابين المختلفة بالإضافة إلى أسماء الملوك وبعض الأحداث التاريخية الهامة التي حدثت في عهدهم أو عهد أسلافهم . أى أن المحصول من هذا الانتاج الضخم كان محصولا ضئيلا للغاية لا يتناسب إطلاقا مع وفرة الوثائق المكتوبة ، فالاعتقاد إذن على هذه المدونات وحدها لا يكفي لإعطاء فكرة كاملة عن الحضارة المصرية في أشكالها المختلفة .

مقومات الحضارة المصرية :

وكانت العقيدة التي يدين بها المصري خير ما أمدنا بفكرة واضحة عن الحضارة المصرية إذ أن المصري اعتقد في البعث وأنه سيحيى حياة أخرى أبدية - من جهة - ولأنه أحب حياته الدنيا وطمع في أن يجعل من حياته الأخرى صورة مطابقة لها - من جهة أخرى - صور مناظر حياته على جدران مقبرته أملا في أن تتحول هذه المناظر إلى حقيقة واقعة عند البعث، ومع أننا نعتقد بأن هذه المناظر قد صورت على شاكلة ما كان يقوم به في حياته الدنيا ، إلا أننا مع هذا نلاحظ

بأنه حرص على أن يجعل من تلك الحياة حياة مثالية وتعالى في إظهارها
بمظهر الحياة الدائمة السعادة والرفاهية وقد وصل في ذلك أحيانا إلى درجة
السفه حيث حرص على أن يأخذ معه إلى العالم الآخر كل ما ظن أنه سيحتاج
إليه من آلات وأدوات وحيوانات أليفة .

ومع أن كثيرا من حضارات العالم القديم قد درست عن طريق دراسة
آثار المنازل ومخلفات مناطق السكن في تلك الحضارات إلا أننا في مصر
نجد أن هذه المنازل قد اختفى معظمها ولم يبق منها إلا النادر فقط
حيث كان المصري يعتقد بأن حياته في الدنيا حياة زائلة وأن الحياة
الآخرة هي الحياة الأبدية فكان يقيم مساكنه من مواد خفيفة سريعة
البلى واستعمل لذلك اللبن والأخشاب ولم يستعمل الحجر إلا نادراً وعلى
الأخص حول الأبواب والنوافذ فقط ولم يبق من المدن المصرية التي
كانت أهلة بالسكان إلا أمثلة شاذة مثل كاهون وتل العمارنة والسبب في
بقائها هو أنها قد بنيتا لغرض خاص ثم أهملتا بعد بنائها والإقامة
فيها قليلا وهجرهما السكان بعد ذلك ويشبه ذلك أيضا بعض القرى التي
أقيمت من أجل عمال الجبانات مثل مساكن عمال جباتى الجيزة وسقارة
ولذا كان من الصعب استنتاج صورة واضحة للمساكن المصرية في عصورها
المختلفة ولكن أمكن التوصل إلى ذلك عن طريق البقايا المتخلفة من تلك
المدن ومن مساكن العمال ومن بعض النماذج التي وضعت في المتاحف
لغرض من الأغراض السحرية أو لمجرد اللهو والتسلية . وكذلك من
النقوش التي تمثل تلك المنازل .

أما الفن المصرى فهو جدير بالإعجاب وقد وصل إلى درجة عالية من

الرقى في كل نواحيه المختلفة من عمارة ونقش ونحت وأدب وموسيقى وقد بنيت هذه على أصول مستقلة فاقت في معظمها كل فنون الشعوب الأخرى وبما يميز الحضارة المصرية في هذا السبيل أننا نجد آثارها مثلة في عصورها المختلفة، أى أن مظاهر تلك الحضارة مثلة بصورة مستمرة من عصور ما قبل التاريخ في سلسلة متتابعة لانكاد نجد فيها فجوة، فهى تمتاز عن سائر الأقطار الأخرى في هذه الناحية - وقد مكنتنا دراسة آثارها من التعرف على المصرى في آلاف السنين ومنها يتضح أن اللغة المصرية لم تتغير إلا مرة واحدة وتغيرت الديانة مرتين كما تغيرت الطبقة الحاكمة عدة مرات أما المصرى نفسه فتمد ظل دون تغيير يذكر لأن ظروف الحياة الطبيعية ظلت كما هى ثابتة لا تتغير ولم يحدث مثل ذلك للشعوب الأخرى . ولهذا الأمر أهميته البالغة لأنه يرينا كيف تطورت الآراء والأفكار خلال الخمسين قرنا التى مضت وكيف تطورت العادات وإلى أى مدى أثرت الحضارة المصرية وتأثرت بالحضارات الأخرى وليس من المبالغة فى شىء أن نذكر بأن الحضارة المصرية كان لها أثر كبير فى الحضارتين اليونانية والرومانية اللتين نقل عنها العرب وهؤلاء بدورهم كان لهم أثرهم فى الحضارات الأوربية المعاصرة بل ويمكن أن تتبع أصل بعض الألفاظ فى اللغة الانجليزية وفى اللغات الأوربية الأخرى ونرجعها إلى أصول مصرية قديمة .

وما دامت الحضارة تلتج عن النشاط الإنسانى وأن هذا النشاط يتأثر بالبيئة أى أنها تفاعل بين الانسان وبيئته فمن الممكن القول بأن البيئة المصرية بمميزاتا المختلفة هى التى حددت نوع تلك الحضارة وأثرت فى تفكير المصرى وإنتاجه - وإذا ما تأملنا هذه البيئة محارلين أن ندرس بصفة عامة

جغرافية مصر في معناها الضيق لوجدنا أن نهر النيل يمتد فيها من منحور الشلال الأول إلى البحر المتوسط وهو يتفرع في الدلتا إلى أن يصب في البحر وعلى ذلك شملت مصر قسمين مختلفين : الأول يمتد فيه وادى طويل ضيق مساحته المنزرعة ضئيلة للغاية وتحف به الصحارى من الجانبين ويمكن لآى إنسان إذا ما وصل إلى حافة الوادى أن يقف بأحدى قدميه على الأرض المنزرعة ويرتكز بقدمه الأخرى على الصحراء ، أى أن الانتقال من الأرض المنزرعة إلى الصحراء انتقال فجائى ، وتلى الصحراء شرقا وغربا سلاسل من التلال القليلة الارتفاع تمتد بطول الوادى تقريبا أما في الدلتا فالوادى متسع والأراضى الزراعية شاسعة فهى في معظم العصور أغنى وأكثر إزدحاما من الوجه القبلى وما زالت كذلك حتى الآن ولكنها في أقدم العصور التاريخية كانت أقل سكانا لكثرة مستقعاتها .

ولما كان الإنسان القديم في مصر يخشى خطر الفيضان ويتجنبه فإنه كان يسكن على جانبي الوادى على الهضاب المرتفعة وكان النهر في بداية الأمر قليل العمق متسع المجرى ، وكلها عمق مجراه كلما انحسرت المياه من الجانبين وبمه السكان هابطين من الهضاب إلى حافة الوادى وعلى هذه نجد أقدم البقايا الأثرية من عصور ما قبل الأسرات موزعة في الصحراء بعيدة عن الوادى وأكثر ارتفاعا من تلك التى تليها في الزمن فتكونت بذلك المدرجات النهرية المعروفة التى تعد شاذة في تنابعها الزمنى لأن المعتاد في الطبقات الأثرية أن تكون أقدمها هى السفلى وأحدثها هى العليا أما في المدرجات النهرية فإن العكس هو الذى حدث .

وتتميز البيئة المصرية بأن الظاهرة الغالبة فيها تتمثل في خطوط متوازية أو متعامدة فالوادي شريط ضيق يحيط بالنهر من الجانبين تبعد عنه قليلا الصحراوين الشرقية والغربية وهذه وتلك تحف بها سلاسل قليلة الارتفاع تظهر كأنها خطوط عمودية على طبقات الوادي التي تسير في خطوط مستقيمة وكان لهذا أثره في التفكير المصرى فقد رأى المصرى أن تلك الوديان والصحارى تمتد إلى مسافات شاسعة دون عائق وتمثل فضاء لانهايتيا كما أنه رأى بعض مظاهر الطبيعة في إستمرار دائم فالشمس تشرق كل يوم في المشرق وتغرب في المغرب فاعتقد بأن هناك حياة خالدة يعيش فيها المرء حياة أبدية وأن الحياة الدنيا فترة انتقال إلى عالم الخلود - وقد أثرت هذه البيئة كذلك في نشاطه الفنى إذ خضع الفن إلى قواعد لاتحيد كثيراً عما تمثله المرء في بيئته ، فرسومه ونقوشه بل وتمائيله أيضا تخضع لقانون الاتجاهات المستقيمة حتى يمكننا القول باننا إذا ما أخذنا صورة انسان أو تمثالا من تلك التي قام بعملها المصرى القديم وقطعنا الرأس والأطراف لوجدنا صعوبة في تفسير الجزء الباقى كذلك إذا ما تأملنا هذه الصورة أو ذلك التمثال لوجدنا أن الرأس يتعامد على السكتفين وأن هذين يمثلان خطا مستقيما يوازي الخطوط الأفقية الأخرى في الجسم كذلك يتوازي الذراعان والساقان والخطوط الرأسية الأخرى ولذا قال أحد فلاسفة اليونان عن التماثيل المصرية بأنها كلها جميلة ولكن يتقصها المدرب الرياضى وذلك لأن الحركة فيها غير واضحة .

وإذا ما خرجنا عن دائرة الأفكار الفلسفية والدينية والفن إلى الحياة العملية المصرية لوجدنا أن الجماعات التي عاشت في مصر في أجزائها المختلفة كان يسهل عليها الاتصال فيما بينها وأهم ظاهرة قامت بتيسير هذا الاتصال هي نهر النيل

الذى كان له أكبر الأثر في نشأة الحضارة المصرية وتطورها ، فن المعروف أن اتجاه التيار في النهر (من الجنوب الى الشمال) واتجاه الرياح السائدة ، الرياح التجارية الشمالية الشرقية ، (من الشمال إلى الجنوب) وعدم وجود العوائق على طول النهر من البحر المتوسط إلى أسوان مما يجعل الملاحة ميسورة في كل أوقات السنة وفي الاتجاهات المختلفة وعلى ذلك كان من الطبيعي أن تنشط الملاحة فتمكنت الجماعات المنتشرة على طول الوادى من الاتصال بعضها ببعض بسهولة ويسر وتبادلت مظاهر ثقافتها وحضاراتها المختلفة - وكان للنيل كذلك أكبر الفضل في توحيد تلك الجماعات إذ أن خطر الفيضان المشترك والرغبة في التحكم في مياه النهر للحصول على منافع مشتركة حثمت إيجاد مجتمع موحد متعاون في ذلك الجزء من العالم.

ولاشك في أن وادى النيل كان في أول الأمر مسرحا لتنافس تلك الجماعات الصغيرة المتفرقة التي كانت تعيش على جانبيه والتي كانت تكون أقاليم مستقلة يغير أقواها على ما جاوره من أقاليم أضعف ويبسط سلطانه عليها حتى انقسم وادى النيل في جزئه الأدنى إلى قسمين كبيرين : مملكة الوجه القبلي ومملكة الوجه البحرى - ومملكة الوجه القبلي كانت تضم أصلا اثنين وعشرين إقليما من تلك الأقاليم الصغيرة أما مملكة الوجه البحرى فكانت تضم عشرين إقليما وقد ظل هذا التقسيم يراعى في معظم العصور الفرعونية ، كذلك ظل انقسام البلاد إلى مملكتين عالقا في الأذهان حتى نهاية تلك العصور ويتمثل ذلك في الألقاب الملكية وفي كثير من الإدارات الحكومية فكان الملك يلقب بمملك الوجهين القبلي والبحرى وأطلق على بيت المال مثلا اسم « بيتى الذهب والفضة » والمقصود هو بيت

الذهب والفضة الخاص بالجنوب ومثيله الخاص بالشمال كذلك كان هناك وزيران أحدهما للجنوب والآخر للشمال .

نشأة الحضارة المصرية

ظل العالم المتحضر فترة من الزمن لا يعرف فيها شيئا عن نشأة الحضارة المصرية وتطورها بل وخيل للكثير من الباحثين بأن تلك الحضارة التي توحى آثارها بالنمو والإزدهار والتعقيد لم تكن أصيلة في مصر ولم تتطور فيها وإنما جلبت إليها من الخارج في صورة راقية ، إلا أن العثور على آثار تمثل الحضارات السابقة لعصر الأسرات (أى الحضارات البدائية) في سلسلة متتابعة تكاد تكون متكاملة أثبت أن الحضارة المصرية أصيلة في مصر نشأت وتطورت فيها وإن كان الأمر لا يخلو بالطبع (كما هو الحال في الحضارات الأخرى) من التأثير بحضارات الأقاليم المجاورة في بعض مظاهرها . ولكن مما لا شك فيه بأن البيئات المتشابهة والأجناس المتشابهة تنتج حضارات متشابهة وهكذا كان تشابه بيئات الشرق الأدنى القديم مما يعقد الأمور في التعرف على انتقال الحضارات من بيئة لأخرى .

ولما كانت الحضارة المصرية قد وصلت إلى درجة رفيعة من التقدم والرقى فإنه كان من الأهمية بمكان أن يجتهد الباحثون في التوصل إلى معرفة الجنس الذي يعد مستولا عن هذه الحضارة أو الذي أبدعها وأنشأها إلا أن كل الجهود التي بذلت لم تؤدي حتى الآن إلى نتيجة حاسمة إذ لم يعثر على بقايا بشرية يمكن الحكم منها على نوع السكان الذين عاشوا في العصر الحجري القديم وقد حاول العلماء عبثا التعرف على هؤلاء من مخلفات المصور التالية ، وأقدم ما وجد من

مخلفات بشرية يدل على وجود عناصر مختلفة كانت تعيش جنبا الى جنب ولذا يمكن القول بأن الحضارة المصرية ترجع الى أجناس مختلفة عاشت في وادى النيل واحتك بعضها ببعض كما كانت لهم علاقات بالأجناس المشابهة التي عاشت في الأقطار المجاورة ولذا قال بعض المؤرخين بأنه لم يوجد مصرى على الاطلاق وانما كان هناك دائما مصريون ويعنى هذا أنه لم ينفرد في مصر جنس واحد وإنما وجدت أجناس متجاورة اختلطت بعضها وكونت في مجموعها سكان وادى النيل الأدنى .

ومما لاشك فيه أن الشعبة الحامية من جنس حوض البحر المتوسط كانت أكثر العناصر نشاطا في شمال أفريقيا بها في ذلك وادى النيل، ويبدو أن جنسا له بعض الصفات الزنجية قوى التكوين والبنية كان يسود العالم القديم وقد دخلت الى وادى النيل في أثناء دخوله اليها عناصر حامية قليلة العدد ثم ما لبثت هذه الأخيرة أن ازداد عددها حتى أصبحت هي الغالبة في الوادى ورغم ذلك ظل خليط تلك العناصر مع الجنس القوى البنية مثلا في معظم العصور التاريخية .

ومن المعروف كذلك أن عناصر كثيرة مختلفة قد دخلت إلى مصر في عهدها المختلفة ولكن هذه لم تؤثر في التكوين الجنى للسكان إلا بنسب ضئيلة لأن تلك العناصر عند دخولها إلى مصر لا تلبث أن تختلط بالسكان وتندمج فيهم وتفقد مميزات الجنى بالتدرج وإن ظلت بعض تلك المميزات تظهر في العناصر الناتجة من إختلاطها حيناً بعد حين .

وقد أدى تشابه بعض مظاهر الحضارة في مصر مع مظاهر الحضارة في جنوب غربى آسيا إلى الإعتقاد بأن الحضارة المصرية قد نقلت من

هذه الجهات إلى مصر عن طريق هجرة من الهجرات ولكن تشابه ظروف البيئة في تلك المرحلة البدائية يجعلنا نتردد كثيرا في الأخذ بهذا الرأي ، ومع كل فإن انتقال تلك المظاهر الحضارية قد تم عن طريق احتكاك مباشر أو غير مباشر بين سكان وادى النيل وبين سكان جنوب غربى آسيا وليس ضروريا أن يكون عن طريق هجرة من الهجرات .

فنشأة الحضارة في مصر إذن مازال يكتنفها الغموض ومهما قيل في ذلك فإن مايعنينا هو أننا نجد في العصور الفرعونية حضارة بهرت العالم ووصلت إلى مدى بعيد في ميدان التقدم في كافة مظاهرها المختلفة وقد تمثلت في مصر دولة قوية فتية يحكمها بيت مالك له تقاليد ومراسيمه المعقدة ويحيط بالملك حاشية يحمل أفرادها مختلف الألقاب ويحتلون مناصب رفيعة ، وتكاد تحاكي في تنظيمها الإدارى ما نسير عايه في حياتنا الحاضرة وكانت الطقوس الدينية تقام في المعبد في صورة لاختلف كثيرا عن الطقوس التى تقام في بعض العبادات الحديثة وكان الجيش يتبع أساليب وفنون حربية تسير وفق الأسس التى تقوم عليها الجيوش النظامية - وهكذا في سائر النظم كانت مصر دولة لاختلفت في كيانها كثيرا عن أى دولة حديثة .

ويرى كثير من الأثريين بأن الحضارة المصرية كانت حضارة مادية حسية في أساسها وأنها كانت تهدف إلى الناحية العملية دون النظرية .

ولكن بما لاشك فيه أن كثيرا من النتائج العلمية التى وصل اليها المصرى كانت عن طريق إتجاهه إلى بعض النواحي النظرية أى أنه سبما بتفكيره عن تحقيق أهداف عملية في دراسته لبعض النواحي العلمية، ومهما

كان الأمر فإنه في كل إنتاجه في المراحل الأولى من حضارته كان يهدف أصلاً إلى تحقيق منفعة في حياته العملية شأنه في ذلك شأن الشعوب الأخرى .

وإذا ما أردنا دراسة مظاهر الحضارة المصرية المختلفة فإن من الملامح أن نتحدث عنها على أنها مظاهر لمجتمع نشيط راق وصل إلى مرتبة عالية من التنظيم وبالطبع تحتل الأسرة المكانة الأولى في دراسة أى مجتمع من المجتمعات وتمثل الحياة اليومية لأفرادها مظاهر الحضارة المختلفة .

الأسرة

إذا ما أردنا أن نتبع تقاليد الزواج والنظام الأسرى في مصر القديمة فإننا لا نكاد نجد ما يشير إلى هذه الأمور في بداية العصور الفرعونية، ويخيل إلينا أن المصرى في عصور ما قبل الأسرات كان يتخذ زوجة كأليف تعاونه في حياته وتنجب له الأطفال شأنه في ذلك شأن الإنسان في كل المجتمعات البدائية البسيطة، فإنجاب الذرية هو أهم البواعث على الزواج في تلك المجتمعات - ويستدل على أن المصرى القديم قد توخى هذا الغرض من تمثيل السيدات التي وجدت في عصور ما قبل الأسرات فهي عموماً تمثيل لسيدات متضخمات الأثداء والبطون وهي في هيأتها وتكوينها تدل على أن المقصود منها تمثيل الأمومة وانجاب الذرية، (شكل ١) ومن نصائح أحد الحكماء لشاب يحضه على الزواج قوله له أن يتخذ له زوجة في شبابه « فإن أحسن شيء في الوجود هو بيت الإنسان الخاص به ، وأن « تلد له ابناً - ويبدو أن الاحتفاظ بالزوجة لم يكن سهلاً كما هو الحال في سائر الجماعات البدائية فربما كان القوى يختصب زوجة الضعيف ويتخذها



لنفسه ولذا نجد أن الملك المتوفى يوصف في نصوص الأهرام بأنه « يأخذ النساء من أزواجهن على حسب رغبته »

ولانعرف طقوس الزواج في مصر القديمة إلا أن من المرجح أنه كانت هناك عقود قانونية كما يفهم ذلك من أقوال الحكماء في نصيحهم لمن يستمعون إليهم عند الإشارة إلى الزوج بقولهم «لكني يؤسس المرء لنفسه بيتاً» مما يدل على أن هناك إتفاقا من نوع ما أو عقداً يكتب بصورة خاصة (١) .

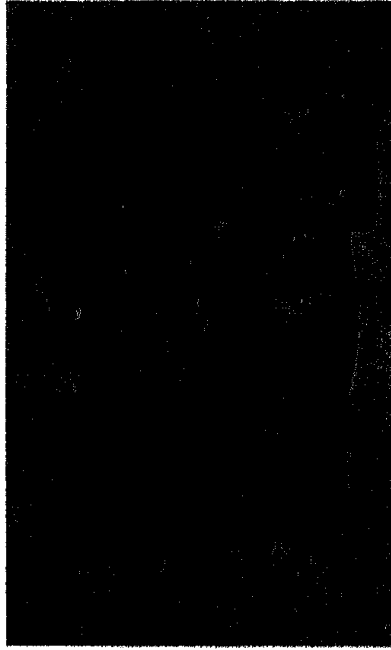
أما مركز المرأة في مصر القديمة فكان على خلاف ما يعتقد الأوربيون عن نساء الشرق إذ أن هؤلاء يعتقدون بأن المرأة في الشرق

ملهبة للرجل وأنها لعبته ولجهد تسليته (شكل ١) تماثيل سيدات من العصر قبل التاريخي والوقوف على راحتته وظنوا أن الحالة

في مصر القديمة لم تكن تختلف عن ذلك إلا أن هذا القول يتنافى مع الواقع فالمرأة في الشرق من الناحية العملية تحظى بمكانة أعظم كثيراً من مكانة المرأة الأوربية ولها من الحقوق مالا تحلم به هذه الأخيرة في كثير من الأحيان . وعلى أية حال احتلت المرأة مركزاً هاماً في مصر

(١) إرمان - راتكه (ترجمة أبو بكر ومحرم كمال) «مصر والحياة المصرية» ، القاهرة

القديمة وظهرت سيدات عظيمات قن بأدوار كبيرة في التاريخ - وكانت الزوجة الشرعية لا تنقل مركزاً عن الزوج فهي على قدم المساواة معه وقد مثلت في تماثيل الدولة القديمة في حجم يكاد يكون مساوياً لحجم الرجل (شكل ٢) وتضع يدها حول رقبتة أو وسطه في تآلف وكانت تشترك في صيده ولهوه وفي الإشراف على أعماله المختلفة . أما في العصور المتأخرة نسياً فقد روعى أن تمثل الزوجات بحجم أصغر من حجم أزواجهن لأسباب فنية أو تقليدية .



شكل (٢) : تمثال الملك منقرع وزوجته بمتحف بوسطن

وكان من النادر أن يجمع المرء أكثر من زوجة شرعية ومع هذا كانت الزوجات الشرعيات للشخص الواحد في درجة عظيمة من الود

والتألف فثلا نجد أن « لأميني » الذي كان نبيلاً من نبلاء الدولة الوسطى كانت له زوجتان شرعيتان إحداهما تسمى « حنوت » والأخرى تدعى « نبت » وقد أنجبت له الأولى ثلاثة بنات وولد واحد . أما الثانية فكان لها ولدان وخمسة بنات وقد أسمت « حنوت » بناتها جميعاً باسم الزوجة الثانية وسمت الأخرى ثانياً بناتها باسم « حنوت » ويدل هذا على مقدار الصفاء بينها (١) . وفي العصور المتأخرة لم تنتشر عادة الزواج بأكثر من واحدة إلا في الطبقات الدنيا أو عند الملوك فقط وحكام الاقاليم وذلك لأسباب تتعاق بالوراثة أو لأسباب سياسية فأحد حكام الاقاليم في الدولة الوسطى قد أصاب ميراثاً عن طريق زواج والده بأحدى السيدات اللاتي يرثن أحد الاقاليم أي أنه لم يكن له الحق في وراثته إلا عن طريق هذا الزواج - كما أن الملوك في الدولة الحديثة عمدوا إلى مصاهرة بعض ملوك دول الشرق المجاورة ومن أبرز هذه الزيجات زواج رمسيس الثاني ب ابنة ملك الحيثيين بعد عقد معاهدة الصلح بينهما، وقد جاء هذا الزواج توكيداً للتحالف بينهما .

وكان الزواج يتم غالباً في سن مبكرة فالولد يتزوج عادة في سن الخامسة عشرة أما البنت فكانت تزوج في الثانية عشرة - وكان زواج الاخت قاعدة متبعة ويمنح الوالد ابنته لولده ليتزوج منها، وتطور الامر فأصبحت كدله الاخت تطلق لتعني الحبيبة أو الخليفة كما كانت تدل على الزوجة ولم تكن هناك غضاضة في زواج الاخت فقد نشأت هذه العادة على الأرجح

(١) إرمان - رائكة (المرجع السابق) ص ١٥٦

في المجتمعات الصغيرة لظروف حتمتها البيئية حتى تحافظ على دماؤها ، وظل
الملوك في مصر يتبعونها للحفاظ على الدم الملكي المقدس في دائرة البيت
الملكي نفسه .

ورغم الزواج المبكر كانت الحالة الخلقية بين الأزواج عادية في معظم
الاحيان ولكن شابتها بعض الشوائب في أحوال نادرة إذ أن أمثلة
وردت عن حدوث بعض الخيانات الزوجية إلا أنها لم تكن شائعة .
وكان ينظر إلى الارملة نظرة الحذر وكان الحكماء يحضون الشباب على
تجنب الالتقاء بها حتى لا يقعوا في حبائلها كما أنهم كانوا ينفرون من المرأة
المجهولة الاصل (١) .

ولم يكن النبيل أو العظيم ليقصر على زوجته الشرعية فقط بل كان
يتخذ بعض المحظيات فكان له بيت للحريم (شأنه في ذلك شأن الملوك)
كان يعرف باسم « بيت المحجبات » وينضغ لرقابة شديدة .
ولم يكن للحريم حقوق الزوجات الشرعيات (وليس لأبنائهم
ولا لبناتهم حقوق شرعية) ولم تظهرن في الحفلات على قدم
المساواة مع الزوجات بل كان مركزهن في المؤخرة دائما - وكان على
المحظيات أن يمتن بالغناء وبالترفيه عن السيد ، ومع هذا فقد وجدت
أمثلة كثيرة للعتق وتشير إلى ذلك نصوص مختلفة وبعض النصوص تشتد
في عتقهن والاحتفاظ لهن بالحقوق الشرعية كالأحرار (٢) .
وكان مركز الأم عظيما للغاية وكان المرء ينسب إليها أحيانا لا إلى

Max . d ' Anli 2.13FF (١)

Rec . Trav 29 , 166 ; ASA 14 , 23 ; JEA, 26 , 23 ff (٢)

والده فيضاف اسم الام بعد اسم الشخص - وكان التوريث في الدولة الوسطى يسير على نظام أن ابن الابنة الكبرى هو الذى يرث لا الابن الا كبر كما أن جد الشخص من جهة أمه كثيراً ما كان يتوسط لحفيده فى نيل الخطوة لدى البلاط أو فى الحكومة ، ولم يكن الابن يرث عن أبيه شيئاً إلا بعد أن يقرر الملك ومستشاروه ذلك ، لى يوضع كل فى مكان والده ، (١)

ومن جهة أخرى كان يراعى دائماً أن يحمى الابن اسم والده وأن يخلده فهو يشرف على تقديم القرابين له ويحافظ على مقبرته وإبتهاء آثاره لأن المصرى كان يعتقد أن زوال اسمه من النقوش هلاك أبدي له ولذا كثيراً ما عمد بعض المصريين إلى إزالة أسماء بعض السابقين للانتقام منهم - ومع كل لا نجد أمثلة كثيرة يفتخر فيها الابن بوالده بل ولم نجد سلسلة نسب كاملة تستمر عدة أجيال إلا فى عصور متأخرة وربما ذلك لصعوبة التعرف على الاجيال السابقة وذلك لأن الشخص كثيراً ما كان يغير اسمه فى بعض مراحل حياته كما أن بعض الأشخاص كانوا يعرفون بأسماء التدليل لأبائهم الأصلية وأصبحت أسماء التدليل هذه واختصارات الأسماء شائعة منذ الدولة الوسطى على الأقل .

أما الروابط العائلية بين أفراد الاسرة المختلفة فقد كانت تشوبها بعض الشوائب أحياناً وذلك لإنتشار عادة التسرى ووجود الكثير من الرقيق الاجنبى وكان المصرى ينظر إلى هؤلاء نظرة التحقير بل أنه كان ينظر

(١) إرمان - رانكة (المرجع السابق) ص ١٦٥ - ١٦٦

إلى الاجنبى عامة نظرة الاحتقار شأنه فى ذلك شأن الامم التى تنهض وخاصة
إذا كانت الامم الأخرى أضعف منها| ويتمثل هذا فى تعريف المصرى للمصريين
بأنهم الرجال أو بنى الإنسان؟ وللبدر بأنهم سكان الرمال أو الصحراء
ولاهل الجنوب بأهل كوش الخاسين، ومن الامثلة الواضحة على احتقار
أهل البلاد الأخرى ما نجده فى نص يمثل شكوى أحد الابناء إلى الوزير
فى حق والده الذى كتب جزءا من أملاكه لزوجته الثانية فقد أجاب
الوزير على هذه الشكوى بأن الوالد حر فيما يمتلك حتى ولو كانت تلك الزوجة
التي أعطاها ليدت زوجته بل محبوبة أجنبية آسيوية أو نوبية، (١) - وكثيراً
ما كانت الزوجة الثانية (وخاصة التي لا أولاد لها) تعامل بشيء من
القسوة من أولاد زوجها وإن كن أحياناً يعاملن معاملة طيبة ويحظين بمركز
يمتاز وبالطبع كان المال عاملاً هاماً فى تحديد بعض أنواع العلاقات التي
كانت تسود فى الأسرات .

أما فيما يختص بالأطفال وتلششتهم فإنهم فى عهد الدولة القديمة كانوا
يتركون لحريتهم حتى سن الرابعة تقريباً وكثيراً ما تمثلهم النقوش وهم
عرايا مجردين من اللباس يلعبون أو يصحبون آباءهم فى نزاهاتهم وصيدهم،
أما بعد الدولة القديمة فيندر أن نجد صورة لطفل مجرد من اللباس - وكانوا
يذهبون إلى مدارس تلحق بالمعابد غالباً، واسكن أبناء النبلاء وذوى النفوذ
كانوا يذهبون إلى مدارس البلاط حيث ينشأون مع أبناء الملك وكانت
العلامة المميزة لأبناء الملوك والنبلاء نصله من الشعر أشبه بالضميرة على
جانبي الرأس . ومع أنهم كانوا يعاملون بشيء من الحزم فى تربيتهم أكثر

من أطفال العصر الحالي إلا أنهم كانوا يحظون بالكثير من اللعب التي وجدت منها نماذج في بعض المقابر ومنها أنواع متقدمة في صناعتها وفكرتها كثيراً (١) .

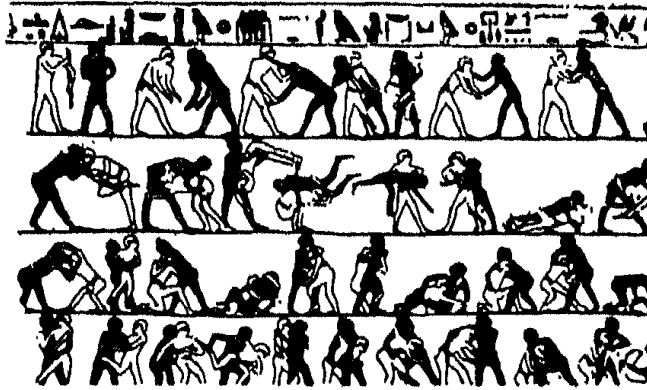
وقد روعى في قواعد السلوك أن تجعل من الإنسان شخصاً ممتازاً في عمله وفي علاقته مع الآخرين وهي تحض على التعلم والابتعاد عن الشرور والآثام وعن قرناء السوء - ومن تعاليم بعض الحكماء نقبين أن السلوك في حضرة العظماء كان معقداً يشوبه الكثير من التكلف ولا يكاد يختلف كثيراً عن قواعد السلوك الحالية، ومن أمثلة ذلك ما ورد على لسان أحد الحكماء ، إذا دعيت إلى حضرة العظيم فلا تجلس إلا إذا دعاك وإذا دعيت إلى الطعام فكل بما هو أمامك ولا تنظر إلى ما يأكله ذلك العظيم . . إضحك عندما يضحك فإن هذا مما يبهج قلبه . الخ .

أما عن وسائل الترفيه وقتل أوقات الفراغ فكثيراً ما كانت الأسرة تشترك في الخروج مع عميدها في رحلات صيده ولهوه ، فبعض النقوش تبين لنا الرجل واقفاً في زورقه وهو يقوم بصيد الطيور أو الأسماك في المستنقعات ومعه زوجته وأولاده وقد يصحبهم قط أليف يأتي بالطيور المصابة إلى القارب - أما في رحلات الصيد المحفوفة بالمخاطر مثل صيد فرس النهر والتمساح وصيد الحيوانات المفترسة في الصحارى فأغلب الظن أن الرجال هم الذين كانوا يخرجون فيها وحدهم إذ لم يرد في النقوش ما يبين اصطحابهم لمائلاتهم فيها ، غير أنه في أحوال نادرة كان يطيب لبعضهم

Garstang, Burial Customs, pp. 151 ff; Petrie, Naqada & Ballas, pp. 34 f; Petrie, Kahun , pl. 30 , 57 & pl. IX, 18-20

أن يصحبوا زوجاتهم في صيد الصحراء حيث تقوم كلاب الصيد بدور هام فيها إذ تكون حيوانات الصيد الرئيسية من الأرناب والغزلان التي يسهل للكلاب الإمساك بها - وكثيراً ما كانت تقام في الصحراء ساحة مسورة بحواجز (جدران) في هيئة الشباك تساق إلى داخلها حيوانات الصيد حيث كان الملك في الدولة القديمة يتمتع نفسه باطلاق سهامه عليها بينما يقف على خدمته عدد من الخدم يقدمون له السهام التي يطلقها ، وقد حاكى أمراء الأقاليم ملوكهم في هذه الرياضة منذ عهد الفوضى الأول - أما في الدولة الحديثة فإن الملوك كانوا مولعين بصيد الحيوانات المتوحشة ومواجهتها في العراء لما في ذلك من إثارة وحاس رغم الخطورة التي كانوا يتعرضون لها .

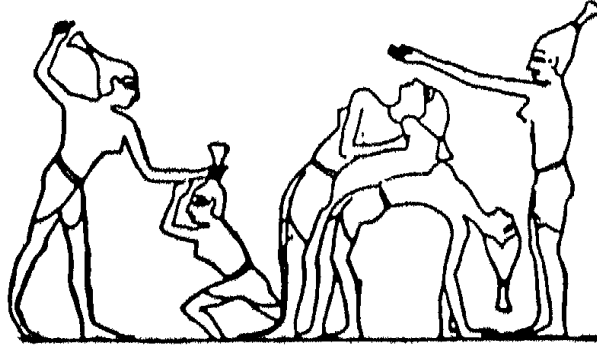
أما تسلية الأسرة داخل الدار فتنحصر في مشاهدة رب الدار وأسرته لبعض المتصارعين وهم يعرضون ألعابهم في مرونة وخفة ومهارة (شكل ٣)



شكل (٣) : فريق من المتصارعين

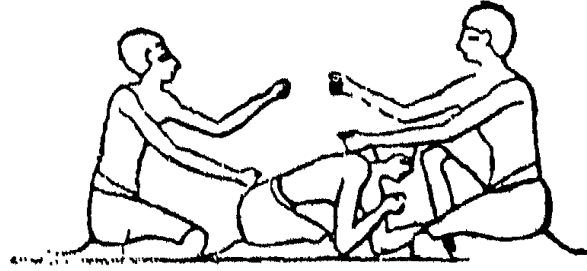
أو بعض المتبارزين المساحين بمضى قصيرة ويتقون ضربات خصومهم بأذرعهم الطليقة التي تحمينا سيور جلدية شدت إليها - وقد تشاهد الأسرة

كذلك عرضا لبعض الفتيات يلعبن بسكرات صغيرة ألعابا فيها كثير من المهارة والحدق أو يتردين حركات بهلوانية أو يقمن بالرقص وهو ما كان يقوم به الرجال كذلك في بعض الأحيان ، وكثيراً ما يبدو في مناظر الرقص ما يمثل اللوحات الحية أو رقص الباليه (شكل ٤) - وكانت الموسيقى



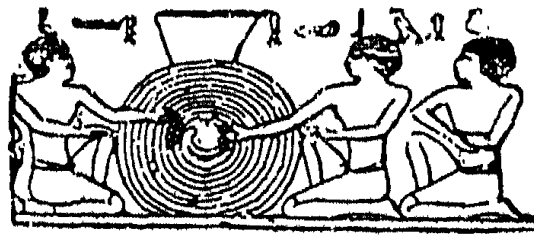
شكل (٤) : راقصات يمثلن لوحة حية

والتصفيق بالأيدى والغناء ترافق الرقص في كثير من الأحيان - وقد أغرم المصريون باقامة الحفلات التي كانت لا تخلو من الموسيقى والغناء والشراب . ولم يقتصر المصريون على ضروب التسلية الرياضية أو مشاهدة فرق المصارعين والراقصين وغيرهم والاشترك في الحفلات المختلفة بل كانت لديهم أنواع أخرى من الألعاب وضروب اللهو فن ذلك مثلا قيام بعض الصبية بلعبه يتكنن فيها أحدهم بمن يضربه وهو راكع لا يرى أيدى زملائه حين يهوى أحدهم على ظهره (شكل ٥) أو يشتركون في قذف أداة ذات سن مدببة على لوحة من الخشب وغيرها من الألعاب التي تحتاج إلى مران ومهارة - كما أن الألعاب التي تحتاج إلى إعمال الفكر كانت محببة لديهم في سائر عصورهم ومنها ما يشبه رقع الشطرنج أو الداما الحالية ، ومنها لعبة كانت رقعتها



شكل (٥) . لعبة محاولة معرفة الضارب

ذات مقبض وقد رسم عليها شكل أفعى ملتفة حول نفسها ولكنها مقطعة في بعض الأماكن وكان المتباريان يلعبانها بوضع تماثيل صغيرة للأسود والكلاب على جسم الأفعى ، ويبدو أن الفأز هو الذي يستطيع لإخراج تماثيله من ذلك التيه الممثل في شكل جسم الأفعى بشروط معينة (شكل ٦) وغير ذلك من الألعاب التي لم يمكن التوصل إلى طريقة لعبها أو قواعدها .



لعبة التعبان

شكل (٦)

الملك

كان الملك على رأس المجتمع وهو سيده فذاته مصونة لا تمس ، ولم يصل إلى هذه المكانة بالطبع إلا بعد تعاقب أجيال عديدة من الجماعات التي عاشت في وادي النيل ، إذ يمكننا أن نتخيل أن هذه الجماعات كانت تسلم قيادها إلى زعماء من أفرادها وتثق كل جماعة في زعيمها وتعترف له بالقوة والسيطرة، ثم أخذت هذه الجماعات تندمج معا وانتقلت الزعامة إلى أيدي أقوى زعيم من هؤلاء - وبالطبع لم يكن ليصل إلى الزعامة إلا من تمتع بسميزات يعجز عنها غيره من الأفراد بما أدى إلى أن تنسب إليه قوى خارقة وأن يحاط بمظاهر الإجلال والقدسية ولكنه في نفس الوقت كثيراً ما كان عرضة لأن يصبح هدفاً للحاسدين والمنافسين الذين يتحينون الفرص للإيقاع به والتخلص منه لإبداله بغيره ، وليس من الضروري أن يكون العامل على التخلص منه عدواً بل قد يكون من أقرب المقربين إليه إذ يتصور أنه أحق منه بالمكانة التي يتمتع بها .

ولا شك في أن حروباً كثيرة دارت بين الأقاليم المختلفة إلى أن وحدت هذه الأقاليم في قطرين « مملكة الوجه القبلي ومملكة الوجه البحري » واستمر الحال على هذا المنوال زمناً طويلاً قبل أن توحد المملكةتان توحيداً مؤكداً - وبالطبع أخذت مكانة الوعيم الأقوى تزداد ويعظم توقيره ، وما أن صار هذا ملكاً حتى كانت قدسيته قد بلغت أوجها ونسب إلى الآلهة - ونظراً لطول الأمد الذي عاشت فيه مملكتنا الوجه القبلي والبحري منفصلتين فقد حرص الملك على إبراز حكمه لمدين القطرين فأصبح يطلق على نفسه « موحد القطرين » أو « سيد القطرين » .

ومن البديهي أن تفتقل كل الحقوق والواجبات التي كانت لزعم الجماعة إلى ملك البلاد - وبما أن الزعيم كانت له السلطة المطلقة على الجماعة يتصرف في شئونها ويرعى حقوقها ويدافع عنها فقد أصبح الملك صاحب الحق المطلق في كل أملاك الدولة، وإذا سمح بإعطاء شيء منها إلى بعض المقربين له فإنها يكون ذلك من قبيل المنحة أو العارية التي يستطيع أن يستردها حينما يشاء بل وكانت الرعاية من الناحية النظرية على الأقل ملكا له يتصرف فيها وفق ما يريد - وكان هو المحور التي تدور حوله كل شئون الدولة وهو المسيطر عليها والمتصرف فيها ، إلا أنه في الواقع لم يكن يستطيع ذلك إلا بمعاونة الوزراء وعدد من المستشارين الذين يستعينون بدورهم بالعديد من الموظفين والكتاب، وإلى جانب هؤلاء يعمل قواد الجيش وجنودهم والسكينة وأتباعهم على احتفاظ الملك بسلطانه وإعلاء شأنه والمعاونة في تصريف شئون الدولة - وفي مختلف الأقاليم كان يمثل الملك أمراؤها الذين كانوا يستعينون بدورهم بأجهزة مصغرة لما هو موجود بالعاصمة .

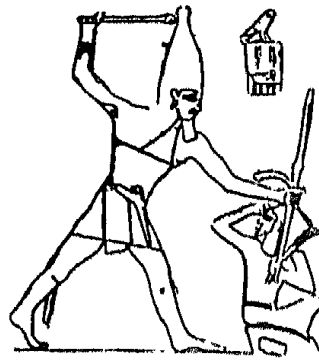
وكان على الملوك أن يحسنوا علاقاتهم بكل هذه السلطات وفي نفس الوقت يعملون على عدم تهديدها لسلطانهم ، وطالما كان الملك قويا فإنه كان ينعم باستقرار الأمر له وازدهرت البلاد ونعمت بالامن والهدوء في حين أن ضعف الملوك كان يؤدي إلى كثرة الدسائس من حولهم وقد ينجم عن ذلك إسقاطهم على أيدي مقتصبين للعرش أو قيام الثورات ضدهم وإن لم يكن هذا وذاك فإن كلا من الطوائف المختلفة التي تعاون الملك في تصريف أمور الدولة تعمل على زيادة نفوذها والإكثار من الامتيازات التي تتمتع بها وتسوء أحوال الدولة ويمم فيها الفساد .

ومع أن الملك كان ينتسب إلى الآلهة بل واعتبر في نظر المصريين إله كما يتضح ذلك من الألقاب التي كان يتخذها (١)، كذلك كانوا يشيرون إليه بلفظ « الإله » ، « حور الذي في القصر » ، « الإله الطيب » الخ . . . وبعد موته يطلقون عليه « الإله العظيم » - إلا أن فكرة ألوهية الملك الحي لم تمثل ماديا إلا ابتداء من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، فنذ أقدم العصور لم تنشأ معابد لعبادة الملك وهو على قيد الحياة إذ أن أقدم ماعثر عليه من معابد لعبادة الملك وهو ما زال حيا كان من عهد الملك امنحتب الثالث (٢)، ومن الممكن أن تكون الفكرة التي ابتدعتها حتشبسوت في معبدها بالدير البحري والتي حاكها امنحتب الثالث في معبد الأقصر من تصوير مولدهما كأن الإله آمون نفسه قد اتصل جنسيا بوالدتيهما وأنجبهما من صلبه مما جعل فكرة إنشاء معبد لعبادة امنحتب الثالث لشخصه مقبولة لديه إلا أنه لم يبدأها في مصر إذ لم تبدأ عبادة شخص الملك الحي في مصر إلا منذ عهد رععسيس الثاني.

وما دام الملوك يتمتعون بمثل هذه المكانة فإنه كان لا بد من أن يمتازوا عن رعاياهم في زيهم وزينتهم وإن كان لباسهم في أقدم العصور يقسم بالبساطة لايزيد على إزار قصير ذو شريط يمتد فوق الكتف الأيسر وحزام مثبت به ذيل حيوان من الخلف ويوضع فيه خنجر من الأمام وهذا الزي يشبه ما كان يلبسه صيادو الوحوش في أقدم العصور

(١) الألقاب الخمسة الشائعة هي : حور ، الربات (أو المنتسب إلى الإلهتين نخت إلهة الوجه القبلي ووادجيت إلهة الوجه البحري) ، ملك مصر العليا والسفلى ، حور الذهبي ، ابن رع .
(٢) في سدنجبا ، سيصب ، صلب بشمال السودان .

(شكل ٧) وإلى جانب هذا الإزار كان الملوك يزيون بنقبة قصيرة تلتف حول الوسط فوق ما يشبه الجعبة التي تستر العورة وفي الوسط حزام مثبت بمشبك من الأمام نقش عليه اسم الملك وقد أصبح هذا الزي تقليدياً في معظم العصور الفرعونية .



شكل (٧) أحد الملوك بالزي القديم

وكان يتحلى بلحمة طويلة صناعية مدببة يثبتها إلى ذقنه كما يضع على رأسه عصاة تنحدر على الكتفين بشيايا كثيرة وتلوى في الخلف على هيئة نصفية قصيرة فوق العنق ويشدها على الجبهة شريط يمثل على منتصفه الجزء العلوى للأفعى السامة (أوريوس) رمزاً لحمايتها له (كأنها تهدد أعداء الملك) بينما يمتد بقية جسمها في خط متعرج فوق منتصف الرأس — أما التيجان فقد كانت تختلف في أشكالها وما ترمز له فمنها التاج الأبيض وهو تاج الوجه القبلى وكان على شكل مخروط طويل ومنها التاج الأحمر وهو تاج الوجه البحرى وكان على شكل قلنسوة لها ظهر كسند مرتفع وحلية ملتوية من الأمام ومنها التاج المزدوج الذى يجمع بين التاجين السابقين ومنها التاج الأزرق ... الخ — ومن شارات الملك

التي كان يستعملها عصا معقوفة (كان شكلها يستخدم في الكتابة بمعنى «حاكم أو ملك») وأداة تشبه السوط أو المذبة، أما السلاح التقليدي الذي كان يمثل مستخدما له في النقوش التي تبيته وهو يقضى على الأعداء فكان هراوة أو دبوس قتال هو عبارة عن عصا قصيرة مثبت في طرفها كتلة من الحجر. وقد تطورت أزياء الملوك بمرور الزمن ولكنها في الغالب لم تختلف عن ملابس الرعية إلا بما تحلى به من زخارف ذهبية على أن النقبة الملكية التقليدية ظلت ملازمة لهذه الأزياء فكانت تلبس فوق الملابس العادية أو تحتها - وإلى جانب شارات الملك السابقه أخذ الملوك منذ عصر الدولة الحديثة يستخدمون سيفا يشبه المنجل.

ومن الطبيعي أن كثرة واجبات الملك وتعقد الحياة الاجتماعية قد استوجبتا ظهور الملك بمظهر لائق في المناسبات المختلفة ولذا كان من المحتم مراعاة اختيار الملابس والشارات المناسبة والعناية بها وملاحظة دقة استعمالها واختص عدد من الموظفين في البلاط بهذه الأمور فكان هناك « موظفو خزانة الثياب الملكية » و « المشرف على ثياب الملك » و « غسل فرعون » و « رئيس غسالي القصر » و « رئيس القائمين بتبييض الثياب الملكية » و « المشرف على صانعي الشعر (المستعار) » و « وصانعي شعر فرعون » و « أمناء التيجان » الخ - أما الحلي فكانت لها إدارة هامة في القصر « إدارة الحلي الملكية » ولها رئيس وكتاب ورئيس صناعات ورئيس فنانين و « المستشار الخاص بحلي الملك » و « مبدع الحلي الملكية » .

وكان العرش في أول أمره بسيطا عبارة عن مقعد في هيئة مكعب ذو ظهر قليل الارتفاع وابتداء من عصر الدولة الحديثة صار هذا المقعد

يوضع تحت مظلة تحملها أعمدة خشبية دقيقة ، ويبدو العرش وكأنه يرتكز على رؤوس أعداء مصر التقليديين (الزنوج والآسيويين) وتحلى المظلة في أعلاها بزخارف في هيئة صفوف من أفاعى الحماية (أوريوس) وفي قاعدتها بأسماء البلاد الأجنبية التي هزمها الملك .

حاشية الملك

لا يمكننا أن نتعرف على كل أفراد حاشية الملك ووظائفهم في البلاط بصورة كاملة ، ولكن من الممكن أن نتبع الكثيرين منهم إذا تأملنا مناظر الاحتفالات المدنية والدينية التي كان الملك يشترك فيها وخاصة من عهد الدولة الحديثة - ففي أقدم العصور كان الملك يتجلى لرعيته في محفة يحملها عدد من الجنود ويرافقه موظف كبير يحمل لقب « حامل المروحة على يمين الملك، وهو يحمل مروحة صغيرة رمزا لمكانته، بينما يوجد حامل مروحة كبيرة أمام المحفة وآخر من خلفها ، وحينما يخرج الموكب الملكي من القصر لحضور أحد الاحتفالات أو للزومة يجرى في المقدمة (جلان يحملان العصي لإفساح الطريق أمام المركبة الملكية التي تشدها خيول مزينة وعلى جانبيها يجرى الحرس الملكي ويتبعها عدد من الجنود يمثلون مختلف فرق الجيش ومن بعدهم كبار الضباط في مركباتهم - وإذا صاحبت سيدات القصر الملك في هذا الموكب فإن عربات الملكة والأميرات تجرى إلى جانب عربة الملك . وفي الاحتفالات التي تجرى داخل المعابد نجد إلى جانب الكهنة القائمين بالطقوس بعض أبناء الملك الذين حضروا لمشاهدتها ويحيط بالملك عدد من كبار موظفيه ، وقد يحمل محفته عدد من أبنائه بينما يقوم عدد آخر منهم باستخدام المراوح ويتقدم الكهنة في

الموكب طائفة من أقارب وأولاد الملك والأمراء العظام وفي طليعة الموكب نافخو الأبواق وقارعو الطبول معلنين قدوم الموكب .

ومما يوضح لنا الدور الذى كان يقوم به بعض رجال البلاط عدد من النصوص التى خلفها هؤلاء واقتنحروا فيها بمكانتهم وحظوتهم لدى سادتهم، فهناك مثلا « المشرف على أسرار غرفة الصباح ، وهو ما يعادل حاليا « رئيس الخدمة الخاصة ، الذى كان يشرف على ملابس الملك وزينته وتمتد إختصاصاته إلى كثير من الشؤون ، وكثيرا ما كان يعهد بهذه الوظيفة إلى « ابن الملك ، أو إلى أقرب المقربين إليه لأنه فى غالب الأحيان كان يتحكم فى إدارة القصر أيضا - وإلى جانب هذا الموظف كان هناك عدد كبير من المقربين إلى الملك ، وكانت تقاليد القصر صارمة بحيث لا يمكن لأحد هؤلاء أن يتعدى فى مثوله أمام الملك المكان الذى يخص له أو أن يقترب من شخص الملك أكثر مما يستحق ، ومع أن لقب « السمير ، و « السمير الوحيد ، يوحيان بأن حامل كل منهما لا بد وأن يكون من أتباع الملك الذين يضمهم بلاطه إلا أن هذين اللقبين كثيرا ما كانا يمنحان على سبيل التشریف لأشخاص يعملون فى خارج البلاط أو فى أماكن نائية عن العاصمة .

ومع أن الملوك كانوا يجمعون بين عدد من الزوجات إلا أن زوجة واحدة هى التى كانت تعد مالكة شرعية وهى التى كان يجرى فى عروقتها الدم الملكى أو أن تكون أولى زوجات الملك ، وكان اسمها يوضع فى خراطوش كما هو الحال بالنسبة لاسم زوجها وكان نفوذها عظيما وخاصة إذا استطاعت أن تتحكم فى شخص الملك ، وكثيرا ما كن يلمن دورا

رئيسيا في البلاط بعد وفاة أزواجهن كما أن بعضهن بلغن مرتبة التتديس كآلهات .

ولى جانب الملكات وغيرهن من زوجات الملك كان الملوك يحتفظون بحريم خاص ومظليات يخضعن لرئيسة ويشرف عليهن عدد من الموظفين لهم مكاتنهم مثل « المشرف على غرف الحريم الملكية » ، « نائب رئيس الحريم » ، لى جانب عدد من الحراس الذين يمنعونهم من الاتصال بالعالم الخارجى اتصالا غير مرغوب فيه ، وكثيرا ما كان بعض النبلاء ذوى المكانة يفخرون بأنهم كانوا يشغلون وظيفة « المشرف على بيت الحريم الملكى » ، وبأنهم كانوا يعرضون الحريم أمام الملك ويلاحظون الرقص فى القصر ، وبالطبع كانت مهمة هذا الحريم تنحصر فى تسليية الملك وإدخال السرور لى نفسه - وكان الوصول لى مرتبة محظية ملكية يعد شرفا تتطلع إليه الكثيرات لأن بعضهن كن يتمتعن بمحظوة كبيرة لدى الملك وتمنحن ألقاب شرف رفيعة مثل « حاكمة البلاد كلها » ، « سيدة القطرين » ، « الحاكمة الجيلة » ... الخ وكثيرا ما كان يفخر بعض العظماء باتخاذ محظيات ملكيات كزوجات لهم .

ولاشك فى أن تعدد زوجات الملوك وكثرة محظياتهم قد أدى لى وجود عدد وفير من الأبناء الملكيين ولذا كانت تخصص لهم أملاك معينة كما كانت تسند إليهم مناصب مختلفة دينية وقضائية وإدارية وعسكرية ، وقد عنى بتثنية هؤلاء الأمراء فى أقسام خاصة من القصر وكان المشرفون على تربيتهم يتمتعون بمكانة سامية فرضماتهم - ومن غالبا من زوجات الأشراف - كن يامبن دورا هاما فى البلاط وخاصة إذا ما أصبح المجالس

على العرش أو الملكة من بين الذين أرضعتهم ، كما أن مربى الأمير أو الأميرة كان هو الآخر يعد من أعلى شخصيات البلاط .

وكثيرا ما كان الملوك يسمحون بتنشئة بعض أبناء كبار رجال الدولة مع آبائهم في البلاط ويولونهم عطفهم ورعايتهم ولذا كان هؤلاء يفخرون دائما بهذه النشأة عندما يصبحون رجالا، مها علا قدرهم .

وينبغى أن نذكر بأن كل ملك كان يشمل بمطفه - إلى جانب أفراد أسرته عدد من الأقارب يميزهم لقب « قريب الملك » ، أو « المعروف لدى الملك » ، ولا يخلو الأمر من وجود أدعياء حملوا هذا اللقب ، ولذا كان أقرباء الملك الحقيقيين يميزون أنفسهم بلقب « قريب حقيقى للملك » ويمكننا أن نتصور أن الملوك وخاصة في أقدم العصور كانوا لا يسندون أكبر وظائف الدولة إلا إلى من يعيشون على مقربة منهم ومن يتوخون فيهم الإخلاص والحكمة ، ولذا لاستبعد أن الوزراء ورؤساء الكهنة كانوا من بين الأمراء الملكيين أو من أقرباء الملك ، ويحىء هؤلاء في مركزهم الاجتماعى بعد ملك البلاد وأسرته بالطبع - وكان سراة القوم والنبلاء كثيرا ما يحملون ألقابا شرفية كانت لا تمنح صاحبها الحق فى القيام بأعباء وظيفية وإن كانت فى معناها تدل على أعمال معينة ، إلا أن ذلك لم يكن ليقصد به إلا إظهار ما لحاملها من حظوة لدى الملك وتتيح له أن يظهر فى مهمته ، ومع كل يمكننا أن نتخيل أن هذا الإجراء كان وسيلة فعالة لمراقبة هؤلاء بإيقائهم على مقربة من القصر .

أما حكام الأقاليم فكانوا يمثلون طبقة خاصة ويجمعون من السلطات مثلها يجمع الملوك فى نطاق الأقاليم التى يحكمونها ، غير أنهم كانوا دون

شك أدنى مرتبة من الوزراء إلا إذا ارتبطوا برباط المصاهرة أو النسب مع البيت المالك نفسه .

وفيا عدا هؤلاء الذين أسلفنا ذكرهم جميعا لانكاد نقيين من طبقات المجتمع الباقية سوى طائفة الموظفين الذين كان المجال أمامهم مفتوحا للترقى إلى أرقى المناصب والارتفاع بمكانتهم الاجتماعية - ولانكاد نقيين من الآثار شيئا يستحق الذكر من الطبقات الاجتماعية الأخرى إلا أن من الممكن أن نتخيل أن هؤلاء كانوا يمثلون على الترتيب مهرة الصناع والفنانين ثم الكادحين من أبناء الشعب وهم التجار والمزارعون والأجراء وأصحاب الحرف الوضيعة والرقيق ، على أنه يبدو أنه كان في الإمكان تحرر بعض العبيد والوصول إلى مكانة اجتماعية مرموقة .

المسكن

لا يمكننا - بالرغم من تقدم الكشوف الأثرية في مصر - أن نكون فكرة واضحة عن أقدم المنازل التي وجدت فيها لأن هذه كانت من مواد خفيفة دون شك وكانت باستمرار تقع في نفس الأماكن المجاورة للبحر ، فاذا ما دمر منزل أو تهدم حل محله منزل جديد يبنى على أنقاض المنزل الأول - ولذا كان من العسير العثور على آثار لأقدم المنازل وإعطاء صورة مؤكدة عنها ومع ذلك يمكن أن نتصور أشكال تلك المنازل من الرسوم التي وردت عن أقدم المعابد المصرية لأنه من المعروف حسب رأى المحدثين أن المنزل المصرى هو أساس التصميم في المعابد والمقابر ، وبما يؤيد ذلك أن المصرى نفسه كان يطلق على المعبد اسم بيت الإله وعلى

المقبرة بيت الروح أو المنزل الابدى فكلاهما إذن صمم على غرار المنازل التي أقيمت للأحياء .

وأقدم أنواع المعابد كانت عبارة عن أكواخ من الالياف المضفورة ومن سيقان البردى وغيرها من النباتات المماثلة ، ولا شك أن المنازل كانت على مثالها - وقد استبدلت هذه في العصور التاريخية بل ومنذ ما قبل الاسرات بمنازل من الطين كما يستدل على ذلك من نموذج من الطين شكل (٨) وجد في إحدى مقابر الوجه القبلي وهو يمثل المنزل في



شكل (٨) : نموذج من الطين لمنزل من عصر ما قبل الاسرات

هيئة متوازي مستطيلات مائل الجدران الى الداخل وكان إطار الباب من الخشب والعارضة الاسطوانية التي تربط القائمتين من الخشب أيضا وبالحواط الخلقى للنزل نافذتان عاليتان متقاربتان تثبت فيها عوارض قصيرة من الخشب .

وقد سبقت الاشارة بأننا لم نعثر على مدن مصرية كاملة إلا في حالات نادرة وشاذة وقد بنيت هذه المدن لأغراض خاصة وفي عصور خاصة ثم أهملت وهجرت بعد سكنها بفترة قصيرة فأدى ذلك إلى طمرها بالرمال وأتبعته الفرصة لحفظها ، ومن أمثلة هذه مدينة كاهون التي ترجع إلى الدولة الوسطى - وهذه المدينة (شأنها في ذلك شأن مثلتها أخيتاتون «تل العمارنة» التي بنيت في عهد اخناتون) بنيت دفعة واحدة ، أى أنها لم تتسوى بالتدريج فى مدينة مصطنعة ولذا بقى تخطيطها سليما فى جلته وعلى ذلك أمكن للأريين الذين قاموا بالحفر فيها أن يستكملوا النقص فى بعض المنازل التي تهدمت واستطاعوا أن يكونوا فكرة صحيحة عن شكل المنازل فيها . وتبلغ مساحة مدينة كاهون حسب الابحاث الأثرية التي تمت فيها ٣٥٠ × ٤٠٠ متر مربع تقريبا ويحيط بها سور من اللبن به فتحتان أحدهما جنوبية غربية والثانية شمالية شرقية وتنقسم هذه المدينة إلى قسمين : أحدهما صغير خاص بمنازل العمال والآخر كبير كان يقطنه الملك وبعض النبلاء وكبار موظفى البلاط وهو مقر الحكومة أيضا .

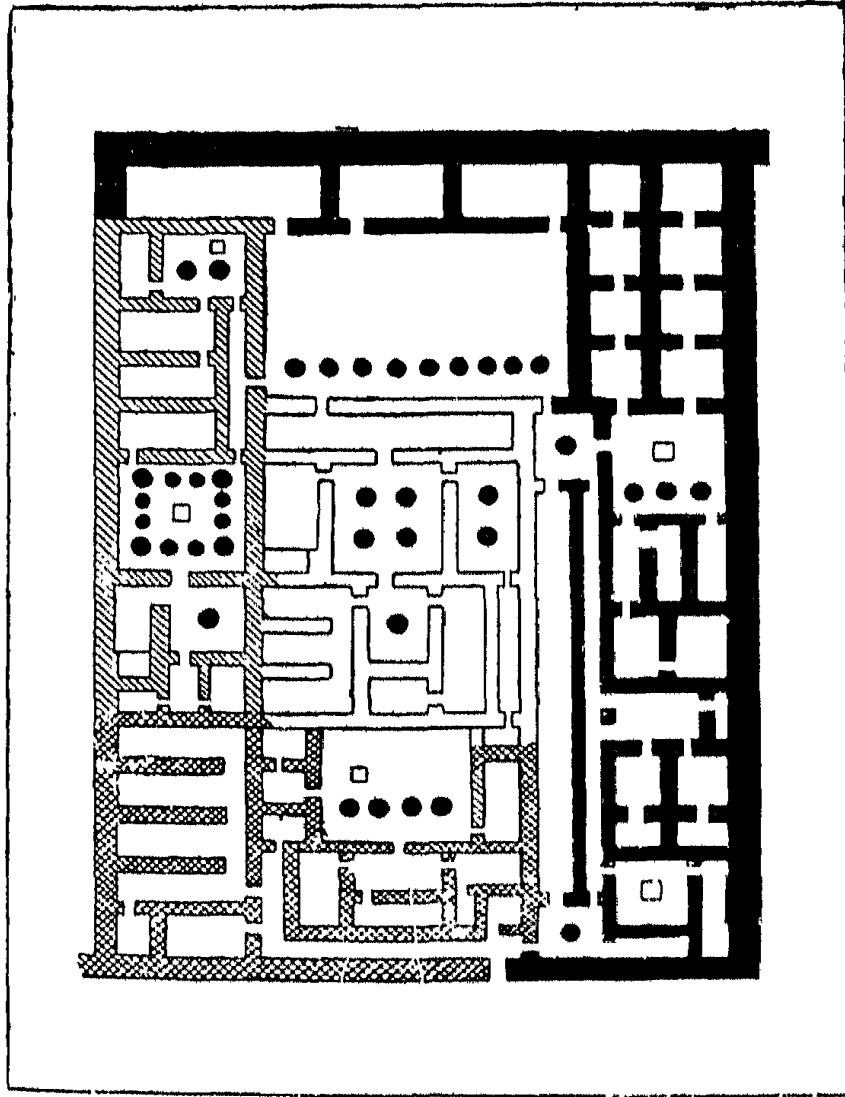
ومنازل العمال غاية فى التواضع ويشترك كل منزلين فى حائطها الخلقى أما القسم الكبير من المدينة فيقع فى الجانب الشرق منها وينفصل عن القسم السابق بجدار عريض يمتد بطول المدينة ، وهذا القسم كان يشغل

نحو ثلاثة أرباع المدينة ونصفه على الأقل كان خاصا بالملك وكبار موظفي البلاط والحكومة، وهو يتألف من عشرة أو أحد عشر منزلا في حجم القسم الخاص بالعمال ويفصل كل بيتين حائط مشترك وإلى جنوب تلك المنازل الكبيرة كانت توجد منازل صغيرة أشبه بالفيلات وهي خاصة بالنبله وإن كان بعض هذه المنازل الصغيرة كبير الحجم متعدد الحجرات ومنها ما يضم نحو سبعين قسما بين غرفة ودهليز شكل (٩).

وأهم الأجزاء الرئيسية في أى منزل من منازل النبلاء هي : المدخل وحجرتين للبواب ودهليز يتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه إلى بيت الرجال والآخر يتجه إلى قسم الحريم .

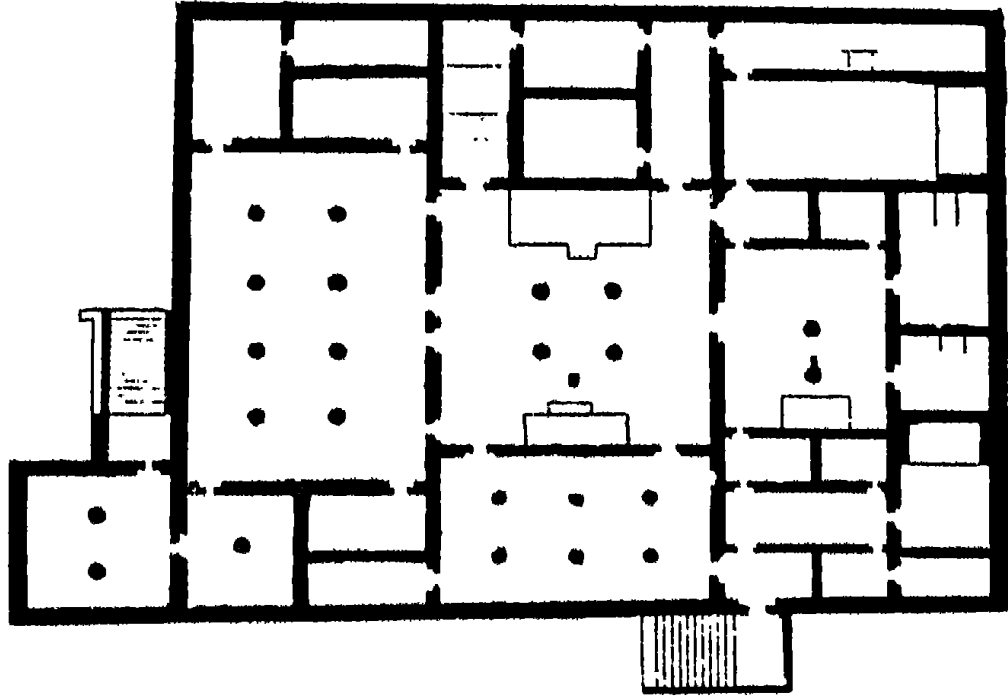
أما منازل العمال والطبقات الدنيا من الشعب فكانت كما ذكرنا بسيطة متواضعة . وهي على العموم تتألف من ردهة تحيط بها بعض غرف وكانت أحيانا تتكون من طابقين .

أما في الدولة الحديثة فأحسن الأمثلة للمنازل فيها تلك التي وجدت في تل العمارنة وهي كذلك على نوعين : منازل لأفراد الشعب عبارة عن غرفة رئيسية في الوسط تبعد ردهات تفصلها وتخفيها عن أنظار الداخلين وفيها سلم يؤدي إلى السطح ولها غرفتان خلفيتان كما توجد بها أحيانا غرفة للاستحمام . أما منازل السادة فكانت أشبه بالدوار في الريف المصرى الحالى ، فبعد المدخل الرئيسى يوجد فناء ومن هذا يصعد سلم إلى قسم الرجال ويليه مباشرة هو أعمدة أو مكان للاستقبال يجلس فيه صاحب الدار ويجوار هذا الجزء توجد غرفة للطعام ومن هذه يفتح باب إلى حجرة أخرى للاستقبال وهي صغيرة نسبيا ويلى هذه سلم يؤدي إلى الدور العلوى أيضا حيث يوجد القسم الخاص بالسيدات .



شكل (٩) : رسم تخطيطي لمنزل من كاهون

و حول حجرات الاستقبال توجد المخازن وبعض الحجرات الخاصة
بوظائف البار ودورات المياه وكذلك توجد بعض الحظائر - والعناء الامامى
للدار يفتح في حديقته كبرى مجاورة للمنزل قد يكون لها مدخل خاص
اخر وفي بعض الاحيان يوجد بها مسجد خاص - شكل (١٠) ، وكانت



شكل (١٠) : رسم نخطبطنى لمنزل من العمارة

الابواب والنوافذ فى هذا الدور قليلة العدد نادة والنوافذ صغيرة المساحة وترتفع إلى قرب السطح وكانت الجدران تزين فى كثير من الأحيان وبمعض المنازل يطلى من الخارج .

وكانت هذه المنازل تزود بأثاث كاف من أسرة ومساند رأس ووسائد وكراسى وغالبا ما كان هذا الأثاث دقيسق الصناعة مزخرف بمختلف الزخارف وخاصة فى عصر الدولة الحديثة بل وابتداء من أواخر عهد الدولة الوسطى كان الأثاث يطعم بالاصداف والاختشاب الثمينه وبمعض الاحجار الكريمة وشبه الكريمة ، وبعد أن ازدادت الصلة بشمال السودان

كان الاثاث يطعم بالماج والآبنوس وتطورت أشكال موائد الطعام والاولانى -
وظهرت أشكال كثيرة لقدور المشروبات وقواعدها وربما كانت هذه منقولة
عن طرز آسيوية كما زينت صناديق حفظ الملابس بالنقوش والرسوم
المختلفة التى تمثل مناظر الصيد والحروب وغيرها وما زال أثر ذلك يطلعننا
فى العصور الحديثة حيث نجد مثل هذه الصناديق فى الريف المصرى الآن،
وغالبا ما كانت جدران المنازل تغطى بستر من الحصير كذلك وجدت
موائد للفحم للتدفئة وكثر استعمال المصابيح وتمددت أشكالها وأشكال
قواعدها كما وجدت أدوات للاغتسال ولسائر الاغراض الاخرى .

وكانت هذه الدور تزود بأماكن مخصصة للطبخ وأماكن لمختلف
الصناعات والاعمال المنزلية ، وهذه الاعمال لا تقتصر على الاعمال البسيطة التى
نزاولها فى منازلنا فى الوقت الحاضر بل كانت متعددة ومعقدة فكانت كل
دار أشبه بمصانع صغيرة متعددة تجتمع تحت سقف واحد ولكل من هذه
عماله المختصين والى جانب هؤلاء موظفين اداريين وعمال للشئون المنزلية
مثل البستانيين والطباخين والخدم والكتاب والحرس - أما طوائف الصناع
الذين كانوا يعملون فى المنزل فمن أهمهم صناع الجمعة والخبازين وصناع
الاولانى الفخارية والنجارين وغيرهم ، ولايفوتنا أن نذكر هنا بأن المائدة
المصرية كانت معقدة تعددت فيها أنواع الاطعمة بل وتمددت أنواع
الصنف الواحد منها مثل الخبز وكانت الحفلات والمآدب غاية فى البذخ
والإسراف مما يدل على اهتمام المصرى بطعامه اهتماما بالغاً كما كان يميل
للى التألق فيه والعناية به فى معظم أطوار حياته فلا تكاد تخلو مناظر
الحفلات والموائد من تمثيل الزهور وكثيرا ما كانت ترتب فى
شكل بهيج .

ودراسة المنازل المصرية تدل على أن المصرى عامة وصل الى أقصى ما يمكن الوصول اليه فى سبيل تهيئة مسكنه لراحته وراحة عائلته كما كان يتوخى فى تصميمه أن يحقق أغراضه الصحية والاجتماعية .

« الملابس والزينة »

يبدو أن الإنسان فى البداية كان يتخذ من الجلد رداء يغطى جسمه وفى ذلك كان يستوى الرجال والنساء - وقد ظل الجلد مستعملا بعد ذلك فى عصر الدولة القديمة ولكنه أصبح قاصرا على فئة خاصة هى فئة السكينة التى استعملت جلد الفهد كزى تقليدى دينى فوق نقبة بسيطة فى كل العصور الفرعونية .

وأقدم لباس للرجال كان عبارة عن حزام حول الوسط يشد إليه ما يشبه الجعبة أو الكيس لستر العورة - بعد ذلك ظهرت النقبة القصيرة البسيطة وهى تشبه قطعة القماش (الفوطه) التى يلفها بعض الصيادين أحيانا فى بحيرة المنزلة حول وسطهم وتصل إلى الركبة تقريبا وهى تعرف فى مصر القديمة باسم « شنديت » (شكل ٧) - وتكاد تكون هذه من أول ما استعمل من الملابس فهى من عصر مبكر جدا ، بل ويخيل إلينا أنها استعملت منذ أن عرف الانسان النسيج وهى تعد الأساس الذى قامت عليه جميع الأزياء الخاصة بالرجال فى العصور التالية وأقدم الرسوم الدالة عليها تصورهما فى هيئة خطوط تتدل من الحزام وتتماهد عليه أى أنها فى هذا تذكر بألياف النخيل أو السمار أى أنها تشبه زى السكان الأصليين فى جزر هاواى .

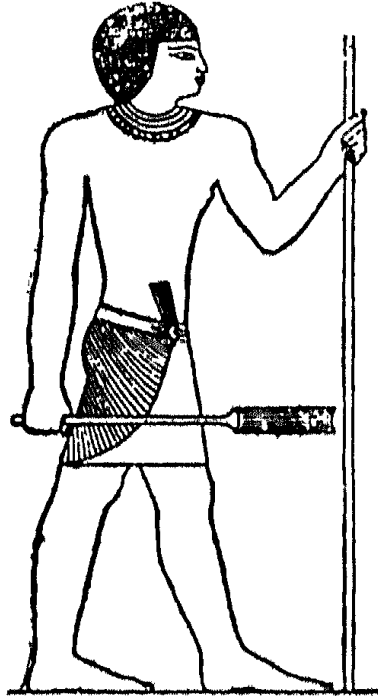
ثم أصبحت هذه النقبة ببضء مستطيلة الشكل تثبت حول الوسط

بحزام وتترك الركبة عارية غير مغطاه وقد أصبحت جعبة العورة غير ضرورية ولكنها ظلت لباسا تقليديا يتزى به الملك وظلت كذلك حتى نهاية العصور الفرعونية تقريبا . كذلك كان هذا السكيس يمثل في تماثيل بعض الآلهة ونقوشها ، وربما كان هذا الزى (أى الجعبة) من أصل أفريقي فبعض القبائل ما زالت تستعمله حتى زمنا هذا . وعند الصيد كان يضاف إلى الإزار القصير (الشنديت) ذيل حيوان ، وقد انقرض هذا هو الآخر إلا من ملابس الملك .

وظلت النقبة الضيقة السكتانية هى القطعة الرئيسية فى لباس المصرى فى الأسرة الأولى والدولة القديمة وكان يلبسها أفراد من ذوى المراكز السامية حتى عهد الأسرة الرابعة ثم اقتصر استعمالها بعد ذلك على السكتية والخدم والفلاحين . فالمعروف أن التطور يبدأ أولا فى البيت الماسكى ثم يقلده النبلاء وهؤلاء يقلدهم من يتلوم من الطبقات بعد أن يفقد الشكل الجديد رونقه عند الطبقة الخاصة وبعد ذلك يصبح شائعا فى الطبقات الدنيا بينما يتخذ العظماء زيا جديداً آخر وهكذا . ولم يخرج المصرى عما جرى به العرف أيضا من مراعاة لظروف السن فما كان ملائما للسنين لم يكن مناسباً للحدثى السن .

ومنذ عهد خفرع اتخذ النبلاء نقبة أوسع وأطول عن ذى قبل وتغالوا فى ذلك من أواخر الأسرة الخامسة وأصبحت النقبة بارزا من الامام ثم قصروا فى شكلها فى عصر الأسرة السادسة ولكنها كانت أحيانا تزخرف بخرز منظوم ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا إذ بطل إستعمال الخرز بانتهاء عصر الدولة القديمة . وفى نفس الوقت تقريبا أى فى نهاية عصر الدولة القديمة

بدأ الخدم والفلاحون يستعملون نقبة أوسع مقلدين بذلك خدم العظماء الذين كانوا قد بدأوا محاكاة أسيادهم - وفي أحوال نادرة استعمل الرجال ملابس طويلة سابقة تشبه القميص وتصل إلى قرب القدمين وغالبا ما كان يظهر بها الموقى الممشاين أمام موائد القرابين، ويبدو أن هذا الزي كان يستعمله المسنون في نهاية حياتهم أى في الفترة التى تسبق وفاتهم - وكان هناك رداء للاحتفالات يلبسه العظماء وهو من النوع القديم القصير وربما كان أوسع منه قليلا ويتميز عنه بشكله الأنيق المستدير من الأمام وفيه يبرز طرف رفيع من النقبة من تحت الحزام مرتفعا إلى أعلى أو شريط خاص ويزين بمشبك أنيق أو أنشودة جميلة يكتب عليه أحيانا لإسم صاحبه ويزخرف الجزء الخلفى من الإزار بقطعة من القماش الذهبى ذى الشنايا (شكل ١١)



شكل (١١) : الزي التقليدى فى الدولة القديمة

وفي حالات خاصة من الدولة القديمة والوسطى (الكهنة فقط) كان رداء الحفلات يكمل بجلد فهد يضمونه على أكتافهم بحيث تنحدر رأس ومخالب الحيوان الأمامية إلى أسفل وترتبط المخالب الخلفية بشرائط فوق الكتف - وقد ظلت هذه الملابس دون تغيير في عهد الفوضى الأول اللهم إلا أن النقبة استطلت إلى منتصف الساق .

وفي الدولة الوسطى زخرف الطرف الأعلى للنقبة بحاشية مطرزة أو بعمل ثنايا أنيقة في الجزء الأمامي منها - وكان النبلاء يتخذون نقبة خفيفة شفافة فلبسوا تحتها نقبة داخلية ، أما العامة فقد اقتصروا على نقبة سميكة - وقد عاصر النقبة المزدوجة التي كان يرتديها النبلاء معطف قصير أو ثوب ضيق محبوك مخطط يغطي الجسم من الرأس إلى القدمين .

ولم يطرأ على ذلك تغيير يذكر فيما بين الدولتين الوسطى والحديثة غير أن الأشكال الفاخرة أخذت تطنى على الأشكال البسيطة ولم يحتفظ بالنقبة البسيطة إلا الكهنة . وفي عهد الدولة الحديثة بالذات أدى اختكاك مصر بالبلاد الآسيوية في الشمال إلى تغيرات سريعة في الزي ، فنذ عهد حتشبسوت غطى الجزء الأعلى من الجسم بقميص قصير فضفاض ولكنها تغيرت من جيل لآخر - ففي بداية النصف الثاني من الأسرة الثامنة عشرة استطلت النقبة الخارجية من الخلف وقصرت من الأمام وفي نهاية الأسرة كانت النقبة الداخلية طويلة فضفاضة أما الخارجية فكانت ترفع وهي منتفخة فتظهر من تحتها النقبة الداخلية وكان الجزء الأمامي منها ينتهي بثنايا سميكة وتتدلى أطراف الحزام كشرائط طويلة .

وقد أخذت النقبة الخارجية تقل في الأهمية في الاحتفالات حتى

أصبحت قطعة من القماش تلف حول الخصر بنما أصبحت النقبة الداخية فضفاضة ذات ثنایا، وتعددت أشكال هذه النقبة الداخية فكانت أحيانا قصيرة من الأمام وتغطي الساقين من الخلف وفي أحيان أخرى كانت تتخذ شكل النقبة القديمة أو كانت تلف حول الخصر مرتين أو ثلاث . أما الجزء الذى يغطي الجسم من أعلى فظل ثابتا تقريبا ولكنه فى عصر الأسرة التاسعة عشر أصبح أكثر اتساعا - أما المعطف الذى كان يغطي الظهر ويربط من الأمام على الصدر فقد ظل مستعملا كذلك وظهر الملوك فيه كثيراً ولم يلبسه الأشخاص إلا فى الحفلات .

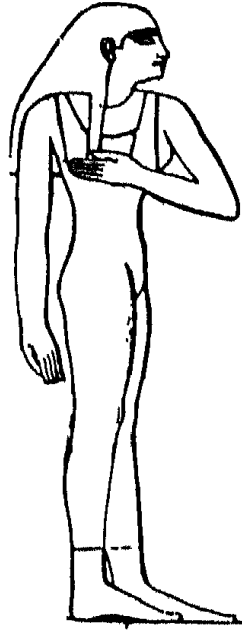
وقد وجدت ملابس خاصة ترتديها طبقات معينة من الشعب أو ملابس تدل على وظيفة لابسها وهذه وجدت فى جميع العصور فالملك مثلا كان يلبس فى الحفلات التذكارية قميصا قصيرا ونقبة ماسكية لها ذيل حيوان ثم أصبحت هذه النقبة فى متناول طبقات عدة فيما بين الدولتين الوسطى والحديثة حتى أنها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة أصبحت زيا شائعا بين المشرفين على كل أنواع الإدارات فى المناسبات الرسمية فقط وإن كانوا أحيانا يلبسون زيا مشابها ، ومع كل فحينما قضت ظروف التجديد باستعمال نقبة خارجية فإنهم كانوا يرفعون هذه ويربطونها حتى تظهر النقبة الداخية من تحتها إشارة إلى مكانتهم - ومن علامات الشرف أيضا أن النبلاء فى الدولتين القديمة والوسطى كانوا يلفون قطعة من القماش الأبيض ، حول صدورهم أو يعاقونها متدلية فوق الكتف فى شكل شريط عريض، وقد أصبح هذا الشريط زيا مميزا للسكان المرتل فى جميع العصور كما أن الشريط الضيق الذى كان يمسكه النبلاء بين أصابعهم ورؤساء الأعمال لم يقتصر استعماله على عصر من العصور .

وابتداء من أواخر الدولة الوسطى كان كبير القضاة والوزير يلبس ثوبا محبوبا ينحدر من الصدر حتى يبلغ القدمين يشبته شريط من الخلف عند الرقبة .

وفي عهد إختاتون زين الملك وزوجة أرديتها بخرطوش - آتون أما ملابس صغار الموظفين فقد كانت متأخرة في تطورها ، ففي عهد الدولة الوسطى لبس هؤلاء النقبة القصيرة التي كانت مستعملة في الدولة القديمة وفي الدولة الحديثة لبسوا النقبة الأطول الخاصة بالدولة الوسطى - كذلك كان أفراد الطبقات الدنيا من الشعب كالفلاحين والرعاة والعمال يلبسون نقبة قصيرة عادية غير مضمومة الأطراف تكفي أية حركة لفتحها من الأمام وكانت من السكتان عادة وفي عهد الدولة الحديثة بالذات كان العمال يلبسون فوقها شبكة من الجلد وكثيراً ما كانت ترقع في الأماكن المستهلكة فوق الساقين ، أما الرعاة والملاحين فكانوا يلبسون نقبة بدائية من الشرائط المصفورة وكان الصيادون ومن يعملون في الماء يلبسون حزاما تتدلى منه أشرطة أو هذب من الأمام - وكثيراً ما كان الصياد والراعي والجزار يضطر إلى خلع زيه أثناء العمل فيعمل وهو عارى تماماً .

« ملابس النساء »

كانت ملابس النساء بسيطة متماثلة منذ أقدم العصور حتى الأسرة الثامنة عشرة فلا فرق يذكر بين الفلاحة والإبنة المملكية إذ كان الثوب بسيطاً خالياً من الثنايا وكان من الضيق بحيث يبرز تقاطيع الجسم بوضوح (شكل ١٢) ، وكان ينحدر من الثدي ويمتد حتى يبلغ العقبين ويثبت بشريطين يبران فوق السكتين - وهذان الشريطان وحدهما هما اللذان خضما



شكل (١٢) : الزى العادى للمرأة

للتطور فأحيانا كانا يمتدان فى وضع رأسى من القميص إلى الكتفين وأحيانا يتقاربان من بعضها فى ميل عن الاتجاه الرأسى وفى أحيان أخرى كانا يتقاطعان - وقد يما كان هذان الشريطان يظبيان الثديين تماما ثم أصبحا يضيقان أو يختفيان تماما فيبرز الثديان .

وكان القميص عادة من لون واحد لا زخرف فيه إلا عند حافته العليا إذ كانت هذه تطرز أو تزخرف أحيانا ، وكانت الملابس المحلاة بالرسوم نادرة - وهذه الزخارف كانت عبارة عن خطوط أفقية أو رأسية أو تنحصر فى زخرف ريشى أو زهيرات تنتشر فوق الأثداء والأغلب أن تطرح شبكة من حبات الخرز فوق القميص البسيط الذى كان أحيانا يلبس

فوق الثوب العادى (كما هو ممثل فى تمثال نفرت زوجة كبير الكهنة
رع حتب الموجود فى المتحف المصرى) .

وفى الاسرة الثامنة عشرة أى حوالى الوقت الذى تغير فيه زى
الرجال تغير كذلك زى النساء وأصبح من قطعتين أيضا الأولى قميص
ضيق يغطى الكتف اليسرى بينما تكون الكتف اليمنى عارية، أما الرداء
الثانى وهو الخارجى فكان فضفاضا ويربط من الأمام فوق الثدي وكلاهما
من الكتان الشفاف ترى تقاسيم الجسم خلالها وإن كان بعض الأثريين
يرى بأن تمثيل تقاسيم الجسم لا يرجع إلى شفافية الأثواب وإنما يرجع
إلى غرض دينى يحتم اظهار سائر أعضاء الجسم ، أى لم يكن هذان الثوبان
شفافان - وكان الرداء الخارجى يوشى عند حاشيته بتطريز وينسدل باستقامة
عند الوقوف ، ثم تطور هذا اللباس كثيرا بحيث يصعب تتبع تفصيلاته وإن
كان من المؤكد أن الرداء الخارجى فى عصرى الاسرتين التاسعة عشرة
والعشرين قد تطور فأصبح ينسدل فوق الذراع اليسرى أما الذراع اليمنى
فكانت طليقة . وحوالى نهاية الاسرة العشرين أضيف قميص سميك إلى الثوب
الداخلى الذى كان على الأرجح نصف شفاف علاوة على الرداء الخارجى
المفتوح - كذلك وجد زى آخر مختلف عن الطراز المألوف وهو يتألف
من ثوب طويل له أكمام ومعطف قصير مزركش بهدايب يوضع فوق الاكتاف
ومن الأمام ينسدل رداء يشبه النقبة ولكنه يمتد من الرقبة الى
القدمين .

أما الخادومات فقد كن يلبسن قميصا يصل إلى الرقبة وله كان قصيران
أحيانا ولم يكن هناك فارق يذكر بين ملابس الخادومات والطبقات الدنيا

وبين السيدات من نفس العصر وهذه الثياب عموماً لم تكن لتسمح إلا بحركات محدودة ولذا كن يحتفظن بنقبة صغيرة عند العمل ويتجردن عما عدا ذلك وهو ما كانت تفضله الراقصات اللائي كن يزين النقبة بكل ألوان الزخارف، أما صغار الوصيقات فكن عاريات تماماً إلا من حزام ضيق مطرز حول الخصر .

ونظراً لانتشار استخدام الكتان في صنع الملابس حرص المصريون على نظافته وتفننوا فيها وأدى هذا إلى وجود فئة خاصة للقيام بهذا العمل، ومن الألقاب التي كان يفخر بها بعضهم لقب «رئيس الغسالين للملك» و«رئيس المبيضين للملابس الملكية» ولاندرى شيئاً عن المادة التي استعملت لإزالة الأوساخ أو التي تعادل الصابون ولكننا نعرف من الرسوم والنقوش الأثرية أن المصري كان يضرب ملابسه بعضى قصيره ويعصرها ويضمخها بالدهون والزيوت العطرية - ولا نعرف شيئاً يذكر عن حياكة الثياب ولكن يبدو أن هذه المهنة كانت شاقة عسيرة كان يقوم بها الرجال في الغالب وإن قامت النساء أحياناً بمثل هذا العمل كما يفهم ذلك من قصة الأخوين مثلاً ولم يحدث هذا إلا في نطاق محدود .

النعال :

كان المصريون كثيراً ما يمثلون حفاة لا فارق بين فلاح وملك، شيخ وشاب ، رجل وامرأة . وفي الدولة القديمة لم تستعمل المرأة النعال إلا نادراً كذلك كان الرجال لا يلبسونها إلا عند الضرورة القصوى أو للزهة وكان الخدم والعمال الزراعيين يستعملون النعال في الحقول للسير على الجذور

والقش - وكان العظاماء يخلعون النعال كما أمكن ذلك ويمطونها
لحامل النعال .

وفي الدولة الوسطى كان عدم امتلاك النعال من علامات الفقر كما
يتضح ذلك بما ورد في تنبؤات الحكيم ايبو- ور . وفي الدولة الحديثة أصبح
استعمالها عاما ومع ذلك ظل المعتاد أن يخلع النعل في حضرة الشخص
الأعلى مقاما .

والنعال عامة كانت في جوهرها من شكل واحد فالجزء الأسفل كان
من البردى أو سعف النخيل أو الجلد وفي هذه الحالة الأخيرة كان يخاط
نعل آخر من سعف النخيل فوق الجلد - وللنعل سيران من المادة المصنوع
منها أحدهما يمر على أذلي القدم والآخر يوضع بين الاصبع الكبير
والاصبع التالي له ويتصل بمنتصف السير الأول ، وأحيانا يمر سير
ثالث حول القدم من الخلف يحكم تثبيت النعل . ومن نهاية الاسرة الثامنة
عشرة فضلوا نوعا طرفه مدبب إلى أعلى أى أن هذه النعال كانت تشبه
بعض الصنادل التي تلبس في الصيف .

ب) الزينة :

١ - الشعر : لم يكن قص الشعر وحلاقة الذقن معروفين في العصر
الباكر وقد استمر عامة الشعب والرعاة والفلاحين أحيانا في عدم قص
الشعر والحلاقة خلال الدولة القديمة أيضا - ولا يدل ذلك على عدم اهتمام
القوم بزينة الرأس بل إن ما عثر عليه في مقابر العصور السحيقة ومن
أوائل عصر الاسرات يدل على مدى اهتمامهم بهذه الزينة حيث وجدت
الامشاط ودبابيس الشعر في تلك المقابر .

ويبدو أن عادة قص الشعر بدأت عند الطبقات الراقية منذ الأسرة الأولى أى حوالى نفس العصر الذى وجدت فيه النقبة السكتانية التى حلت محل النقبة المضفورة - وفى بعض الأحيان كان الشعر يقص بحيث يبقى قصيراً فوق الرأس فلا تحتاج إلى غطاء ، وفى أحيان أخرى كان الشعر يزال ولذا كان لابد من لبس قلنسوة ضيقة محبوكة لحماية الرأس ضد أشعة الشمس ، كما كان من المعتاد كذلك استعمال شعر مستعار .

وفى الدولة القديمة تميز نوعان من الشعر المستعار : أحدهما يشبه الشعر المجدد القصير والآخر يشبه الجداول الطويلة وكان الأول لا يترك من الجبهة ظاهراً إلا القليل فى أغلب الأحيان وينطى الآذان ، وكان الثانى يمتد خلف العنق وخصلاته تتخذ أشكالاً هندسية أى تكون فى هيئة المثلث أو المربع أو فى شكل مستدير ويكون قص الشعر على الجبهة فى هذه الحالة مستقيماً أو مستديراً .

وفى الدولة الوسطى لم يظهر تغير يذكر أما فى الدولة الحديثة فقد حدثت تطورات كثيرة أهمها شكلين : الأول قصير مقصوص من الخلف باستدارة والثانى طويل مهدل من الامام على السكتفين ، وكان كلاهما يرسل أو يجمد بطريقة جذابة أو يكون فى جداول صغيرة حول الوجه وتكون الجداول حلزونية فى الشعر الطويل بحيث يبرز الفرق بين شعر الرأس المستقيم وبين تلك الجداول - وقد استمر هذا حتى عصر الأسرة العشرين .

ولم يقتصر تزيين الشعر على الرجال وحدهم بل سارت النساء على هذا المنوال أيضاً فى عصر الدولة القديمة كانت تعملو رؤوسهن كسرة

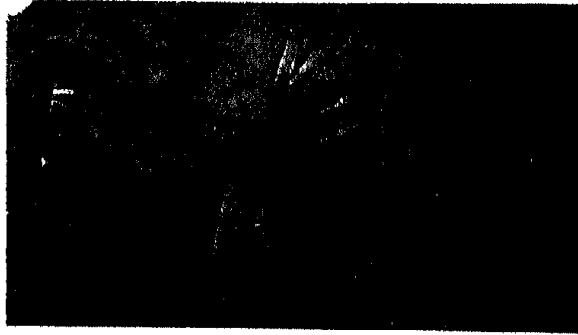
كبيرة من الشعر المرسل الذى يتبدل حتى الثدين فى مجموعتين وهى فى الغالب من الشعر المستعار - وكانت كل الطبقات تتساوى فى هذا وإن كانت الخاديات والبنات أحياناً لا يستعملن هذا الشعر المستعار ، وفى بعض الأحيان كانت السيدات العظيمات تستعملن شعراً مستعاراً قصيراً ينتهى عند الاكتاف ويظهر من تحته الشعر الطبيعى المفروق وهو يغطى الجبهة إلى قرب العينين .

وقد ظل الشعر المستعار فى الدولة الوسطى كما كان فى الدولة القديمة إلا أن هداباً جميلاً أضيف فى نهاية مجموعتى الشعر ، وكانت بعض السيدات الراقيات يمتصن شعرهن الطبيعى القصير فى جدائل صغيرة تشبه الشعر المستعار الذى استعمله الرجال فى الدولة القديمة .

وفى الأسرة الثامنة عشرة ظهرت أشكال جديدة فى أغطية الرأس حيث أبطلت الجداول الطويلة التى كانت من الأمام وأصبح الشعر طليقاً مرسلاً على الظهر والسكتفين أو على الظهر فقط وكان يندل فى بساطة أو يضفر فى جداول أو يجمد وتكون هذه الجداول منمقة أو فى جداول قصيرة وكانت أطراف الضفائر العديدة أو الجداول تجمع أو تجدل مما بحيث يكون الشعر الثقيل بمثابة حاشية ذات هداب ، وقد وردت بعض النقوش التى تمثل عازفات للموسيقى وشعرهن المجمد يحيط بالوجه وتتبدل من خلف الرأس بضعة جداول فى ضفيرة متصلة بها . وبعد الأسرة العشرين رجعت الطريقة القديمة وإن غالت السيدات فى طول الشعر المستعار وطرق تصفيفه .

ويبدو أن عملية التصفيف كانت تستغرق وقتاً وجهداً كبيرين فمن

النقوش نرى بعض السيدات وأمامهن وصيفاتهن يقمن بتصنيف شعورهن بينما تقدم هن المشروبات ليستعينوا بها على قضاء الوقت الطويل الذي تستغرقه هذه العملية (شكل ١٣) التي يمكن مقارنتها بعملية تصنيف الشعر لدى سيدات شمال السودان الآن، وقد عثر على عدد كبير من الأمشاط المختلفة الأشكال والأحجام من عصور مصر المختلفة وكانت هذه الأمشاط تزخرف بمختلف النقوش.



شكل (١٣) : سيدة يصنف لها شعرها
وتتناول مشروباً

٢ - اللحية

حلقت اللحية من عصر الأسرات الأولى وربما كان حب المصري للنظافة هو الدافع لذلك، وفي الدولة القديمة ظل الشارب الرفيع يمثل في تماثيلها ونقوشها ولكنه اختفى بعد ذلك ولم تمثل اللحية المدببة إلا في زى الملوك فقط.

وهي لحية صناعية عبارة عن جديلة صغيرة مضمفورة جيداً لتبدو كحلية طبيعية وقد قلد العظماء في الدولة القديمة الملوك واستمر ذلك في الدولة الوسطى . أما في الدولة الحديثة فقد أصبحت اللحية نادرة وفي مناسبات معينة وكانت لحية الشخص العادي أصغر من لحية الملك - وكان للالهة لحية خاصة وهي أطول من لحي البشر وتجعل على شكل ضفيرة تثني عند طرفها المدبب إلى أعلى .

٣ - الخسل

استعمل العمود الرجال والنساء على السواء وذلك منذ أقدم العصور، وكانت العمود من أحجار كريمة ونصف كريمة ومن القاشاني وتنظم في خيوط بسيطة بها تديمة في الوسط غير أن هناك عموداً عريضة تتألف من عدة صفوف، تنتظم خرزاتها بأشكال بديعة وتنتهي خلف العنق بثقل على هيئة شراية (شكل ١٠)، أما الأساور فكانت من القرن والعظم والعاج والنحاس ووجدت كذلك أساور من الصوان ولكنها كانت دقيقة في أول الأمر ثم حلت محلها أساور أعرض، وكان يلبسها الرجال والنساء على السواء حول الذراع والساعد - وكانت الخلائع شائعة بين النساء أما الاقراط فكانت إما في هيئة حلقات تثبت في الأذن وبها فجوة تضغط على شحمتها أو في صورة معلقات تثبت بدبوس ينفذ في شحمة الأذن ، ويبدو أن المعلقات جاءت إلى مصر من الجنوب أما المعلقات فجاءت من آسيا - وقد امتنع الرجال عن استعمالها (فيما عدا الملوك) ابتداء من عصر الأسرة التاسعة عشرة .

أما الخواتم فقد استعملت في الحلى منذ أقدم العصور وتمددت أشكالها، وفي العصور المتأخرة أصبح ينقش عليها اسم صاحبها ولقبه أو تنقش عليها رسوم يقصد منها التوفيق والفأل الحسن وقد ينقش عليها أحيانا اسم الملك الحاكم .

ولم يستعمل المصريون (باستثناء الأسرة المالكة) غطاءً للرأس سوى القلائسوة العنيقة المحبوكة التي سبقت الإشارة إليها عند الكلام على الشعر المستعار وكان الملك يضع تيجانا مختلفة أو عصابة للرأس ذات ثنايا .

أما الملكات فكان منذ بدء الدولة الحديثة يضمن الحلية القديمة التي تنزى بها الآلهات وهي على شكل أنثى العقاب التي تنشر جناحها على الرأس - وكانت نساء العامة في الحفلات تكتنقن بإكليل أو شريط مزركش في أطرافه مشبك نفيس يشده ويربطه .

وكان الأولاد في جميع العصور تقريبا لا يمتازون بأى زى خاص للرأس ولكن ابتداء من الدولة الحديثة كانوا يضعون عصابة ذات ربطة عريضة حلت محل خصلة الشعر الجانبية، كذلك كانوا يضعون أحيانا بعض التيجان البسيطة إذا كانوا من الأمراء .

وقد امتاز الرجال على النساء بالمصى والصولجانا وكان لكل عصا ولكل صولجان اسم خاص ودلالة خاصة وتستخدم في مناسبات معينة . وقد أبطل استعمال الأصباغ والوشم منذ الدولة القديمة ، ولكن ظلت للعطور أهميتها البالغة حتى أن المصرى كان يرى ضرورة تزويد الميت بسبحة أنواع من العطور المقدسة ونوعين من الأصباغ - وكان السكحل يستخدم منذ

أقدم العصور وهو من نوعين أخضر وأسود ووجدت لوحات الصحن التي كان يسحق عليها في المقابر منذ ما قبل الأسرات ، ولم يقتصر استعمال المساحيق على الكحل فقط. بل كانت هناك مساحيق أخرى استعملت ابتداء من عهد الدولة الحديثة ربما كان استعمالها قد نقل إلى مصر من الخارج . ومن رسوم الحفلات والمآدب نقبين مقدار عناية القوم بزيتهم ، وكثيرا ما تساءل الأثريون عن كنه المخروط الذي كان يمثل فوق رؤوس السيدات وقد اتضح أنه عبارة عن كومة من مواد عطرية دهنية . وكانت المرأة من أهم الأدوات التي عثر عليها في المقابر حيث أعتنى المصري باقتنائها وتعددت أشكالها وكانت تصنع من البرنز المصقول ، أما مقبضها فقد اختلفت المادة التي صنع منها وتعددت أشكاله .

الإدارة

من الملاحظ في مصر القديمة أن إسناد المناصب الإدارية للأشخاص كان كثيراً ما يرتبط بوضعهم الإجتماعي ، على أنه كان من الممكن في بعض الأحيان أن يرتقى بعض الأشخاص في مسكناتهم الاجتماعية عند توليهم بعض المهام الإدارية .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الملك كان صاحب السلطة العليا في البلاد ، وأنه مصدر السلطات جميعا وقصره المحور الذي تدور حوله كل شئون الدولة - كما بينا أنه كان يستعين ببعض من يتوسم فيهم القدرة والاخلاص من بين المحيطين به ، ولا يتأق له أو لهؤلاء أن يهيمنوا

على كل صغيرة وكبيرة في جميع أنحاء البلاد إلا إذا كان لهم أعوان يشرفون على مختلف الشئون في أقصى البلاد ودانيتها .

ومن البديهي أن كل بقعة من البلاد كانت تخضع لنفوذ أقوى الرجال فيها ، وهؤلاء بدورهم يخضعون لنفوذ أقوى رجال الأقاليم الذي يتضمن بقعتهم وهكذا مما أدى إلى ظهور عدد من الموسرين ذوي النفوذ في مختلف الأنحاء ، وانقسمت مصر منذ عصور سحيقة إلى ٤٢ إقليماً : عشرين منها في الشمال ، ٢٢ في الجنوب - ونظراً لأن الملك كان من الناحية النظرية على الأقل يمتلك البلاد جميعها فإنه كان يمنح إمارة الأقاليم إلى المقربين من رجاله ، ولو أن الكثيرين كانوا من المنعة والنفوذ بحيث لا يمكن إحلال غيرهم في مكانهم إلا أن هذا التقليد ظل متبعاً واستمرت إدارة الأقاليم تعد منحة من الملك - ولا شك في أن بعض ذوي الخطوة استطاعوا أن يمنحوا إمارة الأقاليم التي كان يتولاها آباؤهم وما لبثت هذه أن أصبحت تنتقل في أسرهم معينة استقرت في أقاليمها وعملت على زيادة نفوذها حتى أصبح حاكم الإقليم يعتبر نفسه « سيداً مستقلاً » في إقليمه .

ولذا أصبح من الضروري أن يسند الملك مهمة الإشراف على حكام الأقاليم إلى من يثق فيهم ، ولذا نجد أن لقب « حاكم الوجه القبلي » أخذ يظهر منذ منتصف الأسرة الخامسة تقريباً أما لقب « حاكم الوجه البحري » فلم يشر على ما يثبت وجوده إلا من عصر الدولة الوسطى - ومن الملاحظ أن حاكم الوجه القبلي كان يماونه « العظماء العشرة للجنوب » الذين لم يكونوا في درجة واحدة من المكانة بل ولم يكن لبعضهم نصيب

في الإدارة إلا إسمياً فقط ، ولم يكن لهؤلاء نظراء في الوجه البحري^(١) إذ يبدو أن الحاجة لم تكن لتدعو إلى وجود أمثالهم هناك ، ومع هذا كان هؤلاء (في الوجه القبلي) يعدون في نفس الوقت قضاة ورؤساء في المناطق التابعة لهم كما أنهم كانوا بمثابة مساعدين للملك ، وبهذه الصفة حملوا ألقاب مختلفة منها « مستشار الأوامر الملكية » ، « المشرف على المهام الملكية » ، « المشرف على الكتبة الملكيين » ، إلى غير ذلك من الألقاب التي تدل على المهام التي كانوا يضطلعون بها - ومنذ عهد الأسرة الخامسة كان يرأس هؤلاء « حاكم الوجه القبلي » ، إلا أن هذا اللقب سرعان ما فقد قيمته العملية وأصبح من ألقاب الشرف - ولم يعثر على نظيره « حاكم الوجه البحري » إلا في عصر الدولة الوسطى وربما كان ذلك لأن إدارة الدلتا ظلت منذ أقدم العصور حتى الدولة القديمة على الأقل تختلف بعض الشيء عن إدارة الوجه القبلي .

ويلاحظ أن كل إقليم من الأقاليم التي انقسمت إليها البلاد كانت له محاكمه وجيشه ومخازن غلاله - أي أن الحكم في عهد الدولة القديمة كان لامركزياً إلا فيما يختص بالجزئية العامة للدولة ، ففي كل إقليم أملاك للجزئية العامة يشرف عليها مندوبها في الإقليم وإلى جانب هذه توجد في العاصمة إدارة مالية مركزية للدولة ذات اختصاصات متعددة وينجز أعمالها طوائف مختلفة من الموظفين فمنهم الكتبة ورؤسائهم ومنهم المشرفون ومنهم أمناء الخزانة ، ويظهر أن هؤلاء الأخيرين كان يوكل إليهم أمر

(١) أرمان - رانكه ، المرجع السابق ص ٨٠-٨٢ .

الحصول على المعادن والأحجار الثمينة ولذا كان من بين اختصاصاتهم الإشراف على البعثات التي ترسل للحصول على هذه الموارد فكان منهم من يلقب «المشرف على المشاة»، «المشرف على الأسلحة»، «المشرف على حركات السفن»، «المشرف على عمال الإله»، «المشرف على مهام الملك» ... الخ .

ولإلى جانب هذه الإدارة المركزية وجدت إدارات أخرى مركزية تتولى شئون ذات أهمية خاصة - مثل الإدارة المركزية للإشراف على الأراضي الزراعية ومخازن الغلال والإدارة العليا للقضاء، وكان المشرف على كل من هذه الإدارات يحاول أن يوسع من اختصاصه بضم إدارات تحت إشرافه، وفي كل من هذه الإدارات يوجد عدد من الكتبة - يشرف عليهم «رؤساء كتبة» و «مشرفين» - وكانت بعض هذه الإدارات في الدولة القديمة غالباً ما تتبع الوزير مباشرة .

وقد ازداد عدد الوظائف في العاصمة وتنوعت ألقاب الموظفين إلى أن أصبح بعضها ذو طابع رنان يرضى غرور من يشغل مثل هذه الوظائف فمثلاً أصبح قائد الجيش «مستشار جميع البلاد الأجنبية»، ورئيس كتبة عين شمس «مستشار السماء»، وهكذا .

وعندما يكون البيت المالك قويا كان حاكم الإقليم يعد موظفا إداريا تحت إشراف البلاط ولذا كان يدفن في جبانة العاصمة على مقربة من مقبرة الملك شأنه في ذلك شأن موظفي البلاط الآخرين - أما عند ضعف الملوك فإن حاكم الإقليم كان يشمر بالاستقلال ويعتبر إقامته دويلة صغيرة تملكها أسرته، وكثيراً ما كان حاكم الإقليم يحاول توسيع رقعة إقامته على حساب الأقاليم الأخرى ويبنى كل منهم مقبرته في عاصمة إقليمه

ويؤرخ الحوادث بحسب تاريخ حكمه لإقليمه - أى أن حكومة الدولة أصبحت حكومة إقطاعية ، وما أن استقر الأمر لمؤسس الأسرة الثانية عشرة إلا وأخذ يثبت الحدود بين الأقاليم المختلفة ويقرب إليه الأمراء الأقوياء ويعزل غير المخلصين ويعين بدلا منهم حكاما يثق فيهم ، وهكذا أصبح أمراء الأقاليم فى الدولة الوسطى أمراء إقطاع مخلصين للملك - وكانت حكومة الإقليم صورة مصغرة لحكومة الدولة فكان الإقليم خزائنه التى كان أمينها يشرف على كل من يعملون من أجل الأمير فى مختلف المهن والصناعات ، وإلى جانب هذا الموظف الكبير يوجد جيش من المشرفين والسكرتيرة مثل « المشرف على الجنده » ، « المشرف على مخازن الغلال » ، « المشرف على الماشية » ، « المشرف على الصحراء » وغيرهم ، كما كان حاكم الإقليم يتشبه بالفرعون فيحيط نفسه بحاشيته ويجعل بلاطه صورة مصغرة للبلاط الملكى - ومع هذا ظلت الإدارات المركزية التى عرفت منذ الدولة القديمة دون تغيير ولما فروعها الثابتة فى الأقاليم بل وزادت أهمية عما سبق ، ومن هذه « إدارة الخزينة » و « الاملاك الملكية » ... الخ .

وقد تغيرت الحال فى عهد الدوانة الحديثة ، فقد بدأ الملوك منذ أن طردوا الهكسوس يسيطرون على البلاد واعتبروا كل ما حرروه بقوة السلاح ملكا خاصا - وانتهى أمر معظم أمراء الأقاليم والنبلاء وأصبحت كل الاملاك ملكا للفرعون فيما عدا أملاك السكرتيرة ، ونظراً للدور العظيم الذى قام به الجيش فى حرب الاستقلال فقد ازدادت مكانة أفراد حتى أصبحت له القوة الرئيسية فى الدولة وأصبح يتدخل فى كثير من شئونها ، ولكن ما لبثت قوة السكرتيرة أن أخذت فى الازدياد هى الأخرى

حتى فازوا بقدر كبير من الساطة أيضا - وهكذا نجد أن كبار رجال الجيش من جهة وكبار الكهنة من جهة أخرى قد تمكنوا تدريجيا من انتزاع الكثير من الامتيازات التي كان يتمتع بها الامراء والنبلاء من قبل .

ونظراً لتوسع الدولة الحديثة وكثرة فتوحاتها زاد عدد الاجانب في مصر سواء جاءوا كاسرى حرب أو كرفيق أو كجنود من تزقة - وقد استخدم هؤلاء في مختلف الاعمال وارتفع شأن الكثير منهم وزاد نفوذهم وأصبح منهم عدد وفير من كبار موظفي الدولة ووصل بعضهم إلى مكانة سامية في بلاط الفرعون نفسه .

وقد أدى هذا التوسع أيضا - إلى جانب ما حدث من تطور اجتماعي - إلى تنوع الإدارات وخطامة عدد الموظفين وكان أكثر هؤلاء عدداً بالطبع هم الكتبة الذين كانوا يسجلون كل شيء ، فما من وارد إلى المخازن وما من منصرف يمكن إثباته إلا إذا كان مسجلاً - كما كانت كل العقود والمعاملات الرسمية تسجل في وثائق تحفظ في إدارة السجلات وقد تعمل منها بعض النسخ أيضا - وكان كل موظف يحرص على مرضاة رؤسائه وعلى حسن معاملة زملائه له وإلا تعرض للكثير من المتاعب .

وكما هو الحال في كل عصر كان بعض كبار الموظفين يميلون إلى جمع الكثير من الاختصاصات في أيديهم ، وقد أدى ذلك إلى تمتعهم بالعديد من الألقاب بينما عجزوا عن الاضطلاع بمهام وظائفهم فاكثفوا بمباشرة شئون أهم هذه الوظائف تاركين بقرية اختصاصاتهم لصغار الموظفين ، وبالتدريج فقدت هذه الألقاب دلالتها وأصبحت ألقاباً جوفاء .

وكان يتبع كل إدارة من الإدارات عدد من العمال والصناع وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى فرق لكل منها رئيس ، وقد وردت إشارات كثيرة يفهم منها أن العمال لم يكونوا دائماً طائفة بائسة بل كانوا يحصلون على

عخصات تسمح لهم بحياة غير عسيرة ، فكان منهم المتزوجون ومنهم من كان له بيته ومقبرته الخاصتين به وبعضهم كان على شيء من الثقافة - غير أننا نجد من بعض الإشارات الأخرى ما يفيد إلى أنهم كثيراً ما كانوا يتعرضون للاستغلال أو الأزمات بسبب تأخير صرف أجورهم وعخصاتهم حتى أنهم كانوا يثورون في بعض الأحيان ويضربون عن عملهم إلا إذا أجيبت مطالبهم كما حدث بين عمال المقابر في عهد رعمسيس الثالث ، ومن هذا نرى أن هؤلاء العمال كانوا يتمتعون بقسط من الحرية لا يتوافر للأرقاء الذين كانوا غالباً من الأسرى والعبيد .

الديانة

ليس من المغالاة في شيء القول بأن دراسة الديانة المصرية تشمل في الواقع نحو نصف علم المصريات ، وهي تستمد عناصرها الأولى من البيئة المصرية ، فالشعور بالولاء والحب أو الخوف والرهبة تجاه عنصر من عناصرها جعل المصري يعتقد بقدرة ذلك العنصر ويقدر صفاته وبدأ يتصرف إزاءه بما يتخيل أنه يرضى ذلك العنصر أو يتجنب أذاه . وبالطبع كانت بعض هذه العناصر شائعة معروفة للجميع مثل الظواهر الطبيعية ، وهناك عناصر أخرى كانت تؤثر في حياة الإنسان اليومية وهي تختلف من إقليم إلى آخر وبين جماعة وأخرى - وقد وجد الإنسان أن العناصر الطبيعية كالشمس والقمر وغيرها بعيدة عنه ولم يعرف كيف يتقرب لها تقرباً مادياً بينما كانت العناصر الأخرى المحيطة به أقرب مثلاً فتقرب منها ونسب نفسه إليها ومن ذلك نشأت العواطم ، إذ كانت بعض الجماعات مثلاً تقدر بعض هيزات حيوان أو نبات معين فتتخذها لها رمزاً وطوطماً .

كذلك وجدت هذه الجماعات أن بعض الكائنات لها قدرة خارقة أو أنها كانت تتصف بالقدرة على الخلق أو الثبوت والدوام أو القضاء على غيرها من كائنات ، فرأت إحدى الجماعات أن الثور مثلا قادر على الإخصاب وإنتاج الذرية فقدسوه كما وجدت جماعة أخرى أن نوعا من الأشجار له صفة الثبوت والاستقرار فقدسوا هذا النوع من الشجر ورأت جماعة ثالثة بأن اللبوة تمثل البطش والقوة فقدسوها وهكذا .

تطور التفكير الدينى :

وجد المصرى القديم فى الكائنات المحلية صفات الخلق ولكنه لم يفكر فى كيفية الخلق بعد - ولم يكن هناك ما يمنع من تقديس الظواهر الطبيعية جنبا إلى جنب مع الكائنات المحلية كما أن انتصار جماعة من الجماعات على ما جاورها كان يعد بالتالى إنتصارا لمعبودها على معبود الجماعة المغلوبة ومع هذا كان يسمح لمعبود الجماعة المغلوبة بالبقاء كظهور آخر للمعبود الاقوى أو كمثل لصفة من صفاته .

ويعد الانتقال من تمثيل المعبودات المحلية فى صورة الحيوان أو بعض الكائنات الأخرى إلى تمثيلها فى صورة إنسانية تطورا كبيرا لم يصل إليه المصرى إلا بعد أن بلغ مرحلة معينة من الحضارة ، فبداية تحكم الإنسان وسيطرته على الحيوان والعالم المادى من حوله من جهة وبداية التقليل من شأن القوة الجسدية من جهة أخرى جعل الانسان يقدر ما للبشر من مزايا فتخيل آلهته فى صورة إنسانية . ولكن لتمييز بينها صار يصورها على هيئة الإنسان برأس يمثل رأس المعبود الاصلى أو برأس أضيفت اليه علامة مميزة لذلك المعبود ، فثلا صور الإله آمون

في هيئة آدمية برأس كبش وصور الإلهة حتحور برأس آدمية ولها قرون بقرة وهكذا .

وبالطبع كان تمثيل الآلهة في هذه الهيئة الإنسانية مما ساعد على التفكير بأن هذه الآلهة لها من المشاعر ما يحاكي مشاعر البشر من حب وبغض ، وأن هذه الآلهة تحمي وتعطي وتعاقب وتأخذ وهكذا مما لا يمكن التعبير عنه عند الحيوان أو الجناد . ومن جهة أخرى أعطيت لهذه الآلهة صفات تتعلق بالإنتاج والتناسل وبالخلق والموت ودفن الموتى ... الخ .

ولذا كانت بعض الآلهة من الذكور وبعضها من الإناث . . . كذلك أعطيت الآلهة بعض المهام والأعمال الخاصة التي ظن المصري أنها تقوم بها فضلا عن صفاتها الأصلية ، فمثلا كان الإله خنوم فضلا عن اعتباره الإله الذي يصور الأجنة في الأرحام أو الإله الخالق كان يعتبر كذلك إله الماء النقي أو إله منابع النيل وكان أبو منجل رمز إله القمر تحوت يعد كذلك الإله العالم وكاتب الآلهة .

وقد تطورت الديانة من رقت لآخر وظهرت معتقدات جديدة ولكن (كما سبقت الإشارة) لم تختلف المعبودات القديمة وكانت النتيجة أن تعمدت الديانة المصرية تعقيداً شديداً لاشتراك كثير من الآلهة في صفات واحدة وإن اختلفت مدلولاتها .

وكان المصري مسالماً بطبعه وقد أثر ذلك في ديانته فلم تتسم آلهته بصفات العنف أو حب سفك الدماء كما هو الحال بين آلهة الممالك الأخرى .

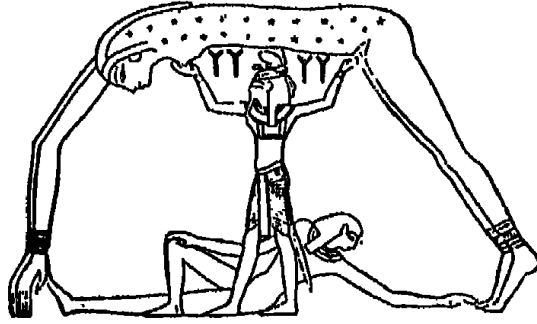
نشأة الأساطير :

سبقت الإشارة إلى أن المصري قد تأثر في ديانته بمظاهر البيئة التي عاش فيها واتخذ من عناصر هذه البيئة آلهة تميزت بصفات معينة، وكان يتخذ لهذه الآلهة نموذجاً من الحيوان أو الجماد أو يقيم له القائل التي تقرب المعبود لإدراكه - أما في حالة التفكير في المعبودات التي يصعب عليه إدراكها فإنه كثيراً ما كان يلجأ إلى الخيال ، فحينما قدس السماء مثلاً تصورهما على هيئة بطن بقرة عظيمة شكل (١٤) أو امرأة ترتكز بزوج



شكل (١٤) : إلهة السماء في هيئة بقرة

من طرفها على الأفق الشرقى بينما ترتكز بالزوج الآخر على الأفق الغربى - كما كان يتصور أحياناً أن أركانها قائمة فوق أربعة جبال أو عمولة على أربعة أعمدة ، كذلك تصور الأرض في هيئة رجل مستلق على ظهره (شكل ١٥) ، وهكذا ذهب به الخيال بعيداً - ولكنه في خياله هذا كان يحاول تفسير الظواهر الطبيعية بتفسيرات تتمشى مع ما يلمسه ويقع تحت حسه في بيئته - ولذا فإنه حينما أراد تفسير ظهور الشمس يومياً ثم اختفائها تصور إله الشمس في هيئة جعل (جمران) يدفع



شكل (١٥) : إلهة السماء في هيئة امرأة
وإله الأرض كرجل مستلق على ظهره

أمامه بيضته حيث ظن أن الجمل حيوان خثى يضع بيضه بنفسه ، أى أنه كإله الشمس خالق نفسه بنفسه - وعلى هذا تصور إله الشمس كجمل كبير يخاق نفسه بنفسه لأنه يولأ. يوميا كل صباح في الأفق الشرقى ويختفى مساء في الأفق الغربى .

ولم يترك المصرى مظهراً من مظاهر الطبيعة التى أحاطت به دون أن يفكر فيه ويحاول تفسيره فلهب خياله دوراً خطيراً فى تفسير ما عجز عن إدراكه وتمعدت الصور التى نتجت عن هذا الخيال وتعددت التفسيرات واختلفت باختلاف المذاهب أو المفكرين ونشأت أساطير مشوهة عن كثير من الآلهة بما زاد فى صعوبة إدراك كنه الديانة المصرية .

كذلك أشرنا إلى أن المصرى قد اعتقد بأن من الآلهة ما هو مذكر ومنها ما هو مؤنث فأدى به ذلك إلى إدماج الآلهة فى أسر لاهية بتزاوج بعض تلك الآلهة التى ترتبط معا ببعض الروابط وهداه تفكيره إلى إيجاد مجموعات أسرية تمثل الإله الأب والإلهة الزوجة والإله الابن، كذلك ربط هذه الآلهة بعضها ببعض بملاقات حسب الدور الذى يقوم

به الإله أو حسب وظيفته أو خصائصه، فمثلا كان الإله أوزيريس إلها خيراً
تزوج من أخته إيزيس وكان شقيقه ست إلها شريراً وكان زوجها لشقيقتهما
نفتيس وقد كاد لأخيه أوزيريس وقتله واستطاعت شقيقتهما إيزيس ونفتيس
(زوجة ست) أن تجمعا أشلاء أوزيريس كما أمكن أن تهيد إيزيس الحياة
إلى زوجها أوزيريس فأنجب منها ولداً هو حورس، ولكنه فضل أن يترك
هذا العالم ويعيش في العالم الآخر ويحكمه بينما طالب ابنه حورس بحقه
في ملك مصر الذي اغتصبه عمه ست فكان الإله تحوت خبير معين له
على استرجاع حقه المسلوب منه .

ومن الآلهة من كانوا يعتبرون حماة لطوائف معينة من الناس اعتماداً
على الخصائص التي امتازوا بها ولشهرتهم في نواحي معينة، فمثلا كان الإله
تحوت يعتبر حامياً لطائفة السكتاب لما له من شهرة في العلم والحكمة كما أن
بتاح كان يعد حامياً للفنانين أما الأطباء فكانت الإلهة سخمت إلهة منف
التي في شكل اللبؤة راعية لهم ثم في العصور المتأخرة حينما أله واحتب،
أصبح هذا إلها للأطباء وكانت سخمت في نظرهم أما له كذلك كانت
الإلهة ماعت التي تمثل الحق والصدق والعدالة تعد راعية للوزراء والقضاة
وهكذا اتخذت كل طائفة من الطوائف المهنية حامياً أو راعياً من الآلهة
كما كان عامة الشعب يتخذون في الغالب معبودهم المحلي راعياً لهم .

ولا شك أن طائفة من العقلاء على الأقل اعتقدوا في وجود إله
خالق يسيطر على الكون بدليل أن بعض النصوص تشير إلى أن الإله
كتعبير عام أو كإله واحد، ومن ذلك مثلاً ما جاء في بعضها بأن «ما
يحدث هو أمر الله، ولكن كان لا بد من تقريب صفات هذا الإله

للعامّة فاتخذت له صورة ترمز إلى أكثر صفاته وضوحاً كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وعلى هذا لم تسكن الحيوانات أو التماثيل التي قدست لتقدس على أنها المعبود نفسه وإنما كانت كرمز لصفة معينة في المعبود إلا أن العامّة قد أخطأوا فهم المقصود من تلك الرموز وتعبدوا لها . والواقع أنه لا توجد عقلية مهما كانت بدائية تعتبر الحيوان أو الجهاد أو حتى الإنسان إلا صورة أو موضعاً للقوة المقدسة أو الظاهرة المقدسة التي تمثلها ، والمصري شأنه في ذلك شأن الشعوب الأخرى أراد أن يتقرب إلى تلك القوى المقدسة ووجد أن أحسن وسيلة هي اختيار ما يمثل تلك القوة في عالمه المادى، ولكن مع الأسف حدث - كما يحدث في كل المصور - أن اتخذت الطوائف الدنيا من الشعب تلك التشبيهات بعرفيتها فعبدت الصورة المختارة نفسها من هذا العالم المادى .

وبالطبع كان كل إقليم يحاول جاهداً أن يجعل لإلهه المحلي دوراً هاماً فحاك حوله الأساطير التي تبرز هذه الأهمية وعمّلت الآلهة في هذه الأساطير كالإنسان فصارت محببة لدى الشعب ، وخضع الدين الرسمي لهذه الأساطير لما لها من سيطرة على النفوس .

ولا ريب في أن المصري كان يتساءل عن كنهه المخلوقات والظواهر الطبيعية التي من حوله وعن كيفية نشأتها ووجودها وبهذا تدرج إلى التفكير في مشكلة الخلق - ثم تساءل عن المشكلة الكبرى وهي مشكلة نشأة العالم المحيط به ، ولم يطل به التفكير كثيراً حتى اهتدى بخياله إلى تكوين فكرة اتخذ عناصرها من البيئة المحيطة به فتمثل في الفيضان ماء أزليا أطلق عليه اسم «نون» ، وقد دعاه إلى هذا التفكير أن الفيضان تستمر مياهه

فترة من الوقت ثم تبرز من تحتها الأرض تدريجياً وفي هذه ينبت الزرع وتذب الحياة، وعلى ذلك ظن بأن العالم في بدء تكوينه نشأ من ماء أزلى برزت فيه قمة تل مزدهر ثم ظهرت المعالم الأولى للحياة فوق هذا التل، أو أن زهرة من اللوتس ظهرت فوق سطح هذا الماء وعلى هذه برز الكائن الأول في هيئة طائر أو كائن هو الذي خلق السموات والأرض والآلهة الأخرى - وقد اختلفت الأساطير المتصلة بنشأة الخليقة وبالطبع كان كل إقليم يحاول أن يجعل من إلهه المحلي الإله المهم في نشأة هذه الخليقة أو خالقها - وكانت أشهر المدارس التي اتجهت إلى ذلك هي مدارس هليوبوليس ومنف والأشمونين.

مدرسة هليوبوليس :

تذكر هذه المدرسة أن الإله آتوم تتكون في المياه الأزلية نون قبل أن تتكون السماء والأرض أو الدودة والعلاقة ولم يجد مكاناً يقف فيه فوقف فوق تل ثم صعد فوق حجر « بن بن » في هليوبوليس - ووجد نفسه وحيداً ففكر في خلق زملاء له وحمل من نفسه ثم تفل أو أمنى وأنجب شو وتفنوت اللذان أنجبا جب ونوت وأنجب هذان الأخيران بدورهما أزوريس وست ونفتيس وأيزيس، وقد عرف هؤلاء الآلهة التسعة باسم الناسوع الكبير - وعلى حسب هذه النظرية لم يكن حوريس وتحت ومعات وأنوبيس ضمن هذا الناسوع وإن كان لهم دور هام في الأساطير المتعلقة به .

وقد تغالت المدن الكبيرة في محاكاتها لهليوبوليس وكونت مجموعة إلهية على رأسها إلهها المحلي فكانت هذه المجاميع تتجاوز التسعة في

كثير من الاحيان فمثلا كانت مجموعة طيبة الإلهية تتألف من ١٥ إلهاء، كما أن بعض المدن الأخرى لم تجد من الآلهة ما يناسبها فجعلت مجموعاتها تتكون من آلهة تتكرر أسماؤها فمثلا كانت مجموعة أييدوس تتألف من إلهين باسم خنوم وإله باسم تحوت وإلهين باسم أوب وات وهكذا .
والغريب أن كل مجموعة من هذه المجاميع كانت تعامل كإله واحد .

مبوسة منف :

اعتبرت منف إلهها بتاح أجدر من آتوم كما أنها ذكرت بأن بتاح خلق من نفسه ثمانية آلهة أخرى سميت كلها باسم بتاح (وإن كان البشر قد أطلقوا عليها أسماء أخرى) وذلك لتسكون مع بتاح الأصيل تاسوعا يعادل تاسوع هليوبوليس وقد أرجعت هذه المدرسة كل آلهة مصر إلى بتاح والإله الثانى بتاح نون والإلهة الثالثة (بتاح نونيت) فى هذا التاسوع هما اللذان أنجبا آتوم أى أن آتوم وهو أعظم آلهة هليوبوليس قد اعتبر فى هذه المدرسة أقل شأنًا من الإله بتاح كما أن شفقتى آتوم وأسنانه التى نفل بها شو وتفنوت قد استعارهما من بتاح ، كذلك اعتبر القلب واللسان من أطياف بتاح وهذان كانا يمثلان تحوت وحورس وقد خلق اللسان ، (أى تحوت) كل شىء بواسطة الكلمة .

وقد تأثرت المعابد المختلفة بتعاليم منف فاعتبرت الآلهة التى قدست فيها أعضاء للإله الرئيس فى المعبد .

ولما كان لأوزير مركز خطير فى اللاهوت المصرى فإن تعاليم منف جعلت منه تابعا من أتباع بتاح وجعلت منف الميدان الذى جبرت فيه

أهم الأحداث التي تعرض لها هذا الإله ففيها توجه أزوريس إلى العالم السفلي بعد أن انتشلته إيزيس ونفتيس وفيها حاول جب (والد أزوريس) أن يصلح بين حورس وست وهكذا ...

مدرسة الاشمولين

سميت هذه المدينة كذلك لأن مجموعة الآلهة فيها تتكون من ثمانية لاتسعة كالمعتاد ، وتعتبر هذه المدرسة . من تخريج منف لأن أول الكائنات فيها هو الإله تاتنن خالق الآلهة الثمانية وخالق البيضة التي خرج منها إله الشمس فهو جد (والد آباء) الآلهة جميعا - أما الآلهة الثمانية فكانوا عبارة عن آلهة تمثل أربعة ذكور في هيئة الضفادع وأربعة أناث في هيئة الحيات وكل زوج منها يمثل مظهرا من المظاهر التي كانت تسود العالم في البداية ، فالزوج الأول نون ونونيت يمثل الفراغ اللانهائي والزوج الثاني هو حوح ووحويت ويمثل الماء الأزلي والزوج الثالث كوك وكوكيت يمثل الظلمة والزوج الرابع نياو وزوجته نيات أو آمون وأمونيت ويمثل الخفاء .

ولانعرف الكثير عن دقائق تعاليم الاشموين لقلنا ما تخلف عنها ولكننا نعلم الكثير عن أثر هذه التعاليم في مدينة أخرى نقلت عنها في عصور تالية ، وهذه المدينة هي طيبة التي تشير الأساطير إلى أن بعض آلهة الاشموين تسربت إليها ، ومن هذه الآلهة آمون كما استقرت تعاليم كثيرة من تعاليم الاشموين في هذه المدينة أيضا إلا أن طيبة لم تكف بلآلهة ثمانية بل إن محاسنها لمدرسة منف جعلتها تضع لها قبل هؤلاء الثمانية ولم يكن هناك بد من أن يكون آمون هو ذلك الإله الذي خلق

بقية التاسوع مع أنه أحد الآلهة الثانية في الاصل ، وعلى ذلك تخيلوا لها في هيئة ثعبان أطلقوا عليه اسم (كم ات اف) أى . ذلك الذى أكمل زمانه ، أو بمعنى آخر هو الذى انتهى أمره ، وهذا الإله أنجب لها آخر اسمه « إير - تا ، أى (خالق الأرض) وهذا بدوره خلق الثانية آلهة الاولى التى منها نشأت الخليقة . ومع كل فقد كان « كم ات اف » فى نظرهم هو « آمون العظيم ، معبود الاقصر وخالق الأرض وإله التناسل .

طبيعة الآلهة

نظر المصرى لآلهته على أنها كائنات أعلى قدرا من الانسان ولا تختلف عنه كثيراً . والواقع أن المصرى قسم سكان العالم لى ثلاثة أقسام هى الناس والآلهة والموتى . فالأسطورة التى قيلت عن نشأة الخليقة تبعا لتعاليم طيبة أى التى تأثرت بمدرسة الاشمونين تذكر أن الدنيا كانت (حينما خلقت الآلهة الثانية) لا تزال فى ظلام وأن هذه الآلهة الثانية اندفعت مع تيار المياه الأزلى لى الاشمونين (أو وصلت لى منسف أو لى هليوبوليس) وهناك خلقت الشمس ثم رجعت لى طيبة ولما أتمت صنعها بخلق العالم انتهى أمرها ولحقت بالثعبان « كم ات اف » فى عالم الموتى بطيبة حيث استراحوا فى مكان معبد صغير بمدينة هابو وكان آمون يزورهم كل عشرة أيام . فلم تسكن فكرة موت الإله غريبة لدى المصرى بل كانت شيئا مألوفاً فى تفكيره وجملى ذلك اختلاط أزوريس « بكم ات اف » كما أصبح آمون هو روح أزوريس أى أن جسد آمون فى الدنيا السفلى كان أزوريس وكان آمون هو الروح الذى يزور هذا الجسد ، أى أنه كان كإله الشمس عند تجواله فى الدنيا السفلى أثناء الليل حيث يزور جسده أزوريس .

واعتبار آمون روح أزوريس يجعلنا نتعرض لعميدة المصرى بأن الانسان كانت له روح « با » وقرين « كا » وبالطبع كان للإله ما كان للبشر وكانت روح الإله تسكن تمثاله الذى فى معبده ولكنها كانت كذلك طليقة تتجول فى أماكن أخرى وخاصة فى السماء - كما أنها كانت تسكن الحيوان المقدس فى معبده ، فكان أيس مثلًا روح بتاح كذلك كان فى عصر متأخر روح أزوريس أيضا ، وكان الطائر الخرافى « فينكس » روح « سيك » أما « تيس منديس » فكان يمثل أرواح أربعة آلهة هى « رع وأزوريس وجب وشو » - ثم تطور الأمر فأصبح للإله الواحد أرواح مختلفة وقرائن متعددة فللإله رع مثلًا سبعة أرواح و ١٤ قرين ولم يمكن التعرف على هذه الأرواح السبعة وإنما عرفت الأربعة عشر ١٤ قرينا التى كانت من الذكور ولها ما يماثلها من الإناث وهذه القرائن هى التى تتمثل فى قوى السحر والبهاء والنصر والقوة والنمو والطعام والاستمرار والنظر والسمع والشبح . . . الخ . كذلك تشير بعض الأساطير إلى أن إله الشمس كانت له أربعة رؤوس على هيئة رأس الكباش وتقوم كلها على عنق واحد وكانت له ٧٧٧ أذن ومئات الألوف من القرون ، ورؤوس الكباش الأربعة كانت تمثل آلهة الرياح الأربعة إلى آخر ما جاء فى تلك الخرافات - كذلك كانت القرائن الأربعة عشر مع إناثها تنشر الخير مثل النيل والحقل . . . الخ . وبما أن الملك كان ذو صفات إلهية فقد كانت له أرواح كثيرة كذلك كانت له قرائن مختلفة ، وبعض الأفراد كانت لهم أيضا أكثر من قرين فى حالات خاصة - وكان يكنى عن عزيمته الملك أو سلطته القوية بتعبير « أرواح الملك » . إذا ما ترجمنا هذا التعبير حرفيا ، كما كان يكنى عن آلهة المدينة بأرواح المدينة .

ولما كثر الخلط وأصبح عدد من الآلهة يسمى باسم واحد فقد حاول المصري أن يميز بينها فمثلا كانت هناك سخمت محبوبة بتاح وسخمت سيده الصحراء العربية وسخمت في بيت باسنت - ولم يتسنى ذلك في كثير من الحالات إذ أننا نطالع في النصوص ما يفيد وجود مئات من الآلهات -حتحور كما أن الآلهة ذات الاسم الواحد كثيراً ما اختلطت بعضها ببعض فمثلا حدث الخلط بين حورس أدفو « قرص الشمس المجنح » وبين حورس ابن لميزيس . ويستدل من أسطورة حورس ادفو على أنه كان يصحب الإله رع هو وتحوت في سفره من الحدود النوبية إلى مصر وقد انتصر على أعداء رع ، وكان تحوت يسمى الأماكن والبلدان التي مروا بها - كذلك تدل الاساطير على أن الآلهة كانوا ملوكا على مصر العليا والسفلى وعرف الناس مدة حكمهم ، وقد ذكرتهم بردية تورين مبتدئة بالاله جب ثم أوزير وست وحورس ثم تحوت ومعات ومن بعدهم آلهة أقل شأننا وفي آخر القائمة ذكر « نخدم حورس ، وكانوا عشرة وهم الملوك الذين حكموا في العصور الأولى .

الحوادث التاريخية وأثرها

لاشك في أن الأحداث التاريخية كانت ذات أثر كبير في تطور الديانة المصرية فإذا ما نظرنا إلى ألقاب الملوك وإلى القمص الديني والاساطير المختلفة فإننا نجد ما يشير إلى ذلك إذ يذكر مانيتون بأن مصر كان يحكمها قبل العصور التاريخية حكام من الآلهة أى أسرة الهية « بتاح ورع وشو وجب وأوزير وست وحوريس ، وبعد ذلك حكمت أسرة من أشباه الآلهة ثم عشرة ملوك من الأرواح أو من أتباع حوريس حكموا قبل

مينا ، وتشير بردية تورين إلى نفس الترتيب تقريبا .
وتدل الشواهد الأثرية على أن أتباع حوريس وصلوا إلى وادى النيل
عن طريق وادى الحامات واستقروا بالقرب من قفط حيث كان لإلهها المحلى
مين ، وكان المعبود الوطنى فى مصر كلها هو الإله ست - وكان حوريس
وأتباعه محاربين متفوقين بما لديهم من أسلحة فلم يمشكوا طويلا فى
قفط أو ما جاورها فتحركوا شمالا حتى استقروا فى غرب الدلتا، ثم وفدت
عليهم أقوام من شرق الدلتا يدينون بنفس الدين ويعرفون الأسلحة المعدنية
وقد أطلق عليهم أصحاب الرمح فاتصلوا بأتباع الإله حوريس الذين كانوا
فى غرب الدلتا حتى أصبح هذا الإله لها لغرب الدلتا كله .

ثم جاءت بعد ذلك هجرة من غرب آسيا تحت قيادة أوزير الذى كان على
مايحتمل ملكا عبدا ثم آله فيما بعد وقد استقره هؤلاء فى شرق الدلتا، ولم يكونوا
من المحاربين بل كانوا رعاة ورجال سلم وسرعان ما اندمجوا فى أهل البلاد
الذين رأوا فى أوزيريس صورة الإله الطيب وأغا لإلههم ست ، كما أن
أوزيريس وقومه كانوا يميلون إلى أهل شمال الدلتا وإلهته إيزيس - وفى
نفس الوقت جاءت كذلك مجموعة أخرى من المهاجرين اخترقت الدلتا
واستقرت عند رأسها فى هليوبوليس - وكان رع هو قائدهم وإلههم ويحتمل
أنهم جاءوا من الشمال الشرقى للبحر المتوسط أو - من جزره وكانوا على
جانب من الثقافة والفهم ومعظمهم من التجار وأصحاب الحرف .

وقد وجد حوريس وأتباعه أمورا مشتركة بينهم وبين أوزير وأتباعه
وقد نتج عن ذلك أن غرب الدلتا تحت قيادة حوريس وشمال الدلتا تحت
قيادة إيزيس ارتبطوا برباط ود وسلام مع أوزير وأتباعه وكذلك مع

ست ، ورأى المتحدون في إيزيس زوجة لاوزير وحوريس ابن لها وست شقيق لاوزير : وبما أن حوريس الذي اعتبر إله السماء كان يعترف بالإله ست فإن أتباع رع كذلك اعترفوا بالإله الوطني ست ولكنهم لم يعترفوا لاوزير في أول الامر، وبعد أن استمرت الأمور بين رع وأوزير وأخذت وحدتها في الظهور بدأ يظهر لون من التنافس بين ست وأوزير - « فبفضل النشاط الحربي لحوريس وطرق أوزير السلبية وثقافة رع تكونت مملكة في مصر السفلى بقيادة حوريس وكانت عاصمتها بوتو، وكان طابع هذه المملكة سلبياً وفقاً لما تميز به أوزير الذي نشط أتباعه في التبشير له حتى امتد نفوذه إلى أيديوس، أو ما بعدها ويمد هذا أول اتحاد بين الدلتا والصعيد .

ولكن سرطان ما غضب ست وأتباعه ولم يكن أوزير قائداً حريصاً فترجع إلى بوزيريس موطنه في الدلتا وذبح هناك، ولكن أتباعه اعتقدوا أنه بمث إبيحك العالم السفلى وأصبحت إيزيس وحيدة ، أما رع فقد وقف موقف المحايد - إلا أن هذه الأمور استنارت حوريس الذي كان قائداً ومملكا على مصر السفلى فأراد أن ينتقم لأبيه وأنشأ صراع جديد بين حوريس وست وفي هذه المرة تغلب حوريس وغزا الصعيد فاضطر ست وأتباعه إلى التراجع أعلى النهر ثم إلى الواحات والصحارى، وقد يدل هذا على التوحيد الثاني الذي حدث من الدلتا أيضاً قبل التوحيد الذي قام به مينا ويمد بداية عصر الأسرات .

وفي نفس الوقت جاء وافدون جدد من الصعيد شقوا طريقهم إلى الدلتا وكانوا يحملون أفكاراً جديدة ، ولم يكن رع ليعني كثيراً بالصعيد أو بأعمال

حوريس ولكنه كان يميل إلى ست ويفضله، وسرعان ما حدث احتكاك بين الصعيد والدلتا - وظل أتباع حوريس الأوفياء على ارتباطهم به وكان معظمهم من الجنوبيين، وأصبحت العداوة صريحة بين أتباع حوريس في الصعيد وأتباعه الشماليين الذين تأثروا بالأفكار الجديدة ولكن أهل الجنوب انتصروا آخر الأمر تحت قيادة أحد أتباع حوريس وهو الملك مينا الذى أعاد توحيد مصر، وهذا هو التوحيد الثالث الذى بدأت على إثره العصور التاريخية وقد أصبح اتخاذ اللقب الحوريسى لدى الملوك تقليداً طوال العصور الفرعونية باستثناء الملك « بر - اب - سن » الذى اتخذ لقب ست بدلا منه، وربما كان ذلك لأنه كان يدين بهذا المعبود ولا ينتمى لأتباع حوريس .

ومنذ عهد الأسرة الرابعة يبدأ نفوذ رع فى الازدياد حتى أن ملوكها اتخذوا أسماء تتضمن اسم رع فى نهايتها، وبعد ذلك انتقل الملك إلى بيت ينتمى إلى كهنة هذا الاله مؤسسا الأسرة الخامسة - وعلى ذلك يمكننا أن نستنتج أن نفوذ هليوبوليس وكهنتها قد أصبح مسيطرا وازداد هذا النفوذ قوة فتقربت الآلهة الأخرى إلى الإله رع ووحدت معه ولم يستثنى من ذلك إلا الإله بتاح .

ولما عظم شأن طيبه فى الأسرة الحادية عشرة ازداد مركز آمون الذى يحتمل أنه كان إله الأسرة الحاكمة لأننا نعلم بأن الإلهين « مين ومنتو، كانا يعبدان فى طيبه قبل ذلك، ولكن آمون صارت له الصدارة منذ عهد تلك الأسرة .

ولما جاء الهكسوس إلى مصر واستوطنوا شرق الدلتا وجدوا أن

الإله ست الذى كان يعبد فى ذلك المكان قريب الشبه من إلههم سوتخ فعبدوه واتخذوه إلهاً رسمياً .

ولما طردت الأسرة السابعة عشرة الطيبية المكسوس من مصر عاد آمون إلى سابق سيطرته وأصبح الإله الرسمى للدولة فى عهد الامبراطورية الحديثة ، وقد أصبح عظيم الخطار لأنه إله الأسرة التى أسست هذه الامبراطورية وإليه يعزى انتصارها - وقد وحدث معه آلهة كثيرة حتى أن رع وحور وحدا معه أيضاً ، وظلت الهيات والأوقاف تتوالى على هذا المعبود من ملوك الامبراطورية حتى أصبح ذهب بلاد النوبة وقفا عليه وسميت بلاد النوبة تبعاً لذلك باسم «بلاد الذهب الخاص لآمون» وصيغت فى مدحه الأناشيد ، ومنها أناشيد أطلقت عاينه اسم رع وأخرى أطلقت عليه اسم آتون وذلك فى عصر اخناتون .

ومنذ عهد امنحتب الثالث أو قبله بقايل يبدأ اسم آتون فى الظهور ، وربما كان ذلك لأن الملوك وجدوا فى نفوذ آمون خطراً يهدد الملكية فأرادوا أن يضعفوا من مركز هذا الإله بإيجاد منافسين له ممن يحظون بتأييد عام فعبدوا آتون كهورة لرع . الذى ظل طوال العصور الفرعونية ذو مكانة مرموقة . كذلك لجأ امنحتب الثالث إلى إدخال عبادة الملك الحى أو صورته الحية على الأرض ، ولكنه لم يشأ أن يبدأ هذه الخطوة فى مصر بل بدأها بميدا فى السودان حيث بنى معابد لمبسلته هو وزوجته هناك كما أنه فى نهاية عهده بنى معبداً للشمس فى الكرنك .

ولما جاء اخناتون أحدث ثورة عامة وقد صور إله الشمس فى شكل

يقرب إلى أذهان العامة (قرص الشمس تخرج منه الأشعة وهذه تنتهى بأيدي تتدلى منها علامة الحياة) بخلاف التصوير القديم الذى كان يعلق على أفهام العامة إذ أنه كان يصور إله الشمس فى هيئة إنسان برأس صقر - وربما كان اخناتون لا يعتقد بأنه ارتكب إثمًا نحو معبود أجداده آمون لأن هذا الأخير كان موحداً مع إله الشمس فى صورة «آمون رع» ، إلا أن كهنة آمون وجدوا فى فكرته الجديدة هرطقة حاولوا القضاء عليها فحدثت الثورة المعروفة ، وتغالى اخناتون فى صب حام غضبه على آمون ونقل هذا الغضب إلى كل المعبودات الأخرى وخرج اخناتون على كل التقاليد وظهر أثر ذلك فى الفن خاصة - ولم تذكر ديانة اخناتون بملكة الموتى كما أن التوريات المعهودة عن الوفاة مثل «الطيران إلى السماء» أو «الرسو» لم تذكر كذلك . بل ذكر الموت والدفن ببساطة ، ويظهر أن أتباع اخناتون أحبوا الحياة ففضلوا التفكير فيها بدلا من الموت - ومع ذلك ظلت العقيدة القديمة التى تذكر بأن الموتى يسكنون العالم السفلى وأن الروح تستطيع الخروج من المقبرة والعودة إليها كما كانت ولم تتغير وظلت الروح كذلك تمثل فى هيئة طائر يحتم فوق الجثة كما ظل الاعتقاد بأن الميت يتقبل القرابين سائداً - أما محاكمة أوزير فلم تذكر ولكن كلمة «مهر» أو «مرحوم» كانت تذكر أحيانا ، وكان الجمل يوضع على المومياء ولكن كان ينقش عليه دعاء لآتون كما أن تماثيل الأوشابتي (المجيبين) ظلت تستعمل كذلك . ولكن الدعاء عليها كان لآتون أيضا وبدلا من تمثيل الآلهة لميزيس ونفتيس وغيرها من الآلهة مجتمعة على أركان التابوت مثلت الملكة بدلا منها .

ويرى بعض الأثريين أن عدم وجود الناحية التصوفية وناحية ما وراء الطبيعية هو سبب فشل هذه الديانة ولذلك فضل الشعب العقيدة التديمة ، ولكن يبدو أن محافظة المصريين على التقاليد وضعف قوة المملوكة فى الخارج ووفاة الملك سريما دون أن تستقر هذه الديانة الجديدة وعدم وجود خلف له من الذكور، كل ذلك أدى إلى التحول ثانية إلى الديانة القديمة بل والرجوع إلى العاصمة القديمة أيضا - وكانت النعمة شديدة على اخناتون إذ أطلق عليه بعد وفاته اسم مجرم أخيناتون .

وبعودة الحياة الطبيعية بعد هذه الثورة عادت عقيدة آمون بصورة لا تتماثل قوتها من قبل فقد استعادت آلهة المدن المختلفة حقوقها مثل رع وبتاح - ومن جهة أخرى لما كان لطيبة شرف القضاء على الهرطقة فإنها صارت أعظم الأماكن قداسة . وقد ازدادت ثروة آمون زيادة لا مثيل لها فحقوله أصبحت خمسة أضعاف حقول رع وتسعين ضعفا لحقول بتاح وقد شيدت له المعابد الفخمة فى الأسرة التاسعة عشرة ولما عظمت فخامة هذه المعابد لم يكن يسمح لعامة الشعب بدخولها فأصبح دين آمون دين الخاصة وأصبح غريبا على أبناء الشعب الذين فكروا فى آلهة أكثر شعبية ومنها إله الشمس كما عادت الحياة إلى كثير من الآلهة القديمة التى حاول الملوك لإرضاءها ببناء معابد لها ، فمثلا بنى رعمسيس الرابع معبداً فى أييدوس للإله أزوريس الذى كان يعبد فى نظر الملك من أكثر الآلهة غموضا وخفاء وأنه هو القمر وهو النيل وهو الذى يحكم فى العالم الآخر ... كذلك احتل الإله ست مركزاً ضخماً فى عصر الأسرة التاسعة عشرة .

ورغم أن عامة الشعب لم يكن من الميسور دخولهم إلى المعابد الفخمة

التي بناها ملوكهم إلا أن ذلك لم يعجل دون تقواهم وقد نقشوا الصلوات
تعبداً لآلهتهم ولجأوا في حالات كثيرة إلى آلهة تسكون أقرب منالا، بل
وتطور الأمر حتى أصبح كل فرد يقدر من الكائنات ما يقنع تحت
نظره وما يصادفه فمثلاً عبدوا الآثار القديمة وعبدوا بعض الحيوانات
والجمادات في بيئتهم المحلية كما تصوروا آلهة أخرى خرافية تجمع في صفاتها
وتكوينها سمات كائنات متعددة مثل تويرس وبس^(١) وبعل وغيرهما
وكذلك صور لهم الوهم عبادة بعض المعالم الجغرافية مثل قمة الجبل
في البر الغربي لطيبة - وازدادت عبادة العامة والسذج للحيوان وانتشرت
حتى أصبحت شائعة، وقد تغالى الرومان في هذا بعد ذلك إلى درجة أن
أحد شعرائهم واسمه جوفنال^(٢) تهكم من ذلك بقوله مخاطباً رجال عصره
« أيها الأظهار الذين تولد لهم تلك الآلهة في الحدائق » .

ويبدو أن الآلهة التي تمثل النواحي الأخلاقية كانت آخر العبادات
ظهوراً ومن أمثلة ذلك ماعت وبس وغيرها ...
ولاهمية المعايير الأخلاقية توقف مصير الميت على مسلكه في الحياة
وأصبح الموت من أهم المشاكل التي شغل المصريون أنفسهم بها ، واندك
أصبحت أسطورة أزوريس من أوسع الأساطير انتشاراً وصارت عبادته
أقرب العبادات إلى القلوب .

(١) تويرس معبودة نجمع بين رأس التمساح وأني فرس النهر ، بس معبود يجمع في
شكله بين رأس الهر وجسم القزم .

(٢) شاعر روماني عاش حوالي (٤٢ — ١٢٠ م) وقد اشتهر بسخرية اللاذعة من

العقائد الجتزية :

لا نعرف كثيراً عن العقائد الجتزية في أقدم العصور الفرعونية وأول ما يظالنا عن تلك العقائد هو ما ورد في متون الأهرام التي دونت في الأهرام ابتداء من عهد أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة ، وهي لا شك ترجع إلى أصول قديمة لأننا نعلم بأن المصري منذ أقدم العصور كان يعني بموته عناية فائقة ولا يدخر وسعا في سبيل المحافظة عليهم - كما أن الميت كان يزود في مقبرته بما يلزمه من متاع يحمل على الظن بأن اعتقاد المصري في حياة ثانية كان اعتقادا راسخا وأن هذه الحياة تشبه حياته الأولى .

ومع أن متون الأهرام تدور في معظمها حول الملك وواجب الآلهة نحو العناية بشخصه المقدس فقد وجدت بها أوراد تدل على أن الميت لم يذنب في حق الملك بما يدل على أن هذه الأوراد في أصلها كانت تستخدم لعامة الشعب أيضا أو أنها كانت شائعة - ومن الأوراد ما يدل كذلك على مصير متواضع إذ تشير إلى الرقاد في التراب أو الرمل .

وبما نلاحظه في نصوص الأهرام أن الإله أزوريس الذي كان يعد إله الموتى اتخذ في بعض الأوراد مكان إله الشمس أو مكان إلهة السماء .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المصري كان يعتقد بأن الإنسان يتألف من ثلاثة عناصر : هي الجسم والكا (القرين) والبا (الروح) ، وكان يفسر الموت بأنه هجر الكا للدوتى علما بأن الكا كان يستقبها عند ولادته بأمر رع وهي تشبه صاحبها تماما كما اعتبر القبر دار للكا وأن القرابين تقدم إليها ، كذلك كانت الكا في نظر المصري هم الملاك الحارس

الذى يهتم بالإنسان وهى التى تنجب له الابناء ولكنها ظلت مع ذلك كائنا إلهيا غامضا بالنسبة له كما يفهم ذلك من النصوص المختلفة التى تشير إليها . أما الباطن فى الروح الذى تترك الجسد عند الموت وقد صورها المصرى فى أشكال مختلفة فهى أحيانا كطير ولذلك كان من المحتمل فى نظره أن تكون روح الميت طائرا بين طيور الأشجار التى غرسها بنفسه، وأحيانا تكون فى هيئة زهرة اللوتس أو فى هيئة الثعبان الذى يندفع من جحره أو التماسح الذى يزحف من الماء إلى الأرض . وقد تساءل المصرى كذلك عن مقدرة الروح وظن أنها تستطيع اتخاذ تلك الأشكال جميعها وغيرها من أشكال كثيرة لا حصر لها كما أنها كانت فى نظره تستطيع الاستقرار فى أى مكان تشاء .

ولما رأى الشمس تغرب يوميا فى الغرب وتعود إلى الشروق فى الشرق اعتقد بأنها كانت تجوب ليلا عالما سفليا ، وهذا العالم لا يدخله الأحياء بل هو عالم الموتى الذين يهبطون إليه فى الغرب ويمشون فى عالم مظلم إلا إذا مضت من فوقهم الشمس فى رحلتها بالليل ، ولذا أطلق على عالم الموتى اسم « عالم الغرب » كما أن الموتى كانوا يسمون « أهل الغرب » واعتبر « سكر » اله الموتى فى منف « أول أهل الغرب » .

وكما يختلف الناس فى حياتهم كذلك لا يمكن أن تكون هناك مساواة بعد الموت أى لا بد من وجود أماكن أفضل ومتر أحسن « للأرواح الممتازة » - هذا المقر كان فى السماء ، أى أصبح هناك عالم ثان للموتى وقد أطلق عليه إسم « دوات » ثم تطور هذا الاسم فأصبح يطلق فيما بعد على عالم الموتى السفلى كذلك - وقد ظن المصرى بأن نجوم الليل

هم موتى أو أرواح سميدة ظلت في سناء دائم مع الآلهة إذ مد إليهم رع يده أو أخذتهم إليها آلهة السماء ونظمتهم بين ما لا يفنى من نجوم جسدها .

وقد ظهر أثر التضارب في التفكير الدينى في متون الأهرام نفسها إذ نجد فيها ما يشير إلى أن الميت يطير في شكل طائر إلى السماء إلى جانب إخوته الآلهة حيث تمتد إليه إلهة السماء يديها وتقيمه عليها نجما لا يفنى ، وهو يولد منها في الصباح وينتسب إلى الذين يقفون من وراء رع والذين يقفون أمام نجمة الصباح ، يبحر إلى الجانب الشرقى من السماء حيث تولد الآلهة فيولد منهم متجسدا القوة والشباب . ومن أمثلة التضارب في النصوص أن الملك (ليس إنسانا وليس آباءه من البشر... لأنه تحولت أقوى الآلهة أعظم من رع وهو ابنه) ، كما تصور النصوص الميت كصائد يتصيد نجوم السماء ويألتهم الآلهة يعيش على آباءه ويتغذى بأمهاته .

أما مقر الأبرار فقد تخيله المصرى كجموعة من الجزر تمثل حقل الاطعمة ، و « حقل يارو » أو « مقر الممجدين » - هاتان الجنتان تخيلهما المصرى على شكل البلاد المصرية يغمرها الفيضان ويزدهر فيها الزرع وتقوم آلهة السماء فيها بإطعام الميت طعاما طاهرا بريئا ، ترضعه نوت أو الحية التى تحمى الشمس ولا تفظئانه أبدا أو يتلقى نصيبه من شونة الإله العظيم ويلبس ما لا يفنى وله من الخبز والجمعة ما يبقى أبدا طعامه بين الآلهة وشرابه النبيذ على نحو شرب رع . ويعطيه رع بما يأكل ويشرب .

وكان الوصول إلى حقول الأبرار هذه صعبا عسيرا فكان الميت

يرجو عطف حورس (الصقر) وتحوت (أبو منجل) لينقلانه إلى هذه الحتول أو يرجو إله الشمس ليحبر به في سفينته أو يرجو ملاح (نوتي) حقلول يارو الذى لا ينقل غير الرجل القويم الذى لا قارب له .

وتبدو مبادئ الأخلاق في نصوص الأهرام من كثير من العبارات التي منها : ما من شر ارتكبه ، و«لم يتقبل السوء على الملك» و«لم يحترم الآلهة ، و « طاهر الجسد ، ، ومن ذلك يتبين أن معاملة الفرد مع الناس والآلهة كانت تعتمد على مكارم الأخلاق واحترام الملك والآلهة .

وبانتشار عقيدة أوزيريس تأثر الأدب الجزى وأصبح خليطاً مشوهاً أكثر من ذى قبل ، ولا نجد إلا القليل من السحر في متون الأهرام . ولما تطورت الحياة الاجتماعية في مصر الفرعونية أصبح للأفراد حق كتابة نصوص جزئية على توابيتهم منذ عهد الدولة الوسطى تقريباً وهذه النصوص عرفت باسم « نصوص التوابيت » وهي عبارة عن مختارات من نصوص الأهرام (التي كانت وقفا على الملوك) صيغت في صورة جديدة وأضيفت إليها مواد أخرى - وقد تطورت هذه في عهد الدولة الحديثة إلى ما يعرف باسم « كتاب الموتى » وهو عبارة عن النصوص الجزئية التي دونت في المقابر أو في البرديات ابتداء من عهد الدولة الحديثة حتى العصر الروماني - وكتاب الموتى هذا يرجع في تكوينه إلى مجموعتي متون الأهرام ونصوص التوابيت وقد أطلق المصريون عليه اسم « تعريفات للخروج نهاراً » أى أن الغرض من كتاب الموتى هو تمكين المتوفى من الخروج من ظلمة القبر إلى ضوء الشمس وتمكينه من الحركة بعد الموت ، وكثير من تعريجات هذا الكتاب يفهم منها توفير

السعادة في العالم الآخر والتهرب من الأخطار التي تصادف الميت - وهذه كانت تتمثل في هيئة آلهة شريرة أو شياطين أو ماينتأب المرء من جوع وعطش . . . الخ ،

وإبتداء من عهد الأسرة الثامنة عشر ظهر كتابان آخران لأول مرة وهما ، ايم دوات ، (ما في العالم السفلى) و ، كتاب الابواب ، وهذان الكتابان يدوران حول موضوع واحد هو رحلة الشمس ليلا في العالم السفلى - وكان المعتقد أن إله الشمس يواصل السفر ليلا من الغرب إلى الشرق في أسفل الأرض وفي هذه الرحلة يزور بمالك الأموات ويضئ عليهم من ضوئه وكان عليه أثناءها أن يناضل أنواعا من المردة تسعى لوقف تسياره ولمنعه من الشروق على الأرض ثانية - وكان العالم السفلى في نظر المصري مقسما إلى اثني عشر قسما طبقا لساعات الليل يجتاز إله الشمس كلا منها في ساعة معينة وفي صورة تختلف عن صورته في النهار - وكان المتوفى يأمل أن يلحق بموكب إله الشمس فاستعان على ذلك بالنصوص التي أطلق عليها ، كتاب ما في العالم السفلى ، حتى يتمكن من تخطى الأخطار التي تكثف طريقه ليلا .

أما كتاب الابواب فيتحدث عن نفس الموضوع أى رحلة الشمس خلال أقسام العالم السفلى الاثنتي عشر، ولكنه يقتصر على وصف الابواب والبوابات التي تؤدي إلى هذه الأقسام والكائنات التي تحرسها .

وكان الميت دائما يأمل أن تسكون روحه ضيفا يرحب به في بيته عند زيارتها للدنيا لاضيفا غير مرغوب فيه ، كما اعتقد المصري بأن روح المتوفى في إمكانها أن تتدخل في شئون الأحياء - وقد وردت إلينا نصوص

كثيرة تبين هذه العقيدة ، ومن ذلك مثلا أن أحد الناس كتب خطابا إلى روح زوجته المتوفاة يرجوها فيه أن تكف عن أذاه ويذكرها بما كان يبذله من أجلها أثناء حياتها - كذلك اعتقد المصري بأن الميت كان يبرر موقفه أمام أزوريس الذى كان قاضيا وحاكما فى العالم السفلى فيتقدم بسلسلة من الإعترافات الإنكارية أو السلبية حتى يقبله فى مملكته التى يعيش فيها المبرئين المرحومين ، ومن هذه الاعترافات مثلا ، أنا لم أسرق ولم امتن أرملة ولم أكذب . . . الخ .

وكانت قاعة المحاكمة يمثل فيها أوزيريس كرئيس للحكمة ومن حوله اثنان وأربعين قاضيا وفيها يشرف تحوت على الميزان الذى يوزن فيه قلب المتوفى فى مقابل ريشة العدل التى توضع فى الكفة الأخرى من الميزان ، فن كان قلبه أثقل منها ثبتت براءته واعتبر فى عداد الأبرار الذين لهم الحق فى الوصول إلى حتمول يارو - أما من تثبت إدانته فيلقى قلبه إلى حيوان خرافى متوحش مخيف ليأكله ويلقى الميت جزاءه فى النار ولا يصحب اله الشمس فى رحلته ولا ينتظم بين الأرواح السعيدة التى تتلألأ فى السماء .

ومن ذلك يقين أن الدين كان يحض على مكارم الاخلاق وأن تلك المعايير الاخلاقية لاشك فى أنها كانت فى أول الامر عادات اجتماعية فرضها المجتمع وأصبح لها من القوة ما جعلها من التعاليم الدينية .

ولما كان المصرى لا يشك إطلاقا فى البعث فإنه حرص على المحافظة على جسده حتى تتعرف عليه الروح وتمود إليه بسهولة كما كان يحرص على بقاء هذا الجسد سليما حتى لا يبعث فى حالة غير التى كان عليها ،

وقد احتسب كذلك بعمل تماثيل له حتى إذا ما أصيب الجسد أمكن للروح أن تحل في تمثال له ولكن نلاحظ في هذه الحالة أن التمثال كان يمثله وهو في ريعان شبابه طمعا في أن يبعث وهو في خير هيئة له .

وبالطبع كانت المحافظة على الجثة تتطلب أن يكون الدفن في مكان أمين بعيد عن المؤثرات الجوية والحيوانات الضارية ، وكانت المقبرة في أول أمرها عبارة عن حفرة بسيطة يوضع فيها الميت ثم يمال عليه الرديم ، ثم أمكن تسقيف هذه الحفرة بالبوص ثم بالخشب - ولاشك في أن أهل المتوفى كانوا يميزون مقبرته من غيرها بكومة من الرمال أو الحصى ، وهذا الجزء الذي يعلو سطح الأرض أصبح جزءا متمما للمقبرة وخضع لتيار التطور . ومنذ عصر ما قبل الاسرات أصبح الجزء الذي تحت سطح الأرض مستطيل الشكل لأن تسقيف حفرة الدفن واختراع اللبن الذي أستخدم في تبطين هذه الحفرة كان يحتم ذلك أو يسره على الأقل . وفي أواخر هذا العصر تقريبا قسمت حفرة الدفن إلى حجرات كما أن الجزء الذي يعلو سطح الأرض فوق هذه الحفرة Super - structure أصبح عبارة عن بناء من اللبن مستطيل الشكل مائل الجوانب إلى الداخل قليلا وهو الذي عرف باسم المصطبة ، وكثيرا ما أصبحت كلمة المصطبة تطلق على المقبرة بأكملها أي على الجزئين معا . وكانت جدران المصاطب تبنى بحيث تكون ذات تعرجات (مداخل ومخارج) أشبه بأسوار الحصون ثم اقتصر على فجوتين فقط في جدارها الشرقي منذ عهد الأسرة الثانية وكانت الفجوة الجنوبية منها أكبر من الشمالية ، وقد وضعت لوحة جنزية لصاحب المقبرة

في الفجوة الجنوبية - وهذه اللوحة هي التي تطورت فيما بعد إلى ما يعرف باسم الباب الوهمي .

ومنذ عهد زوسر أمكن بناء مقبرة بأكملها من الحجر وفي عهد الدولة القديمة ظل الجزء الذي تحت سطح الأرض ينحت في الصخر في هيئة حجرة للدفن يؤدي إليها طريق منحدر أو بئر عمودي مع اختلافات بسيطة في أهرام الملوك . أما الجزء الذي يعلو سطح الأرض فقد ظل الاشراف والشعب يبثونه في هيئة المصاطب ولكن المنجر استعمل في هذا البناء - بينما تدرج الملوك ابتداء من عهد زوسر من الهرم المدرج إلى الشكل الهرمي في بناء هذا الجزء الظاهر من المقبرة - وقد ظل هذا الشكل محبباً لدى الملوك إلى عهد الدولة الوسطى وإن كان بعض هؤلاء لم يستطيعوا إلا بناء أهرام صغيرة من اللبن .

وكانت القرابين تقدم إلى روح المتوفى أمام اللوحة الجزئية ولما عظم اتساع الفجوة التي بها اللوحة حولت إلى حجرة لتقديم القرابين وللقيام بالطقوس الدينية نحو المتوفى - أما بالنسبة للاهرام فكان كل ملك يبني في الجهة الشرقية من هرمه معبداً جنزياً يصله بالوادي طريق منحدر ينتمى إلى بناء صغير للاستقبال على حافة الوادي .

وحيثما عظم نفوذ الاشراف في عهد الاقطاع الاول والدولة الوسطى نحتوا مقابرهم في الصخر في مناطق أقاليمهم .

ومنذ عهد الدولة الحديثة أخذ الملوك والاشراف في نحت مقابرهم في الصخر خشية سطو اللصوص عليها وفصل الملوك بين مقابرهم وبين المعابد الجزئية التي شيدها بعيداً عنها حتى لا يتهدى اللصوص إلى مكان دفنهم - أما الاشراف فكانت حجرات تقديم القرابين جزءاً من صميم المقبرة نفسها .

وقد تبين المصرى منذ أقدم العصور أن الدفن وحده لا يكفي للحفاظ على الجثة فلجأ إلى التحنيط ولا نعرف على وجه الدقة متى بدأ رغم العثور على جثث من الأسرة الثانية كفنت بعناية ودقة وكان كل عضو فيها ملف على حدة بما يشعر بوجود نوع من التحنيط - ومنذ عصر الأسرة الرابعة عثر على جثث محنطة تحنيطا تاما وما زال صندوق حطب حرس يحوى صرة كانت بها الاحشاء محفوظة في النطرون غير أن الجثة لم يعثر عليها - وأقدم مومياء معروفة ترجع للأسرة الخامسة في المتحف الملكى لكلية الجراحة بلندن ، وقد استمر التحنيط مستخدما حتى أوائل العهد المسيحى .

ومعظم مواد التحنيط وطرقه أصبحت معروفة إلا من بعض التفاصيل وأقدم وصف للحنيط وصل إلينا من هيروdot ثم من ديودور . وقد روى هيروdot بأن المصرى كان يستعمل ثلاثة طرق مختلفة :-

(١) وهى تكلف وزنة من الفضة ذات قيمة كبيرة - وفيها يستخرج نخاع المنخ من الحياشيم بآلة خاصة وما يتبقى منه يزال بعقاقير لم يذكر اسمها كما كانت محتويات الجوف والصدر (ما عدا القلب والكليتين) تستخرج عن طريق فتحة فى الجانب الأيسر ثم ينظف مكانها بنبيذ البلح والتوابل ويملأ بعد ذلك بالمر وبعض المواد العطرية والكتان والراتنج والنشارة والنطرون وقشر البصل وغير ذلك . ثم تخاط الفتحة ويعالج كل الجسم بالنطرون لمدة ٧٠ يوما ثم ينسل ويلف فى لفائف من الكتان تلتصق بالصمغ .

(٢) كان زيت خشب الأرز يستخدم فى هذه الطريقة حيث كان الجسم

يحقن به ولا يسمح بتسربه إلا بعد أن يعالج الجسم بالنظرون.
(٣) أرخص الطرق وكانت للفقراء وتتلخص في تنظيف الأحشاء
بأنواع من السوائل (ماء أو شرابه) ثم يعالج الجسم بعد ذلك بالنظرون
لمدة ٧٠ يوما .

ويعطينا ديودور بعض تفاصيل لم يذكرها هيروودوت إلا أنه لم يذكر
سوى طريقة واحدة للتحنيط تتلخص في إزالة الأحشاء ما عدا القلب
والكليتين وتنظيفها بنبيد البلح وتوابل مختلفة لم يعين أسماءها ويدلك
الجسم بزيت خشب الأرز ثم يمسح بالمر والقرفة ومواد مماثلة بالاضافة إلى قار
البحر الميت (حيث أشار في إحدى المناسبات عند وصف قار « البحر
الميت » أنه كان يحمل إلى مصر ليباع فيها لتحنيط الموتى) لأن الأجسام لا
يمكن أن تحفظ مدة طويلة دون تعفن إلا إذا خلطت بالتوابل العطرية
المستعملة بهذه المناسبة .

وربما كان الاختلاف بين الطريقة التي ذكرها ديودور وطرق هيروودت
راجع إلى أن فن التحنيط قد تطور في الأربعة قرون التي تفصل
بين هذين المؤرخين .

وبعض الجثث لم تنزع منها الأحشاء مثل مومياء «عاشيت» من الدولة
الوسطى أما الأحشاء التي تنزع فكانت تعالج بمخلوط من الرمل والقار
وتدفن في صندوق خاص قد يكون مقسما إلى أربعة أقسام ثم أصبحت
توضع في أربعة أواني إلى جوار الجثة ، وهذه الأواني تعرف باسم
أواني الأحشاء .

وأحدها كانت توضع به الأمعاء الغليظة والمعدة والثاني توضع به

الأمعاء الدقيقة والثالث توضع به الرئتين والرابع يوضع به الكبد -
وأغلبية هذه الأواني على هيئة أحد أبناء الإله حورس الأربعة التي كانت
تعتبر حامية للأحشاء .

والظاهر أن التحنيط اكتشف مصادفة حينما تبين المصرى أن بعض
الاجساد التي دفنت في تربة ملحية كانت تحفظ من التعفن ، ويذكر هيرودوت
أن الاثيوبيين كانوا يحفون الاجسام لتحنيطها ويدلكونها بالخصى ثم
يضعونها في أوعية شفافة .

هذا وقد كانت عماية التحنيط تجريها فئة خاصة يبدو أنها كانت فئة
غير محبوبة .

القضاء

كان الوزير في أقدم العصور على رأس القضاء فكان يحكم وظيفته كبيراً
للقضاة ، ومنذ عهد الأسرة الخامسة أصبحت هذه الوظيفة وراثية في
أسرة نبيلة - وقد وجدت في الوجه القبلى ستة محاكم كبيرة . يحتمل أن
كلا منها كانت تختص بقسم من أقسام ستة رئيسية يرجح أن العرف
جرى على تقسيم الوجه القبلى إليها في بعض الشئون العامة ، وكان كل
من عظماء الوجه القبلى العشرة يعتبر مستشاراً في إحدى هذه المحاكم ،
أما رئيس هؤلاء العظماء فكان يعتبر مستشاراً فيها جميعاً ، وبالطبع كان
لكل محكمة قضائها - وإلى جانب هؤلاء كان هناك قضاة لا ينتمون إلى
أى محكمة وهؤلاء كانوا يعملون كساعدين لسكبير القضاة عندما تعقد
جلسات ذات سرية أو ذات أهمية خاصة ، ومثل هؤلاء القاضى الذى كان

يلقب بلقب « فم نخن » ولما كانت الإلهة « ماعت » تعد إلهة للعدالة فإن القضاة كانوا يعدون من كهنتها .

ويبدو أن هذا النظام قد تعرض للتبديل ، ففي عصر الدولة الوسطى تغير تشكيل هذه المحاكم وأصبح منصب كبير القضاة - وإن ظل مرتبطا بمنصب الوزير - لقبا تقليديا ولم تعد له نفس الاختصاصات السابقة كما أن لقب « فم نخن » أصبح هو الآخر لقباً شرفيا يمنح لبعض أمراء الأقاليم - أما في الدولة الحديثة فإن ماورد من إشارات يدل على أن أعضاء المحاكم كانوا عرضة للتغيير والتنقلات، وكانوا عادة من الموظفين والسكينة الضالعين في القانون غير أن كاتب المحكمة كان غالبا ثابتا في وظيفته - ولهذا الأمر أهميته بالطبع لأنه كان يكلف بحفظ محاضر الجلسات باعتبارها الوثائق الحاسمة في المحاكمات .

ولم تصل إلينا القوانين التي كانت المحاكم تسترشد بها ولكن هناك ما يشير إلى وجود مجموعة للقوانين الرسمية كانت مدونة على ملفات من الرق وجدت ضمن مناظر المحكمة التي كانت تعقد في قاعة الوزير درخى رع ، (من عهد الأسرة الثامنة عشرة) كما تظهرها نقوش مقبرته في السبر الغربى للاقصر - ومعظم هذه القوانين ترجع في أصولها إلى عصور سحيقة إلا أن الحاجة كانت تدعو بعض الملوك إلى سن المزيد من سن القوانين كما حدث في عهدى سنوسرت الأول (الأسرة الثانية عشرة) وحور محب (مستهل الأسرة التاسعة عشرة) .

وكانت ظروف بعض القضايا توجب الخروج على الإجراءات القضائية المعتادة فن ذلك القضية التي اتهمت فيها زوجة الملك بيبى الأول حيث جرت

المحاكمة فيها بسرية ولم يشترك فيها سوى عدد محدود من القضاة وعلى رأسهم «أونى» الذى كان مقربا للملك - كما أن قضية المؤامرة التى دبرت لاغتيال رعمسيس الثالث لم تنتظر أمام محكمة عادية بل شكلت لها هيئة محاكمة خاصة منحت سلطات مطلقة وقد جرت المحاكمة فى سرية وسرعة إذ أن غالبية المشتركين فى المؤامرة كانوا من حريم الملك ومن كبار موظفى البلاط والضباط .

وكانت الدعاوى المدنية تقدم أمام المحاكم الدائمة وكان على الشاكي أن يثبت حقه بما لديه من وثائق رسمية أو شهادة الشهود أو بهما معا ، وكان على المدعى عليه أن يقسم بأن ينفذ قرار المحكمة كما كان على الشهود أن يتسموا على قول الصدق .

أما أم الوثائق التى كان يعتد بها فهى الوصايا التى يوصى فيها السلف إلى المدعى بما يدعى ملاكيته ، وقوائم الضرائب الرسمية التى تثبت حقه فيما يدعى أنه حقه ، وعقود الشراء إلى جانب الوثائق التى تنص على الهبات والأوقاف والإعفاء من الضرائب وغيرها

العسكرية

لم يكن في مصر في أقدم عصورها جيشا موحدا بل كانت لكل مقاطعة قوتها العسكرية الخاصة ولكل من المعابد الكبيرة ولإدارة بيت المال فرقا الخاصة ، وهذه كلها كانت تجمع عند الحاجة كما حدث عندما هاجم الآسبويون مصر في عصر الأسرة السادسة - وقد ظل الحال كذلك إلى عهد الدولة الوسطى حيث ظل كل أمير يحتفظ في إقليمه بجيشه الصغير الخاص به ، ولم يكن هذا الجيش يستخدم دائما في الحروب بل كان يقوم بأعمال أخرى وقت السلم ، فإلى جانب حماية البعثات التجارية وبعثات استئصال المناجم والمحاجر في الصحراء كان الكثيرون من الجنود يستخدمون كعمال وخاصة في هذه البعثات الأخيرة لجر ونقل الاحجار - وقد تذبذبت ملوك الدولة الوسطى إلى أن فرقا كهذه لا يمكن أن تكون لها فاعلية الجيوش الموحدة المنظمة فأنشأوا لهم حرسا خاصا ثابتا استخدموه في حروبهم ، وقد عرف هذا الحرس باسم « أتباع الحاكم »

أما في عهد الدولة الحديثة فقد أخذ الطابع الحربي يسود البلاد بعد أن نجحت في طرد الهكسوس وذاقت طعم النصر في القتال وأقبل المصريون على الانخراط في سلك الجندية لما كانوا يتألون فيه من شرف وفخار فضلا عن المكاسب المادية التي يحصلون عليها في انتصاراتهم ، وأصبح الجيش المصري ثابتا يتألف من عدد من الفيالق أو الوحدات التي كانت على الأرجح تختلف في ملابسها وأسلحتها - ويغلب على الظن أن الجيش المصري لم يخل في أي وقت من المرتبة وخاصة من النوبيين الذين استمر استخدامهم منذ أقدم العصور ، ففي الدولة القديمة عملوا

كحرس للجبانات والمناطق الصحراوية ، وفي عهد الفوضى الأول كانوا يعملون في جيوش المقاطعات وظلوا كذلك يستخدمون في الجيش في عهد الدولة الوسطى ، أما في الدولة الحديثة فكانوا يؤلفون فرقا حربية تعمل في حفظ الأمن إلى جانب بعض النواحي الإدارية الأخرى - وقد زادت العناصر الأجنبية في الجيش ابتداء من عصر الأسرة التاسعة عشرة حتى أصبحوا في العصر المتأخر يشكلون غالبية الجيش المصري ، وكان يرأسهم رؤساء من بنى جلدتهم - وما يلاحظ في هذا الصدد أن جماعات الشردان والليبيين أخذت تسود في أواخر عصر الدولة الحديثة بينما أفسحت مكانها في عصر النهضة (الأسرة ٢٦) وما بعدها للعناصر اليونانية .

وكما تطور الجيش في تكوينه تطورت كذلك الأسلحة التي استخدمها ، ففي فجر التاريخ كان السلاح الشائع الاستعمال هو المراوة (دبوس القتال) ذات الرأس الحجري التي ظلت تبين في النقوش حتى أواخر العصور الفرعونية كسلاح تقليدي يستخدمه الفرعون في تحطيم رؤس أعدائه ، وفي عصر الدولة القديمة كان الجنود يساحون بفتوس للقتال وبالقسي والسهم - وفي عهد الفوضى الأول ظل استخدام القسي والسهم إلى جانب استخدام الحراب الطويلة والتروس في حالة الالتحام عن قرب ، ولم يزد تسليح الجنود في عهد الدولة الوسطى عن ذلك كثيرا غير أن بعض الجنود كانوا يسكتفون بالتسلح بمجرد مقلاع فقط . ومن المحتمل أن الخنجر استعمل في مختلف العصور ولكنه لم يمثل مع الجنود في صورهم إلا نادراً . وقد تغير شكل الفأس النحاسية في السدولة الوسطى حتى أصبحت تبدو كأنها السلاح الذي تطور إلى السيف المنحني

الذى كان يحملة ملوك الدولة الحديثة ، وهو على شكل المنجل .
وفى عهد الدولة الحديثة كان الجنود يتسلحون بالحرا ب مع الخناجر
أو السبوف التى على شكل المنجل وترس ثقيل ، وقد يتساح البعض بحربة
خفيفة وترس أو رماح طويلة وسيوف أو القسى والسهام ، وكان بعض
الجنود يلبسون الدرع (قيص الحرب) - هذا إلى جانب استحداث
العجلات الحربية كأداة فعالة فى الحروب منذ طرد الهكسوس من مصر،
وهذه كان يركب فيها عادة محاربان أحدهما لقيادة الخيل والآخر برى
بالسهم من قوسه أو يقذف بزارق كانت توضع فى جمعيتين عند حافة
الركبة فى متناول يده ، وقد أصبح هؤلاء الفرسان يشكلون قسما هاما فى
الجيش المصرى .

وفى بلد كصر عرضة للإغارة عايبها من بدو الصحارى المناخمة ومن
النوبيين فى الجنوب كان لابد من وجود عدد من الحصون والثكنات عند
مناطق الخطر، وتدل البقايا الأثرية على وجود مثل هذه الحصون عند الحدود
الجنوبية فى عهد الدولة القديمة - وفى عهد الدولة الوسطى وجدت حصون
على حدود الدلتا الشرقية وفى جنوب مصر كما بنيت سلسلة من القلاع
فى النوبة السفلى للسيطرة عليها وحماية الممتلكات المصرية بها - أما فى
عهد الدولة الحديثة فلم تكن الحاجة تدعو فى أول الأمر لإنشاء مثل
هذه الحصون وربما استعاضوا عنها بإنشاء مدن عسكرية فى الدلتا .

ويبدو أن المصريين لخبرتهم. بمثل هذه التحصينات قد اكتسبوا مهارة فى
طرق حصارها وتحطيمها منذ عصر الدولة القديمة على الأقل حيث يبدو
ذلك واضحا من منظر يمثل اغتصابهم لحصن آسيوى بالمراقى وقضبان الهم

جاء في نقش بإحدى مقابر داشاشة (١) ، وفي إحدى مقابر بنى حسن مناظر تمثل حصار أحد الحصون حيث يتقدم إليه المهاجمون تحت مظلة واقية وهم يدفعون في جداره قضيبا طويلا للهدم ويرمون المدافع من يوابل من السهام (٢) .

الحياة الاقتصادية

الزراعة وتربية الحيوان

لا بد عند الكلام عن الزراعة أن تتخيل البيئة المصرية في بداية العصور الفرعونية . فالمعروف أن النهر كان متسع المجرى قليل الغور لأنه لم يكن قد عمق هذا المجرى تماما فكانت مياة الفيضان تنمر الجانبين إلى مسافات بعيدة ونتج عن ذلك أن المستنقعات والغابات كانت شائعة وخاصة في الدلتا - أى أن هذه البيئة المصرية كانت في أول الأمر بيئة صياد بطيحتها، ثم عرف الإنسان استئناس الحيوان - وحينما تعددت مطالبه وعجز عن الاكتفاء بهاتين الحرفتين وتوصل إلى الزراعة بدأ حياة الاستقرار فأخذ يقتلع الغابات ويزرع مكانها ، وقد أدى ذلك إلى الإفادة من مياه النيل وأخذ ينظم جهوده المشتركة ليستطيع التغلب على مياة النهر والتحكم فيها لفائدته ، ولذا كان النيل من أهم البواعث التي أدت إلى ظهور المجتمعات المنظمة - وكان ظهور المجتمعات الصغيرة بعضها إلى جوار بعض سببا في اشتداد المنافسة بينها وبجبالا لنشأة الصراع في سبيل فرض النفوذ ونشر

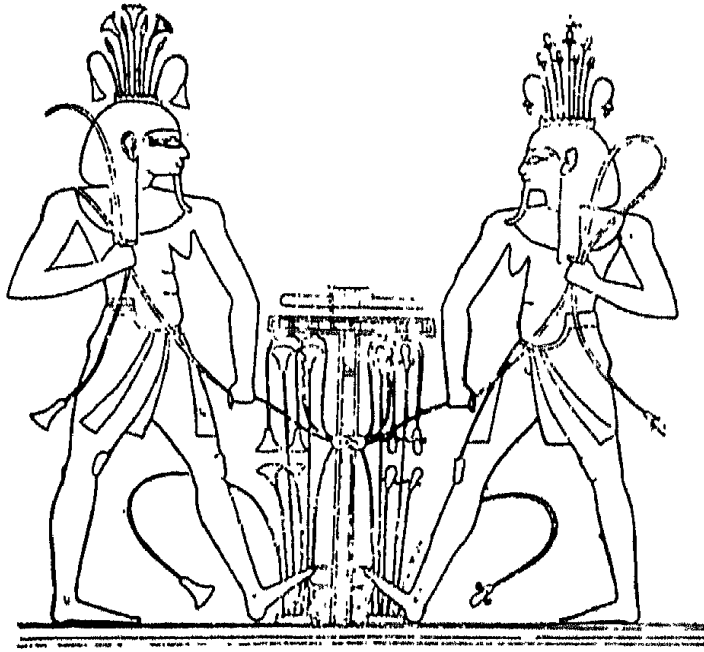
Petrie, Deshashah, pp. 5; ff; pl. 4.

(١)

Newberry, Beni Hassan I, 14; II, 15,

(٢)

السلطان فكان الإقليم الأقوى يحاول بسط سيادته على الأقاليم المجاورة .
ولا يكاد يوجد في العالم نهر اعتمد سكان واديه عليه في حياتهم
مثل اعتماد المصرى على نهر النيل بل وإلى هذا النهر يرجع الفضل في
وجود الإنسان في هذه البقعة من العالم وعلى ذلك ليس من المستغرب
أن اعتبره المصريون إلهاً وتخيّلوه في هيئة إنسان عظيم الثديين كبير
البطن ممتلىء الجسم كناية عن الخير والبركة ويقسوم بحزم وربط رمزى
الوجه القبلى والوجه البحرى شكل (١٦) وكثيراً ما وجد مع غيره



شكل (١٦) : إله النيل يمثل رجلاً ممتلىء الجسم
وهنا تمثيل لرمزين للنيل يوحدان رمزى الوجهين
القبلى والبحرى

من الآلهة مثل أوزوريس كما أطلق على هذا الإله الموحد اسم أوزير - ابيس في العصر اليوناني .

وقد يصبح النيل خطيراً أحياناً ، ولا يتمثل هذا الخطر في شدة الفيضان فقط وإنما يتدل أيضاً في قلة ما يجيء به من مياه في بعض السنوات مما يؤدي إلى هلاك الزرع وانتشار المجاعات ، وإذا ما انخفض منسوب المياه فإن الفلاح يلجأ إلى وسائل تعينه على رفع الماء إلى حقله - وقد توصل إلى هذه الوسائل منذ أقدم العصور وظل يستعملها حتى يومنا هذا ، ومن أهم هذه الوسائل الشادوف - كذلك مازال الفلاح يمد أرضه بالمحراث أو الغأس لإعدادها للزراعة .

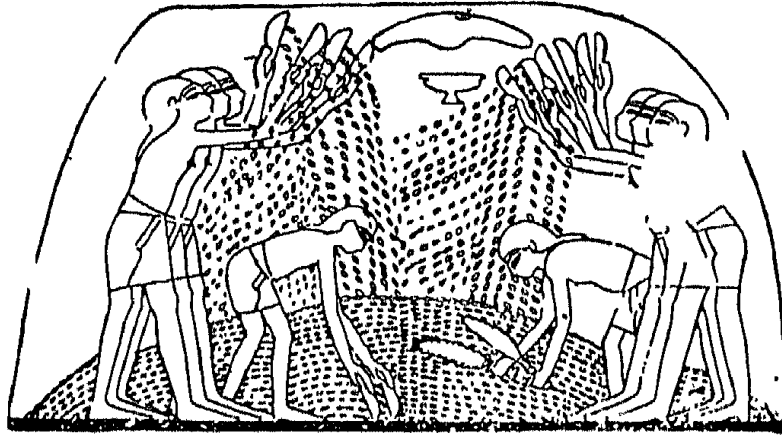
وكان الجر المصري يساعد على أعمال الزراعة المختلفة فالجو وصحو في معظم أيام السنة وأتاح ذلك للمصري أن يؤدي أعماله بنظام ونشاط ، وكان المحراث الذي استعمله المصري القديم عبارة عن سكين خشبي تثبت إليها يدان أو مقبضان وعريش طويل ينتهي بنير (ناف) - وكانت الثيران هي التي تجر المحراث في الدولة القديمة أما في الدولة الحديثة فقد استعملت البغال أيضاً .

وطريقة بذر البذور هي نفسها التي ما زالت مستعملة حتى اليوم إذ يمسك الفلاح بسلة مصنوعة من البوص أو القش أو البردي ويلقي بيده البذور ثم يسير الخراف في الحقل لتغرز هذه البذور في التربة ، وقد تمر الخراف عدة مرات لكي يضمن الفلاح تغرير معظم الحبوب .

أما الحصاد فكان يتم بمنجل قصير ويستعين الفلاح على الممسك في الحقل بخازف للنأي أو أحد المنشدين الذي يشجى العمال بألحانه ، وكثيراً

ما نرى في النقوش مناظر الحقول أثناء فترة الحصاد وفيها نشاهد مناظر تمثل العمال أحيانا في راحتهم يتناولون طعامهم بالقرب من مكان جمع المحصول حيث نرى حزم النبات مكومة في قطعة أرض فضاء في أحد أركان الحقل أو بالقرب منه ، ثم تنقل هذه الحزم إلى مكان الدرس - وكان الخمار هو المستعمل في النقل أما الدرس فكان يتم بواسطة إمرار الحيوانات ذوات الحوافر على تلك الحزم مثل الخير والثيران ، ثم أصبح الأمر قاصراً على استعمال الثيران فقط .

وكانت التذرية بمذراة ذات ثلاثة أسنان أو كانت الحبوب وما يختلط بها ترفع على لوحات خشب قليلة التقوس (شكل ١٧) - وهذه الطريقة الأخيرة كانت تستعملها نساء معصوبات الرؤوس ، وربما كان الغرض من ذلك حفظ شعورهن من الأتربة المتصاعدة عن هذه العملية إذ كانت الحبوب ترفع على اللوحات الخشبية إلى أعلى ثم تترك لتسقط فتهبط الحبوب في مكانها بينما تتطاير الأتربة والتبن والقش بعيداً في الهواء .



شكل (١٧) : يمثل نساء يقمن بتذرية القمح

وتقدم من باكورة الحصاد قرابين مختلفة كما أن صاحب المزرعة كان يأخذ شيئاً من هذا المحصول المبكر، أى تقدم له كذلك باكورة الحصاد الجديد لتجربتها والاطمئنان على نوع المحصول - وكثيراً ما نجد في مناظر الدولة القديمة منظرأ يمثل المذبح الممد لتقديم القرابين بين أكوام القمح، وكانت إلهة الحصاد التى تقدم لها القرابين عادة هى (رننوت) .

أما حفظ المحصول فكان يتم بعد أن يقوم كاتب الصوامع والكيال بعملها حيث كان الكيال يكيل المحصول بينما كان السكائب يسجل عدد الكيل، وبعد ذلك كان ينقل إلى أهراء كبيرة لحفظه. وكانت الصوامع على أنواع فبعضها من الفخار وبعضها من الخشب وبعضها كبير إلى درجة أنه كان يبنى لاستعمال مدينة أو قرية بأكملها، وهى عموماً ذات شكل مخروطى وبها فتحة فى القمة وباب من أسفل - وكان التخزين يتم عن طريق الفتحة العليا أما الاستهلاك فكان عن طريق الباب السفلى .

وقد عرف المصرى من الحبوب القمح ونوعاً من الشوفان وكان كل منها يختلف فى نوعه فى مصر العليا عنه فى مصر السفلى . وهناك بعض أنواع من الحبوب لم يمكن تحديدها فثلاً كان هناك نوع اسمه « سخت » كذلك كان من الحبوب ما هو أبيض ومنها ما هو أخضر، وربما كان هذا الأخير نوعاً من البازلاء . أو ما شابهها من البقول - أما الخضروات فكانت متعددة .

وكان المصرى يجب حيواناته الاليفة ويتعلق بها وعاصه تلك التى تساعده فى أعماله، واشتدت عنايته بالأنواع الحسنة من الثيران فكان يتفنن

في تزيينها بأغطية جميلة وجلال وقد وصل به الأمر إلى تقديس الثور
والبقرة وكذلك قدس الكباش - وقد نقش كثيراً من المناظر التي تشمل
تلك الحيوانات ومن بينها مناظر تمثل قيام الثيران بالعمل في الحقل ،
كما أحب مناظر مناطق الثيران وغيرها .

وكانت ثروة المصري من الثيران ضخمة وهي تنقسم عموماً من ناحية
خصائصها الحيوانية إلى ثلاثة أنواع: الأول ذو قرون طويلة تشبه القيثارة
أو هلالية الشكل، والثاني قصير القرون، والثالث بدون قرون - وكثيراً ما كان
يتحكم في شكل قرون ثيرانه بأن يجعلها تنمو في اتجاهات خاصة وما زالت
هذه العادة معروفة في أواسط أفريقيا - وتبين العناية بغذاء الحيوان من
كثير من المناظر ومن بعض مخلفات الأدب المصري .

كذلك كان يعنى بتربية السلالات الأصيلة والاكثار منها ، وعند جمع
الجزية من بلاد النوبة مثلاً كانت الأصناف الممتازة من هذا الحيوان
تزين وترسل إلى بيت الملك - أما الحيوانات الأخرى في الجزية فكان
الموظفون المصريون في تلك البلاد يحتفظون بها للاستهلاك المحلي ، وكان
غذاء التسمين المفضل هو عبارة عن عجين الخبز يصنع في خيوط ويطعم
للحيوان - وكانت عملية حلب البقر من الأمور الصعبة فلم تقم بها النساء
بل كان يقوم بها الرجال .

وكان الرعاة نخشون المظهر يظهرون وكأنهم أنصاف متوحشين لبعدهم
عن المدينة ، وكانوا يمثلون عراة أو بنقبة غريبة الشكل من النوع القديم
المصنوع من القش المضغوط - وكانوا معروفين بالمهارة في أعمال خاصة
بالفلاحة ومتعلقة بها مثل صنع القوارب والحصر من الخوص وصيد

الطيور والأسماك ، ولم يكن متاع الراعى ليعتدى قدر كبير من الفخار وسلة تحوى أواني صغيرة وبضعة حصر من البردى يصنعها بيده وهى فى نفس الوقت الغطاء الذى يلتحف به ليقويه الرياح العاتية والجو البارد . وكانوا ينتقلون بالقطمان من مكان إلى آخر فى مهارة غريبة وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى حمل الحيوان الرضيع فتتبعه الأم ويتبع هذه بقية القطيع - وكان أصحاب الضياع يمتلكون قطعانا كبيرة ولسكنهم لم يفخروا إلا بالحيوانات الكبيرة فقط ولم يعنوا كثيراً بغيرها كالماعز والحمر والخراف - ولا تجد فى نقوش العصور القديمة مناظر تمثل قطعان الخنازير ولم تذكر هذه الحيوانات فى النصوص إلا نادراً ولا نعرف هل كان هذا الطيور كثير الوجود فى مصر أم لا - ولا ندرى هل وجد منذ أقدم العصور أو أن وجوده لم يتعدى الأنواع البرية منه فقط.

وإلى جانب الحيوانات المستأنسة كانت تكثر بمصر الحيوانات البرية مثل الظباء والتبائل والوعول والغزلان ، وكان الطي السمين يعتبر من الأطعمة الشهية ويمثل كقربان دائماً - أما الطيور فكانت عديدة ولسكن لم تعرف الدواجن ، وقد احترف صيد الطيور صيادون مهرة وكانوا يسمنونها بخيوط العجين مثل المشاشية إلى جانب بعض الحبوب التى تنثر لها .

وللتمييز بين حيوانات القطعان المختلفة كثيراً ما كان يعمد أصحابها إلى وشمها بعلامات مميزة ؛ وكانت الحيوانات تحفظ فى حظائر نظيفة ، وقد وجدت آثار للأحجار المثقوبة التى كانت تربط إليها هذه الحيوانات - ويستدل منها على أن الحيوانات كانت تربط فى الحظيرة فى صفين متقابلين

بحيث تكون رؤوسها إلى الخارج مواجهة للجدار بينما تكون مؤخرة كل حيوان أمام مؤخرة الحيوان الآخر المقابل له .

وكان للأوز مكانة خاصة واعتبر حيوانا مدللا في كثير من الأحيان حتى أن زوجة أحد موظفي معهد آمون اتخذت أوزة كحيوان مدلل تتبعها أينما ذهبت .

ورغم ما كان يبذله الفلاح من جهد ورغم أنه كان عماد الثروة في مصر القديمة إلا أنه كان يعتبر مخلوقا بائسا يستحق الرحمة والرثاء ، وبين لنا خطاب أحد السكتاب لتلميذه مقدار ما كان يعانيه الفلاح من مرارة العيش فقد جاء فيه أن المحصول كانت تأكله الدود وإذا ما وضع في الأجران فإن القثران والصفير تأتي على معظمه وعند تسليم المحصول لا يجد الفلاح لديه ما يكفى لما هو مطلوب منه فيضرب ويمذب .

الصناعة :

كان الاعتقاد السائد عند المصرى المثقف بأن الصانع كالفلاح كلاهما مخلوق بائس وأن حالة الصانع تدعو إلى السخرية فمن ذلك قول أحد شعراء الدولة الوسطى عن صناع المعادن بأن الحداد لا يوفد كسفير لبلاده ولا يؤدي الصانع رسالة ، كذلك وصف الحداد بأنه يقف بجانب موقده وأصابعه مثل جلد التمساح ورائحته اتن من بيض السمك أما النجار فهو مرهق فى عمله دائم العناء - ولكن هذه النظرة لا يمكن أن تكون عادلة لان الصانع المصرىين أخرجوا من آيات صناعاتهم ما لا يمكن أن ينتجه إلا كل شغوف بعمله أى أن إنتاجهم لم يكن مفروضا عليهم فى جميع الحالات وإن كانت بعض التقاليد

قد حتمت عليه قواعد خاصة ، إلا أن التفاوت في الإلتقان ووجود بعض النماذج التي يعجز عنها الصانع الحديث بإمكانياته الضخمة يجعلنا نعتقد أن الصانع المصرى كان يؤدي عمله برغبة واهتمام - وكثيراً ما كانت له فرصة للحرية فى اختيار بعض النماذج وابتكار ما يراه مناسباً عند لإخراج قطعه فنية .

أما المواد الخام التي كان يتناولها الصانع فى صناعته فكانت بما تنتجه البيئة المحلية أو بما يستورده من البيئات المجاورة - وكانت العلاقات بين وادى النيل الأدنى ووادى النيل الأعلى (أى بين مصر والسودان) وبين وادى النيل وآسيا الغربية نشيطة منذ فجر التاريخ ، وقد تمثل التبادل التجارى بينها أو مايدل على هذا التبادل فى مقابر عصر ما قبل الأسرات إذ وجد بها العاج وبعض المنتجات الصناعية التي تماثل ما وجد فى جنوب غربى آسيا ورغم أن الفيل كان يعيش فى غربى آسيا كما كان يعيش على حدود الصحراء الغربية لمصر نفسها فإن من المسلم به أن العاج كان يأتى من النوبة وإن كان من الممكن الحصول عليه من هذه المصادر الثلاثة جميعاً أى أن التبادل التجارى بين مصر وجيرانها فى عصور ما قبل الأسرات لا يمكن إنكاره .

وإذا ما تأملنا البيئة المصرية نجد أن أهم المواد الخام فيها هى :

(١) البردى - كان هذا النبات يمثل عنصراً هاماً للغاية إذ أنه دخل فى صناعات كثيرة - وأول ما يتبادر إلى الذهن فى هذا الشأن أن سيقان البردى استخدمت فى بناء الأكواخ وعمل القوارب (شكل ١٨) والمصر والسلال والحبال ثم النعال - كذلك كانت سيقان البردى تجمع فى حزم لتقوم مقام الأعمدة عند تسقيف المنازل أو عند رفع تمریشاتها الخفيفة



شكل (١٨) : زورق من البردى يجلس به صائد بالشص

أو لتقوية الجدران ، وكان من أثر استخدام البردى في المباني القديمة أن ظل
المصرى يمثل سيقانه في المباني الحجرية حتى نهاية العصور الفرعونية ،
كذلك مثلت زهوره أيضا في العمارة المصرية ، وما يدل على أثر هذا
النبات في حياة المصرى أن زهرة البردى كانت تعتبر رمزا للوجه البحرى
(بينما كانت زهرة اللوتس ترمز للوجه القبلى) - ثم استخدم البردى
كذلك في عمل صحف الكتابة وبالطبع كانت الكلمة اليونانية Papyrus
الدالة على هذا النبات هي الكلمة التي اشتقت منها الكلمة الدالة على
الورق أو الصحف في معظم اللغات الحديثة حيث تسمى بالإنجليزية Paper
وبالفرنسية Papier .. الخ - وكانت طريقة عمل الصحف منه تتلخص في
قطع سيقان البردى إلى شرائح تلتصق بعضها إلى جوار بعض طولاً
وعرضاً وتطرق بشدة ثم تجفف ويقوى طرفها وإذا ما أريد عمل
قرطاس للكتابة فإن طرفي هذا القرطاس يقويان ، وكان القرطاس
لايستعمل مرة واحدة فقط بل كان من الجائز استعماله عدة مرات بعد
أن تمحى الكتابة السابقة منه في كل مرة - وكان البردى سلعة رئيسية
في الصادرات المصرية في العهد اليونانى الرومانى .

(٢) الكتان - وهو يلي البردى في الأهمية وقد وجد في مصر منذ أقدم العصور بالنسبة لكثرة وجود المستنقعات بها . وجادت زراعته لوفرة المياه - وقد استعمل في أنواع مختلفة من النسيج منها الخشن والرقيق الشفاف حيث نهضت صناعة الغزل والنسيج منذ أقدم العصور ، وكان يحترفها الرجال في معظم الأحوال - وكانت الأنوال المستعملة تتطور بتطور الزمن : ففي الدولة الوسطى كانت ساذجة والعمل عليها مرهقا لأنها كانت تحتم على النساج الجلوس في هيئة القرفصاء ، أما في الدولة الحديثة فكانت الأنوال من النوع المركب التي أباحت شيئا من الراحة للصانع الذي يقوم بالعمل عايبا - وقد أشرنا فيما سبق إلى دهشة هيرودوت حينما وجد أن النساج المصري كان يدفع بلحمة النسيج إلى الاتجاه المضاد للاتجاه المستعمل في النسيج عند الشعوب الأخرى .

وكانت الطريقة التي يتبعها المصري في صناعة الكتان تبدأ بجمع سيقان هذا النبات ثم تمشيظها بعد التجفيف ثم تغلى السيقان ليلاين لحاؤها وتطرق بعد ذلك لإزالة هذا اللحاء وبعدئذ تندى الألياف بالماء ثم تفتل بمغزل - وقد اشتهرت الغزالات في الدولة الوسطى بالبراعة ، وكان فتل الحبال من الصناعات المشهورة التي لقيت رواجا كبيرا - وبعد غزل الكتان كانت تؤخذ خيوطه للأنوال لنسجه حسب الطلب .

(٣) - الجلود - استخدمت الجلود في الصناعة منذ أقدم العصور وكانت الجلود المستعملة لا ينزع عنها شعرها الجليل مثل جلود الفهود أو الحيوانات التي كان جلودها أقرب إلى الفراء واستخدمت هذه الجلود في عمل الملابس وظل استعمالها تقليديا بالنسبة لجلد الفهد ، إذ ظل مستعملا

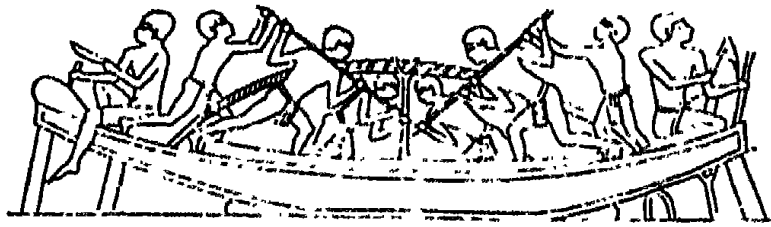
كزى للكهنه فى كل العصور الفرعونية تقريبا - كذلك استخدم الجلد فى الصناعات المختلفة مثل صناعة التروس والجماب وعلب المرايا وفى صناعة أغطية الرأس وفى النعال والأحزمة ، وقد ظلت النقبة المصنوعة من الجلد لباسا للصيادين والرعاة - والجلد كمادة خام كان له تقديره الخاص فى نظر المصرى فاستخدم فى الكتابة ليدل على مدلولات خاصة : فالرمز الذى يصور عنزة بدون رأس أو جلد الحيوان بأكله استعمل فى كلمات كثيرة وبمعانى مختلفة ، كما استخدم الرمز الدال على جزء من جلد الحيوان كمخصص فى كثير من الحالات وقد استعمل الرق الأبيض فى ملفات الكتابة كذلك .

(٤) الأخشاب : لم تعرف مصر الأنواع الجيدة من الأخشاب حتى أن بعض الأنواع المتوسطة كان يحافظ عليها بشدة ، ولعل هذا قد انتقل إلى المعاصرين فى الوقت الحاضر إذ كثيراً ما نجد أن الفلاح يتشامم من قطع بعض الأشجار مثل التوت والجزير . وأهم الأنواع التى كانت شائعة فى مصر هى الجزير والنخيل والدوم والإبل والسنت وكها أنواع غير جيدة - أما الأخشاب الجيدة فكانت تستورد من الخارج مثل الأرز الذى كان يجلب من لبنان ، وكثيرا ما كان المصرى يلجأ إلى محاكاة الخشب الثمين بتغطية الأخشاب المحلية بطبقة من الألوان أو بطبقة من الجص الملون .

وكان النجار وهو من أهم الصناعات فى مصر يستعمل أدوات بسيطة من النحاس أو البرنز يستعمل فى تثبيت أجزائها بسيور من الجلد - وهذه الآلات (رغم بساطتها) أمكن للنجار أن ينتج كثيراً من ورائع فنه وصناعاته الدقيقة

والضخمة فقد تمكن من عمل المراكب والمركبات وأجزاء المنازل والآلات والأسلحة والتوابيت وغيرها .

وبالطبع لم يكن في استطاعة المصري الحصول على ألواح كبيرة عظيمة الطول سواء من بيئته المحلية أو من الأخشاب المستوردة فكان يتحایل على ذلك بلبصق الألواح الصغيرة جنباً إلى جنب، وكثيراً ما كان يزخرف صناعته فيحفر الخشب ويطعمه بالعايج أو بالابنوس أو أن يملأ الحفر بمادة ملونة . وإذا ما تأمانا المراكب المصرية فإننا نجد أنها تنقوس من الطرفين وقد توصل المصري إلى تقويس الخشب بطريقة بسيطة للغاية تتلخص في أنه كان يضع عاموداً اسطوانياً في وسط القارب ينتهى من أعلى بفرعين يثبت بينهما حبل ويوصل طرف كل فرع بطرف القارب المقابل له ثم توضع عصا في الحبل الموصل بين الطرفين ويادارة العصا تضيق المسافة بين الفرعين وبالتالي يشد طرفاهما طرفي القارب نحو الداخل (شكل ١٩).



شكل (١٩) : طريقة بناء السفن

وكان العاج والابنوس من المواد التي كثر استخدامها في صناعة الآلات ولكنها كانا يعتبران من المواد الثمينة وفي المصور المتأخرة وخاصة في العصر اليوناني الروماني كان نوع من الكرتون يستخدم في صناعة الأقنعة التي كانت توضع على وجه المومياء وتزود بعيون صناعية من الأحجار

الثمينة فكانت تحاكي وجه الميت تماما، بعد أن كانت هذه الاثمنة تصنع أولا من قطع من السكتان وتاصق بعضها فوق بعض ثم تغطى هذه بطبقة من الجص .

(٥) الفخار - عرفت خامات الفخار في مصر منذ أقدم العصور وكان لهذه الصناعات أثر بالغ في الحضارة المصرية إذ أن حياة الاستقرار تطالبت أن يقوم الانسان بحفظ حاجياته ، وكان المصري محظوظا في بيئته لأن النيل كان يجلب الطمي في كل عام فصنع منه الاواني اللازمة لحفظ أطعمته، ولا بد أنه في أول الامر كان يصنع تلك الاواني من الطمي دون حرقه، أي أنه لم يعرف الفخار دفعة واحدة - وربما كان الجفاف الذي تتعرض له تلك الاواني سببا في معرفة المصري بأنها تزداد صلابة وتاسكا كلما تعرضت لإرتفاع درجة الحرارة إلى أن توصل إلى أن الحرق يزيد من صلابتها وتاسكها، وما زالت صناعة الفخار حتى الآن تجد سوقا رائجة في البلاد .

ويبدو أن صناعة الفخار في مصر لم تتأثر بمؤثرات خارجية كثيرة في أوائل الامر بل ولم تستخدم آلات لصناعتها إذ لم تكن هذه معروفة بعد ، ومع أنها كانت تصنع باليد فإن الفخار الذي وجد من حضارة البدارى وهو يمثل تلك الصناعة اليدوية يعد من أعظم الاواني التي عرفت في تاريخ مصر بأكمله من حيث الجودة والانتقان . وبعد ذلك عرفت العجلة وكثر إنتاج الفخار فأصبح تجاريا وبدأ يفقد الدرجة الرفيعة التي وصل إليها من قبل في الدقة والانتقان .

وقد نشأت تبعها هذه الصناعة صناعات بسيطة فثلا وجدت قواعد خشبية لهذه الاواني أو كانت تصنع حلقات من الفخار لترتكز عليها،

كما أن تلوين الأواني الفخارية وزخرفتها قد أوجدت مجالا لصناعة فنية فن الأواني ما كان يكتفى فيها برسم خطوط محفورة تجعلها تحاكي السلال ومنها ما كان يلون بألوان تجعلها تحاكي الأواني الحجرية - ومن الأواني الفخارية كذلك ما صنع في هيئة الحيوانات أو في أشكال خيالية ، كما كانت صناعة التزجيج أو القاشاني معروفة منذ فجر التاريخ - وقد نشأت هذه الصناعة في مصر ولكن لا يعرف كيف توصل لها المصري بل ولا تعرف المواد التي بدأ بها المصري هذه الصناعة ، ونجد أمثلة لصناعة الزجاج نفسها في العصور التاريخية - وكان هذا الزجاج ينفخ بأنايب من الفخار يحمى طرفها من الاحتراق غشاء من طمى النيل .

(٦) صهر المعادن - لم يثر على نماذج للكور في الدولة القديمة أو الوسطى ولكنه وجد في الدولة الحديثة ، وقد عرف النحاس والبرنز منذ أقدم العصور - وكانت سيناء هي المورد الذي جاء منه النحاس الذي استخدم بكثرة منذ أقدم العصور ، وكان البرنز أكثر استعمالا منه بالطبع فلصلايته استغل في صناعة كثير من الآلات ، أى أن المصري عرف خلط المعادن منذ أقدم العصور وكان أغلى ما يستخدمه منها هو مزيج من الذهب والفضة بنسبة ٢ : ٣ يعرف باسم الالكترين - وكان الذهب مستعملا في الحلى منذ الدولة القديمة وكانت قيمته كبيرة وبلغ الصانع في صناعته درجة كبيرة من المهارة - ولقيمة هؤلاء الصانع في الأوساط المصرية اعتبر المشرف على الصياغ مشرفا على الفنانين في مصر العليا والسفلى ولقب كذلك بأنه هو الذى يعرف الأسرار في بيوت الذهب - كذلك عرف المصري صناعة الميناء ، أى خيوط الذهب المنظاة بطبقة زجاجية كما عرف التمويه بالذهب ، ومع هذا كانت الفضة أغلى من الذهب وذلك لندرتها

نسبياً مع أنها عرفت قبل الذهب وكان المصري يقسم الذهب إلى أنواع حسب المورد الذي يؤخذ منه : فهناك ذهب مياه وذهب جبال وذهب بلاد النوبة ، وكان غسيل الذهب والعمل في المناجم من أشق الأعمال ولذا كان الأسرى أو العبيد يقومون بها ويشرف عليهم الجنود ورؤساء البعثات - وقد لاقى المعدنون الكثير من الأهوال دون شك وأخطر هذه كانت ندرة المياه في الطرق المؤدية إلى المناجم ، وكثيراً ما كانوا يستنفدون الجزء الأكبر من طاقة الحمل عند الدواب في حمل المياه اللازمة لهم ولذلك نجد وعميسس الثاني يفتخر بأنه نجح في حفر بئر في الصحراء حيث أخفق والده سبتي الأول في مثل هذا العمل ، كذلك بلغ الاهتمام بالذهب أن عملت التخطيطات والرسوم التي تبين مواقع مناجم الذهب فقد عثر على بردية من عهد سبتي الأول رسم بها تخطيط لمواقع مناجم الذهب في وادي مياه ، وتمتد هذه خريطة في العالم .

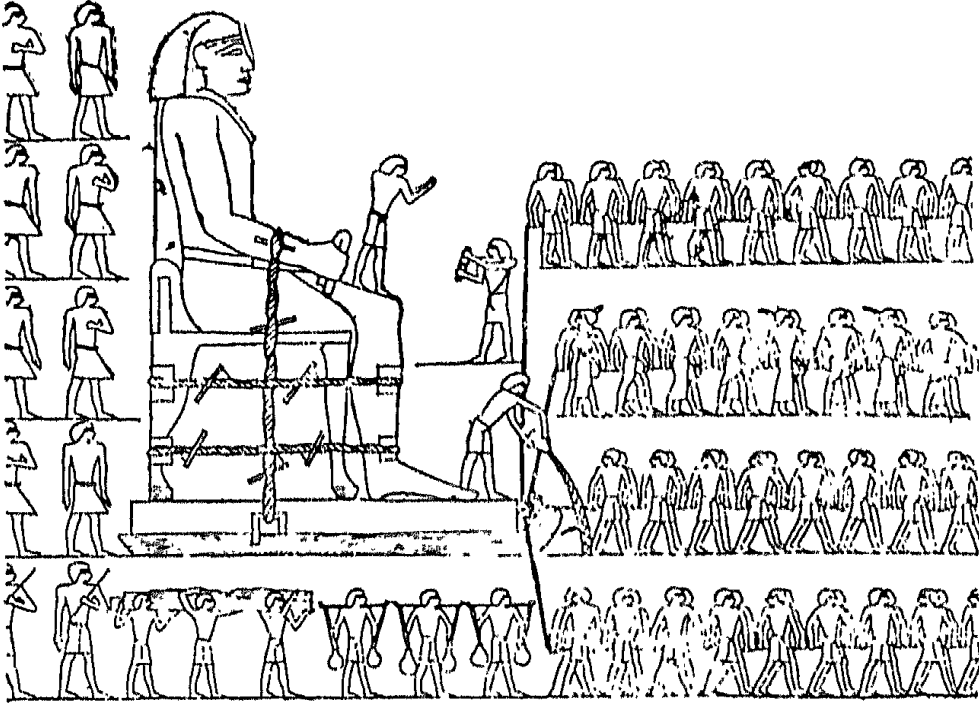
وقد عرف الحديد منذ العصر الباكر ولكنه لم يستعمل في الصناعة إلا في عهد الدولة الحديثة وربما كانت صعوبة الحصول عليه هي السبب التي جعلت استخدامه عسيراً - وقد قصر استعماله على رؤوس السهام وبعض أدوات القتال .

(٧) الأحجار - كانت الأحجار التي استخدمها المصري كثيرة متعددة ، ويعد الحجر الجيري الحجر الخالد في حياة المصري إذ بنيت منه المعابد والمذابح والهياكل المختلفة كما نحتت منه التماثيل وصنعت منه الأواني واللوحات وغيرها - واستخدم الصوان منذ أقدم العصور في صنع الأدوات والأسلحة ، أما المرمر فقد استخدم في البناء وصناعة الأواني واستخدم الحجر

الرملي في البناء، ولشدة صلابته استخدم كذلك في صناعة التماثيل - وكان الجرانيت من الاحجار العظيمة الالهية لانه كان الحجر الفخم الذي زينت به المعابد وعملت منه المسلات والتماثيل والاوانى، وكثيرا ما كان يستخدم في تكسية الجدران في المباني الهامة .

وقد استغلت المحاجر الموجودة في أماكن متعددة من القطر مثل طره وساسلة وحمامات وأسوان وحتتوب - وكان نقل الاحجار من هذه المحاجر يتطلب جهداً وعناية فائقتين، وكان الموظفون المنوط بهم نقل هذه الاحجار يصلون إلى مراتب رفيعة ويعتبرون الاشراف على نقل الاحجار من القاب الشرف الكبيرة التي يعتزون بها - وكانت البعثات المكلفة بنقل الاحجار ضخمة العدد، فثلا نعلم أن بعثة قامت لهذا الغرض في عهد رعمسيس الرابع كانت تتألف من ١١٠ ضابط من مختلف الرتب و ٥٠ من الموظفين المدنيين و ١٣٠ من البنائين و مصوران و ٤ نقاشين و ٣ رؤساء مباني ومشرف على الفنانين و ٥٠٠ جندي عادي و ٢٠٠ جندي من صيادي السمك للبلاط و ٨٠٠ رجل من الفرق المساعدة السورية و ٢٠٠٠ من عبيد المعابد ويراقب سلوك هؤلاء ٥٠ من رجال الشرطة أى أن البعثة كانت حوالى ٨٠٠٠ رجل - وكان الاسرى الاجانب يقومون بعملية النقل وهي عملية شاقة عسيرة وخاصة عند نقل الاحجار الضخمة، وقد وضحتها بعض النقوش وخير مثال لذلك نقش فى إحدى مقابر من الدولة الوسطى يبين كيفية نقل تماثيل تحوت حنب أمير البرشة (شكل ٢٠).

وقد تفنن المصري فى صناعه الأوانى من الحجر واستخدم فى ذلك الاحجار الصافية الجميلة التسكويينات ، وكثيرا ما كان المصري يقوم بتقطع



شكل (٢٠) : منظر في مقبرة بالبرشة
يمثل نقل تمثال ضخم

الاحجار الثمينة ، السكرية ونصف السكرية ، مثل الزمرد والاماتيست
وغيرها من محاجر خاصة .

المواصلات والتجارة :

أشرنا فيما سبق إلى أن النيل هو أهم مظهر في الحياة المصرية فهو
الذي يسهل الاتصال بين أجزاء البلاد المختلفة وقد استخدم المصريون للتنقل
فيه زوارق صغيرة من سيمان البردى تدفعها مرادى ذات شوكتين ،

وهذه الزوارق عبارة عن حزم من البردى شد بعضها إلى بعض توضع في وسطها كتلة من الخشب أو تفرش بالحصير - أما السفن الكبيرة فكانت تصنع من الخشب وتزود بمجاديف ، وقد وجدت صورها منذ أقدم العصور على الأواني الفخارية وعلى جدران إحدى المقابر في هيراكوبوليس من عصر ما قبل الأسرات وكانت تزود بشراع مربع الشكل أو مستطيل يثبت إلى الساري بموارض مستقيمة - وقد تقدمت صناعة السفن واختلفت أشكالها ولكنها كانت على العموم تزود بقمرتين ، وكان ارتفاعها في مؤخرتها كارتفاعها في مقدمتها وذلك لكي يسهل تزويد من يدفعها بالمرادى بسند جيد يدفعها منه أو ليكون كدعامة لتدعيم مكان المجداف الطويل الذي يقوم مكان السكان .

وإذا سألنا خريطة القطر المصري لوجدنا أن النيل يمتد من الجنوب إلى الشمال في اتجاه مستقيم - وكان المصريون يلزمون النهر ، أى أنهم كانوا موزعين على جانبيه باستثناء الدلتا التي كثرت بها المستنقعات فكانت الحركة في النهر من الشمال إلى الجنوب تتطلب استخدام الشراع الذي تدفعه الرياح التجارية الشمالية الشرقية السائدة بينما كان تيار النهر كافياً لدفع السفن من الجنوب إلى الشمال ، وفي هذه الحالة كان من الممكن إناخه الصاري ونزع الموارض التي يثبت بها الشراع ثم يلف الشراع ويطلق .

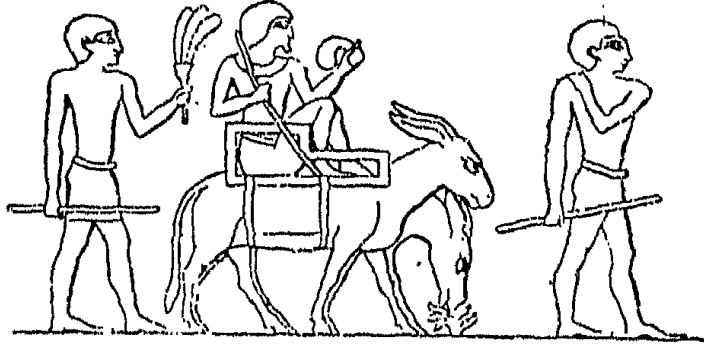
وفي الدولة القديمة كانت السفن تختلف في الأشكال والغرض التي تستعمل من أجله فمنها السفن العريضة وسفن تجر غيرها أو سفن يجرها غيرها - وكان للسفن الفاشرة قررة كبيرة لا يسمح معها بوجود الشراع ، كذلك لم تكن سفن الشحن مزودة بتمرات إذ كان كل فراغ يستغل

فيها للنقولات- وكانت هناك قوارب خفيفة للشحن يديرها ملاح واحد وهي لنقل الأثقال الخفيفة ، وكانت غالبا تتبع سفينة الشريف وحاشيته كقوارب الزاد مثلا - ومن الشائع جر السفن باللبان (الحبل) الذي كان يربط إلى قائم في مقدمة المركب، وكانت مراكب الشحن الكبيرة التي تنقل الأثقال الضخمة لاستعمل الشراع أو المجاديف بل كان يجرها الرجال أو تجرها سفن أخرى ومثل هذه السفن المعدة للنقل كانت تنقل الأحجار في كافة عصور التاريخ .

وقد تطورت السفن في أشكالها تطورا عظيما في عهد الدولتين الوسطى والحديثة وزخرفت بكثير من الزخارف وخاصة سفن الرحلات والحملات البحرية التي تميزت عن سفن النيل في بنائها نظراً لما كانت تتعرض له في أسفارها الطويلة - وقد أشارت بعض الأساطير والقصص إلى ما كان يتعرض له المسافرين في البحر من المخاطر ومن أمثلة ذلك قصة الملاح الغريق .

أما المواصلات البرية : فكانت أقل شأنا من مواصلات النهر وذلك لأنها لم تكن وسيلة مجدية أو اقتصادية في نقل البضائع الكبيرة الحجم و العظيمة الوزن ولهذا ظلت دون تطور يذكر - وقد استخدم الأشراف في تنقلاتهم محفلات هي عبارة عن مقاعد يمكن حملها والشريف جالس فيها ، وكانت تزود أحيانا بمظلة وكثيرا ما نجد أن المحفة كانت توضع فوق حمارين متجاورين (شكل ٢١) ، او يحملها بعض الرجال - وكان الحمار أحسن وسائل النقل الشعبية ، ومع هذا لم يمثل المصري وهو يركب الحمار ولسكننا نشاهد هذا الحيوان في النقوش وهو يتقل الحاصلات الزراعية وما شابهها - ولضخامة الدور الذي يقوم به هذا الحيوان في مصر القديمة قال بعض العلماء أن الحضارة المصرية بأكملها قامت على ظهر الحمار

فهو الذى ساهم بجهوده فى كافة الأعمال التى هيات هذه الحضارة .
وفى الدولة الحديثة أبطلت المحنمة والحمار وإن ظالت المحفة تستخدم فى
الحفلات فقط أو فى مناسبات خاصة ، وقد استعويض عن ذلك باستخدام



شكل (٢١) : نبييل على محنمة يحملها حماران

المركبات - ولم يستعمل الحصان وحده إلا فى بعض الحالات الضرورية
الملمحة لأننا لم نؤثر إلا على أمثلة نادرة لتقوش تصور لإنسانا وهو يركب
الحصان ، وربما كان ذلك فى حالة قهرية كفرار من معركة حربية أو لمهمة
سريعة كطلب نجدة أو غيرها .

ويغلب على الظن أن عربات ضخمة تجرها الثيران كانت تستخدم
لنقل الزاد والامتعة لعمال المناجم ، أما المركبات فكانت غالبا للسفر
والصيد والحرب .

ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن بأن الاتصال كان ميسرا دائما ، ولا يصح
أن نفهم بأن المصرى كان كثير التنقل إذ يبدو أن الرحلات كانت قاصرة
على نطاق ضيق فكان كل إقليم يتصل بجيرانه مباشرة ولسكن إلى جانب

ذلك كان البيت المالك يعمل على تيسير الاتصال بالأقطار المجاورة ويشجع هذا الاتصال كما أن الحاجة الملحة إلى بعض المواد الخام كانت تضطر فئات خاصة من السكان إلى القيام بدور الوسيط التجارى بين البيت المالك وبين الأقطار المجاورة لمصر وخاصة في الجنوب، ومن أمثلة ذلك أمراء اليفانيتين الذين قاموا برحلات مخفوفة بالمخاطر لكي يتبادلوا التجارة مع أهل البلاد الجنوبية وليحصلوا للفراغنة على الحاصلات التي يربحونها ويقدرونها وكان من أثر هذا أن عظم شأن هؤلاء الأمراء وأصبحوا يتمتعون بنفوذ كبير فلم يخضعوا إلا للملك مباشرة، وكانوا يذهبون إلى منف للاستماع إلى أوامر الملك قبل القيام بأية رحلة أى أنهم كانوا يتلقون تعليماتهم منه مباشرة - كذلك كان أرز لبنان من العوامل التي شجعت المصريين على المخاطرة بالذهاب إلى شرق البحر المتوسط، وقد شجع هذا على غزو تلك الأقطار في الدولة الحديثة .

وإذا كنا قد ذكرنا بأن الاتصال لم يكن نشيطا إلا بين الأقاليم المنجاورة وأن المصرى لم يتصل بالأقطار الاجنبية إلا للحصول على سلعها المختلفة، أى أن هذا الاتصال حددته عوامل سياسية واقتصادية مختلفة فإننا من جهة أخرى نرى بأن الاتصال بالرسائل والمكاتبات كان أكثر نشاطا - ويبدو أنه لبعده المسافات وجدت طائفة من الرسل الذين كانوا في خدمة الخاصة من الشعب حيث يشير أحدهم في رده لأحد زملائه بأن غلامه لم يصل بعد، وتشير إحدى المكاتبات إلى أن الغلام اضطر لتخفيف حمله فألقى ببعض الحاجيات أو تخلص منها أى أنه كان هناك اتصال ثابت مستمر ورسول منتظمون - ولاندرى هل كان هؤلاء الرسل

موظفين أو أن مثل هذه الوظيفة لم يكن لها وجود ، وعلى أى حال إذا كانت هذه قد وجدت ضمن وظائف الدولة فإن ذلك لم يحدث إلا في عصر متأخر . وكان الرسل عادة يحملون بعض الهدايا والسلع الخفيفة ولما كانت البيئة المصرية تشابه في معظم جهاتها فإن الفرصة للتبادل التجارى على نطاق واسع لم تكن ميسورة ، وعلى هذا كانت التجارة الداخلية ضعيفة لتشابه الحاصلات بين إقليمي وآخر وليس كما يظن بعض الأثريين بأن صعوبة المواصلات هي التي حالت دون ازدياد النشاط التجارى .

التجارة والتجار :

أخطأ بعض الأثريين ومن بينهم إرمان Eriman في الزعم بعدم وجود ذكر للتجار في النصوص المصرية لأننا نعلم بأن الرحالة في الدولة القديمة كانوا يذهبون إلى النوبة للتبادل التجارى ولا يغير قيامهم بهـذا العمل لحساب الملك من حتمية أنهم كانوا تجاراً ، كذلك تشير قصة الملاح الغريق إلى أنه كان هو الآخر يقوم برحلته للتجارة ، وقصة الفلاح الفصيح تدل هي الأخرى على أنه كان يتاجر في بعض سلع وادى التطرون ، ولا تخرج رحلة بونت التي حدثت في عهد حتشبسوت عن كونها رحلة تجارية قامت بها بعثة ملكية . ولكن رغم هذا لم يكن للتجار كيان واضح في النصوص المصرية .

والغريب أن التبادل التجارى في الأسواق المحلية كان يتم عن طريق المقايضة وقد ظهرت له صور في عهد الدولة القديمة أما في الدولة الوسطى فلم توجد أمثال تلك الصور ، وفي الدولة الحديثة تعود صور المقايضات إلى الظهور ولكنها كانت تحدث في الموانئ الكبيرة بجوار مكان رسو السفن .

ومن الطبيعي أن المقايضة لم تحدث دون الاصطلاح على أساس وحدة للقيمة ، وهذه الوحدة وإن لم تكن موجودة من الناحية العملية فإن الأشياء كانت تقدر بالنسبة لها من الناحية النظرية - وعلى هذا يمكن القول بأن أساس (سعر) المقايضة كان ثابتا ، والوحدة التي شاع استعمالها عرفت باسم « دبن » وهي تساوى ٩١ جراما من النحاس فكان الثور مثلا يقدر بنحو ١٢٠ دبنا والحمار بنحو ٤٠ دبنا أى أنه كان من الممكن مقايضة الثور نظير ثلاثة حمير .

وكانت الحاصلات التي يرغب فيها المصري من الإفطار الأجنبية هي القردة وخشب الأبنوس والعاج وجلود الفهود وهي تأتي من النوبة وهنا نلاحظ أن البفانتين التي كانت تمثل إحدى مدينتي الحدود بين مصر والنوبة كان يطلق عليهما اسم « أبو » أى العاج أما المدينة الثانية فهي « سونت » أى « السوق » وهي أسوان الحالية ومن موارد النوبة الأخرى العبيد والذهب والحيوانات والخشب وريش النعام - وكان المصري يأتي بالنحاس من مناجم سيناء كما يجلب الأحجار من محاجر وادي حمامات والأحجار الثمينة ونصف الكريمة من الصحراء الشرقية ، أما بلاد بونت فكان يأتي منها البخور - ويأتي من البلاد الشمالية مثل لبنان بالأرز والأسلحة ، وكان بدو فلسطين يجلبون الكحل والعطور إلى مصر وكذلك الوعول - ومنذ عهد الدولة الحديثة وردت المنتجات السورية إلى مصر بكثرة كما كانت مصر ترسل الذهب إلى الملوك الموالين لها .

العلوم والآداب

عرف المصري بحبه للعلوم وتقديره لها وكان ينظر إلى مركز العالم أو الكاتب نظرته إلى الشخص المحترم الذي يحكم بنفسه أما من عداه من الطبقات الأخرى فكان يحكمه غيره ، وربما كان هذا التقدير راجعا إلى عظم شأن الكتاب حيث كانوا يرتفعون سريريا ويتقلدون أعظم المناصب وأرفعها - ويقول أحد الكتاب في ذلك أن الرجل المحظوظ هو الذي يضع العلم في قلبه ، وعند مناقشته لمهنة الكتابة فضلها عن كل ما عداها من المهن الأخرى وذكر بأن الكاتب قد يصبح أميرا حكيما - وكان المصري يعتقد بأن الكاتب يصل إلى الإله تحوت الذي بهبه العلم وينير له السبيل ولذا كان الكاتب إذا ما وصل إلى مرحلة حاسمة في حياته يقوم بعمل تمثال لنفسه وهو يكتب أمام تمثال لهذا الإله .

وإذا ما أردنا أن نتعرف السبيل الذي كان يسلكه المصري في التعلم فإننا نلاحظ أن بيوت التعليم أو المدارس كانت في أول الأمر تلحق بالبلاط وكان يتعلم فيها الأمراء والنبلاء ويندمج معهم بعض أفراد عامة الشعب أيضا - أما في الدولة الحديثة فكانت المدارس تلحق بمختلف أقسام الحكومة، وعلى ذلك كال التلاميذ في هذه الأقسام يتمثلون في طائفتين : طائفة الصبية وطائفة المرؤوسين - وقد يغير التلميذ اتجاهه بعد أداء الخدمة العسكرية فمثلا كان «باك أن خنسر» رئيسا للاسطبلات الملكية قبل أن يصبح كبيرا للسكينة أى أنه في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة كان رئيسا للاسطبلات ثم تحول بعد ذلك لدراسة اللاهوت .

وكان النظام المدرسى عنيفا قاسيا والدراسة تفتنى في منتصف النهار تقريبا وكان من المعتاد أن تذهب الام بطعام ولدها إلى المدرسة ، وهو يتألف غالبا من إناجين من الجمعة تحضرها الام من المنزل ، ومن مبادئ التربية في ذلك العهد أن « أذنا الطفل على ظهره لا يسمع إلا إذا قرع عليها » ، ومن هذه المبادئ أيضا أن « الإنسان استطاع أن يستأنس الحيوان ويخضعه فحيوان « كاروى » الذى استقدم من النوبة تعلم فهم اللغة والأسود أمكن تعليمها وترويضها والخيال استقوتست وذلت والصقور تعلمت فلماذا لا يتعلم الكاتب الشاب الصغير بنفس هذه الطريقة ؟ ، أى أن العنف والشددة كانا يستخدمان في التعليم وكثيراً ما نجد في البرديات المختلفة تكراراً للتنبيهات التى يجب على الشباب مراعاتها في مهنته ككاتب ، وفى الكراسات التى عثر عليها والتي كان يكتب فيها التلاميذ نسخت قواعد الحكمة والسلوك من نماذج قديمة وهى فى صورة توجيهات من حكيم قديم أو خطابات من أستاذ إلى تلميذه .

أما الأدوات المستعملة فى الكتابة فكانت عبارة عن أقلام من البوص تبرى أطرافها ، وكان لا بد للكاتب من أقلام احتياطية يضعها خاف أذنه أما الألواح فكانت عبارة عن ألواح من الخشب تغطى بطبقة رقيقة مصقولة من الجص يسهل محو الكتابة منها - ولم يستعمل البردى إلا الكتبة المترنين ، هذا وكان الكتاب يستعملون لوحة بها قدحان صغيران للحبر الأسود والأحمر وبقيّة اللوحة عبارة عن صندوق أنبوبى لوضع الأقلام ويضاف إلى ذلك قدح للماء ، وكان الكاتب المتدين يصب بعض هذا الماء كقربان للإله تحوت قبل البدء فى الكتابة .

وكان التلاميذ يهتمون اهتماما بالغاً بحراساتهم وكانت تدفن معهم وقد احترم المصري الكتابة وقدسها واعتبرها أساس كل تعليم وثقافة وأنها من اختراع الإله تحوت الذى علما للمصريين .

وكانت الكتابة فى بداية أمرها تصويرية بحتة ، أى أن المصرى كان يعبر عن الأشياء المرئية بصورتها ، ولهذا كان من الصعب التعبير عن الأشياء غير المرئية أو عن الأفعال والحروف والظروف - ثم أمكن التعبير عن المعنى المراد برسم الرمز الذى ينفق فى النطاق مع المعنى المقصود مع إضافة عنصر يبين نوع المعنى المراد - وتلى ذلك تطور آخر هو استعمال الرمز كجزء من الكلمة وبذلك ظهرت الكتابة المقطعية ، وهذا يدل على أن الكتابة بدأت تتخذ شكلاً يقرب من الكمال حيث توصلوا من هذه الخطوة إلى اختراع الهجائية - ومع ذلك لم يستعمل المصريون الهجائية وحدها بل كانوا يكتبون بالرموز فى كل وظائفها السابقة ، بل وكان شكل الكتابة نفسها يختلف على حسب الحاجة وعلى حسب المادة التى كتبت عليها فكانت الهيروغليفية - وهى أول صورة للكتابة - تكتب على جدران المعابد والمقابر وفى اللوحات أى أنها كانت كتابة زخرفية وتتفق مع طابع الفن المصرى القديم الذى ظل مرتبطاً بها حتى نهاية العصور الفرعونية فكانت أشكال الأشخاص والمخلوقات الأخرى يعبر عنها فى النقوش والنماثيل بصورة مماثلة لما تظهر به فى هذه الكتابة .

ومنذ الدولة القديمة وجد المصرى أن كتابة الهيروغليفية تستغرق وقتاً وجهداً كبيرين كما أنها تشغل حيزاً لا يستهان به فاجأ إلى استعمال كتابة مختصرة ، أى أنه اختصر الرموز الهيروغليفية إلى أشكال أكثر بساطة ليوفر

الجهد والمساحة اللازمين واستعملت هذه الكتابة الجديدة المختصرة في كتابة الأدبيات وفي الدواوين وفي المعاملات وما أشبه ذلك ، وتعرف هذه باسم الهيراطيقية - ولما تعقدت مطالب الحياة وانتشرت المعاملات التجارية وغيرها وازدهرت الحضارة وتطورت في عهد الدولة الحديثة وما بعدها ظهرت كتابة أخرى مختصرة عن الهيراطيقية وهي شديدة الاختزال ، استعملها العامة في معاملاتهم وكتبت بها بعض البرديات القانونية والأدبية ، وهذه هي الكتابة الديوطيقية التي ظهرت على الأرجح في بداية العصر المتأخر من مصر الفرعونية - وفي نفس الوقت تقريبا أو بعده بقليل استعمل المصري كتابة جديدة أخرى هي الكتابة القبطية ، وربما كان ذلك للرغبة في التيسير على الجنود المرتزقة اليونانيين الذين وفدوا بكثرة على البلاد ، فقد كتبت هذه الكتابة بحروف يونانية مع إضافة سبعة أحرف لاستكمال الهجائية اليونانية بما يفي بنطاق سائر الأصوات السامية - وبالطبع يعتبر إطلاق لفظ اللغة القبطية على هذه الكتابة تجاوزا ، فهي لغة مصرية كتبت بحروف يونانية وحروف أخرى أضيفت إليها مع إدخال بعض ألفاظ قليلة من اليونانية .

وعلى إثر ظهور الكتابة تقدمت العلوم والفنون بالطبع وظهرت النظريات الفلسفية العميقة في اللاهوت وفي الديانة ، كما أن من المرجح أن الكتابة ساعدت أيضا على اختراع التقويم وإن كان من المحتمل جداً بأن المصري قد توصل إلى تقسيم السنة إلى فصول قبل معرفته للكتابة ولكنه لم يضع الاسس الثابتة لهذا التقسيم إلا بعد أن عرفها - وكانت السنة المصرية تبدأ في التاسع عشر من شهر يوليو أي أن هذا اليوم

كان يمثل رأس السنة بالنسبة للمصريين وقد عرف هذا بحلول الفيضان في مثل هذا الموعد من كل عام وهو ما كان يتفق كثيرا مع ظهور نجم الشعرى اليمانية الذى يعاود ظهوره كل ٣٦٥ يوما، فقسم المصرى السنة إلى اثني عشر شهرا كل منها ثلاثين يوما وأضاف إليها في النهاية خمسة أيام أطلق عليها اسم الشهر الصغير، كما قسم السنة إلى ثلاثة فصول هي فصل الفيضان وفصل الزرع وفصل الحصاد (أو الجفاف)، وقسم اليوم إلى ساعات الليل وساعات النهار - وتوصل إلى معرفة ساعات النهار بقياس الظل على سطوح مستوية أى عرف ما يشبه المزولة، كما وجدت لديه ساعات مائية لقياس الزمن في الليل غالبا، وهذه كانت عبارة عن أواني مملوءة بالماء الذى ينظم تصريفه منها بحيث تفرغ محتويات الإناء في اثنتي عشرة ساعة - كذلك قسم الليل إلى اثنتي عشرة ساعة ورصد الكواكب التى تظهر في تلك الساعات وسمى بعض النجوم بأسمائها أو على العكس سمي الساعات بأسماء النجوم التى تظهر فيها . وقد اعتقد المصرى بوجود أيام سعيدة وأخرى منحوسة وأشار إلى ذلك كثيرا في النصوص، كما أنه كان يعتقد بأن من يولد في أيام معينة يصاب بأمراض معينة وهكذا لجأ إلى السحر واعتقد في قوته ونفعه، وكان من أثر هذا أيضا أن اختلط السحر بالطب فلم يخل الطب من السحر في معظم الأحيان حتى أصبح في واقع الأمر مزيجا من التعاويذ والطب العملى .

وقد وردت لنا أسماء بعض مشاهير الأطباء ولكن إذا ما تأملنا وظائف هؤلاء نجد أنهم كانوا يجمعون بين البيطريين والبشريين والسحرية في نفس الوقت، ومع كل كان الطب يسير على أساس سليم لأن المصرى اهتم كل الاهتمام بتشخيص المرض حيث كان يرى أن العلاج الناجح لا يمكن، ومنه إلا بمعرفة الداء تماما - وقد وصل إلى درجة رفيعة في علم التشريح وربما كانت معرفته للتخيط

السبب في نجاحه الذي أحرزه في هذا المضمار - أما العقاقير فكانت في غالبيتها نباتية والقليل منها من أصل حيواني، وكثيراً ما نجد من بين هذه العقاقير ما تعافه النفس وتشمئز منه ولا ندرى سبباً لاختيار المواد التي كانت تركب منها العقاقير وربما كان معظم هذا الاختيار مبني على على أصل خرافي إذ كثيراً ما نجد أن من بين هذه المواد ما لا يمكن أن نتخيل استعماله لبشاعته .

أما في الرياضيات فقد وصل المصري إلى نتائج عظيمة في المقاييس والمساحة والحساب وإن كان قد توصل إلى هذه النتائج بطريقة ساذجة فمثلاً في عماليات الضرب والقسمة كان يسير خطوة خطوة بطريقة بدائية فمثلاً عند ضرب 8×5 يصل إلى النتيجة باحتساب تكرار العدد ثمانية من مرة واحدة إلى خمس مرات .

أما في حالة القسمة فإنه كان يتساءل عن المقدار الذي إذا ضرب في المقسوم عليه ينتج العدد المقسوم ، أي أنهم يصلون إلى خارج القسمة بضرب المقسوم عليه في أعداد صغيرة محاولين الوصول إلى خارج القسمة من جمع الأرقام الصغيرة التي تقابل في المجموع العدد المقسوم .

أما في الأدب فإن من الممكن القول بأن الكثير من أدبنا الشعبي الحديث يرجع في أصله إلى الأدب المصري القديم، وكثيراً ما نجد أن التشابه شديد بين قصصنا الشعبي الحديث وبين القصص في الدولة الوسطى فمثلاً قصة الملاح الفريق التي تذكر بأن ملاحاً كان راحلاً في بعثة تجارية كسر قاربه وتملق بقطعة من الخشب ووصل إلى جزيرة خالية من السكان كانت تسكنها حية ضخمة حملته إلى المكان الذي تعيش فيه - وقد ذكر بأن

هذه الحية كانت إلهة الجزيرة وقد أخبرته بأنها هي الأخرى قد نجت وحدها من شهاب سقط على الجزيرة فأحرق كل أقاربها وإخوتها ، ويسترسل في قصته فيذكر بأنه عاش فترة على هذه الجزيرة الى أن جاء قارب حمله الى مصر وهو يحمل بهدايا كثيرة من الجزيرة - وبعد أن صعد الى القارب الذى أخذه الى مصر اختفت الجزيرة ، فهذه القصة اذن تشبه إحدى قصص السندباد البحرى - ومن القصص فى الأدب المصرى القديم ما يشير الى سوء الحالة السياسية فى بعض الاوقات أو الى حدوث بعض أحداث تاريخية هامة مثل قصة الفلاح الفصيح التى تبين كيف أن بعض الحكام كانوا طغاة مستبدين وأن بعض الأسراء والملوك أنفسهم كانوا يميلون الى الأدب الجيد حتى أنهم تمددوا لإهمال هذا الفلاح ليشكروا من شكواه فيتمتعوا بسماع الجيد من الكلام ، وبعد هذا جازاه الملك وأكرمه ورد اليه حقوقه - وتشير قصة سنوحى الى فراره من مصر ولكنها لا تبين السبب الذى من أجله ترك البلاد، إلا أنه يبدو من سياق القصة بأنه كان من عنصر مناوى لسنوسرت الأول حينما كان ولياً للعهد فلما تولى هذا على العرش خشى سنوحى على نفسه وفر الى فلسطين - ويبين ذلك مقدار ما كان يحدث فى البلاط من مؤامرات ودهائن ، كما أن لإكرام بدو فلسطين لسنوحى يدل على أن البدو كانوا يكونون الاحترام للمصريين - وفى الدولة الحديثة نجد بعض القصص التى يظهر فيها الخيال بشكل واضح ويعكس صورة من أحداث التاريخ فى العصور القديمة ، فمثلاً قصة خوفو والساحر ددى التى تشير الى أن ملوكاً من سلالة رع سيعتلون العرش بعد أن يحكم خوفو وولده وحفيده ، وهذه القصة تدل على أن الملك قد انتقل من الأسرة الرابعة الى ملوك الأسرة الخامسة الذين كانوا من أصل ينتمى الى الإله رع أو من السكينة - ومن بين القصص المشهورة

أيضا قصة الأمير ذو المصير المحتوم التي تذكر بأن ملكا كان لاينجب أبناء فطلب إلى الآلهة أن تمنحه ولدا فاستجابت هذه لدعائه ولكن كان مقدرأ لهذا الأمير أن يموت بلدغة ثعبان أو يأكله تمساح أو يقضى عليه كلب وتبين القصة كيف أنه نجى من التمساح ولكن القصة مع الأسف لم تكمل فلا ندرى هل لدغه ثعبان أو قضى عليه كلب - وفي قصة أخرى يتمثل إخلاص شقيق لشقيقه وإفساد زوجة الشقيق الأكبر للعلاقة بين الشقيقين وهذه القصة المعروفة بقصة الأخوين وهي قصة من النوع الخرافي العميق ربما كانت قد تأثرت بقصة أوزوريس .

ولم يتناول الأدب المصرى القصص والأساطير فحسب وإنما نجد فيه الكثير من المتنوعات فففيه النقد وفيه الحكم وفيه الاغانى والانشيد الدينية وغير الدينية وأنشيد النصر والملاحم وأغانى الشراب والحب وغير ذلك .

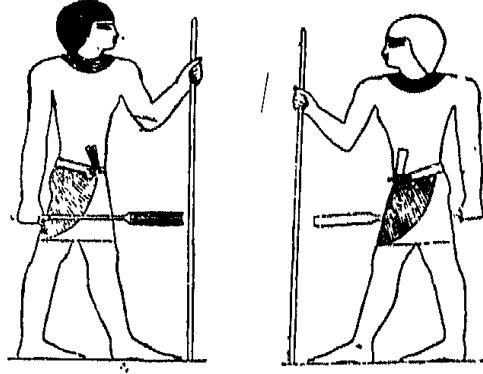
الفنون

وإذا ما تحدثنا عن الفن عند المصرى القديم فإن أبرز الفنون التي أبدعها تتمثل في الرسم والنقش والتصوير والنحت . وهذه كلها خضعت لقانون الاتجاهات المستقيمة التي سبقت الإشارة إليه عند الحديث في المقدمة عن أثر البيئة المصرية .

هذا وقد خضع الفن المصرى في هذه الأمور إلى أصول وقواعد لم يحد عنها إلا قليلا طوال عصوره الفرعونية - ومهما قيل عن اختلاف المدارس الفنية في مصر فإننا نلاحظ أنها جميعا خضعت لتلك القواعد والتقاليد المرعية ، ففي النقش والرسم والتصوير نجد أن صور الانسان

تتميز بانها تجعل الرأس ينظر من الجانب والكتفين من الامام أما بقية أجزاء الجسم فتتنظر من الجانب كذلك. (أنظر أشكال الأشخاص التي وردت في هذا الكتاب).

وفي المآظر التي تركها الفنان المصرى أخطاء كثيرة يبدو أنه تعمدتها محافظة منه على التقاليد الموروثة أو لغرض دينى خاص إذ نجد أن الوجه وإن كان يرسم من الجانب فإن العين ترسم من الامام ، كذلك كان الكتفان يرسمان من الامام بينما يرسم الصدر من الجانب - أما الأيدي فتترسم بعرضها الكامل من سطحها الخارجى فتبدو فى أمثلة كثيرة وكأن الكتفين يمثلان كف اليد اليمنى أو اليسرى فقط . كذلك نجد أن الاقدام ترسم من الجانب بحيث يظهر لإبهام أصابع القدم فى كل منها دون بقية الأصابع فكان للشخص قدمان أيسران أو أيمنان مع أن الفنان كثيرا ما كان ينجح فى بيان اختلاف الساقين - ومن القواعد التي اتبها الفنان المصرى كذلك أنه كان يرسم الشخص الذى يمد ساقه اليسرى إلى الامام مثلا بحيث تظهر ذراعه اليسرى ممتدة كذلك وعلى العكس إذا ما أريد تمثيل شخص ممد ساقه اليمنى فإنه يمد الذراع اليمنى معها أيضا (أنظر شكل ١١) وهذا الوضع غير الطبيعى الذى يتنافى مع الحركة الانسانية قصد منه الفنان بالطبع أن يبرز أعضاء الجسم واضحة - وقد اعتاد المصرى كذلك أن يمثل الأشخاص وهم يتجهون إلى اليمين أى أن القدم اليسرى والذراع اليسرى إلى الامام فاذا ما اضطرت الظروف إلى رسم شخص يتجه إلى اليسار فإنه يقع فى بعض الارتباك الفنية كأن يقلب جانب الأزار الذى يلبسه الشخص أو أن يجعل اليد اليمنى تقبض على العصا الطويلة بينما تقبض اليد اليسرى على العصا القصيرة (شكل ٢٢) ، كذلك كان



شكل (٢٢) : يبين خطأ الفنان (إلى اليمين) عند خروجه
على الوضع التقليدى للرسم

الفنان يحرص على إبراز الاشكال من أخص مظاهرها المميزة وبذلك كان الشكل الواحد فى الصورة يرسم بحيث يبدو وكأنه أخذ من جهات نظر مختلفة لا كما تقتضى قواعد الرسم المنظور - فرائد الفنان فى هذا أن تكون الصورة واضحة تعطى فكرة تامة عن الشكل المراد رسمه ، أى يرسم الشخص كما قلنا ورأسه من الجانب والكتفين من الامام وهكذا - وإذا أريد رسم سمكة فإنها ترسم وكأنها واقفة على جانبها ، كما أن الفنان كان يعتنى بتنظيم أجزاء مناظره ومفرداتها بحيث يرى كل شكل من الاشكال وكأنه مستقل عن غيره فلا يخفى أحد تلك الاشكال شكلا آخر أو جزءا كبيرا منه . وإذا ما أريد ترتيب عدد من المناظر فإنها كانت تنظم فى صفوف متتالية بعضها فوق بعض وتفصلها خطوط مستقيمة سميكة يمثل كل منها مستوى الأرض - ورغم أن المصرى لم يتقيد فى صورته ونقوشه بقواعد المنظور إلا أنه بلغ الذروة فى طريقتة الخاصة وأن الفنان رغم إدراكه بوضع الاشياء مما يجعل بعضها يخفى ما وراءه

كما أن الأشياء البعيدة تبدو أصغر حجماً إلا أنه راعى في نقوشه وصوره أن يمثل الأشياء على حقيقتها وعلى أوضح ما تكون دون اعتبار لما يظهر أو يخفى منها لعين الراى وربما كان مرجع هذا إلى اهتمام المصرى بمقيدة البعث وبأن تلك الأشياء المرسومة تتحول إلى أشياء حقيقية عند تلاوة التعاويذ أو عند البعث ولذلك حتمت التقاليد أن تكون هذه الصور أقرب إلى أصلها الحقيقى ، فإذا أراد المصرى أن يرسم مثلاً مائدة قرابين وعليها بعض المأكولات فإنه كان يمثل تلك المأكولات كاملة على المائدة ، وإذا ما كانت بما يوضع فى أوانى فإن الآنية كانت ترسم بحيث تظهر محتوياتها فوقها أو فى داخلها دون مراعاة لعدم شفافية الإناء ودون مراعاة لقواعد الرسم - كذلك كان من الأصول المرعية أن يكون أهم الأشكال فى المنظر أكبرها حجماً ويمثل هذا بصفة خاصة فى رسوم الأفراد إذ كان الشخص المهم يبين فى حجم أكبر ممن عداه من أشخاص آخرين فى نفس المنظر كصورة الملك أو النبيل مع أفراد عائلته أو بعض رجال حاشيته (شكل ٢٣)

وقد تنوعت موضوعات النقوش والرسوم وتناوت أغراضها شتى فرسم المصرى كل ما تمثله فى حياته وكان لكل عصر طراز فنى خاص رغم أن الفنانين التزموا قواعد الفن التى سبقت الإشارة إليها فى كل العصور . وكانت طريقة العمل فى النقش تماثل ذلك إلى حد كبير فى الرسوم كانوا يبدأون برسم الأشكال بتفاصيلها ثم يلوونها بالألوان المختلفة ولكن النقش كان يتميز عن الرسم بمرحلة متوسطة إذ كانت الأشكال المرسومة تحفر غائراً أو بارزاً قبل تلوينها أى أن النقش كان



شكل (٢٣) : منظر يمثل أحد النبلاء وحوله الأشخاص أصغر حجماً

على نوعين النقش البارز وهو الذى تزال فيه الاجزاء الخلفية أو المحيطة بالرسم بحيث تبرز الاشكال عن السطح الخلفى بضعة مليمترات ، والنقش الغائر الذى كان يكتفى فيه بحفر السطح الداخلى للشكل ونحته بتفاصيله . ولا يختلف الغرض الذى ترخاه المصرى من التماثيل عن الغرض من الصور والنقوش فكلاهما كان يهدف إلى أن تنقلب هذه التماثيل وتلك الصور إلى أشكال حتمية عند البعث - وعلى ذلك حرص الفنان على أن يجعل منها صوراً صادقة لما تماشاها حتى أنه لجأ الى توضيح عيون التماثيل والنقوش بحيث تحاكي الطبيعة ، فبياض العين كان من حجر أبيض (مرو أو مرمر) والقرنية من حجر البلور الشفاف وفى وسطه تحفر

بؤرة صغيرة تملأ بهادة سوداء لتمثيل انسان العين ولم تختلف التماثيل عن النقوش في خضوعها لقانون الاتجاهات المستقيمة ، أى أن التماثيل والنقوش المصرية كانت تعوزها الحركة بينما كانت التماثيل اليونانية كأنها صور أخذت من فيلم سينمائي ورغم هذا فإن المتأمل في كلا الفنانين المصرى واليونانى يجد أن الأول يشعر الانسان بالوقار والعظمة والخلود أما الثانى فيشعر الانسان بالحياة كما هى - ويمكن تلخيص هذا فى أن الفنان المصرى أراد تمثيل الحياة كما ينبغى أن تكون بينما أراد الفنان اليونانى أن يصور الحياة الطبيعية كما هى .

ولا شك أن الفنان فى مصر لم يصل إلى غاية فنه دفعة واحدة أى أن صناعته للتماثيل مثلاً لم تكتمل منذ بداية العصور ، فالمحاولات الأولى تبين أن الفنان حتى عصر الأسرة الأولى لم يستطع أن يصور إنساناً خاصاً بل صور مجرد إنسان يمكن تمييزه عن الكائنات الأخرى ، وفى عصر الأسرة الثانية تقدمت صناعة التماثيل ولكن إذا ما نظرنا إلى أى تمثال منها فإننا نجد أن المادة المصنوع منها التمثال ، تسترعى انتباهنا أكثر من الانتباه الذى نوجهه إلى الانسان المصنوع له التمثال ، أى أن المادة نفسها التى صنع منها التمثال كانت تتغلب على الفكرة - وفى آخر عهد هذه الأسرة قربت الفكرة أكثر من ذى قبل أى بدأ التمثال يسترعى انتباهنا كمثل لشخص معين - ومنذ ذلك الحين ارتقت صناعة التماثيل واكتملت الاصول الفنية ولكن كان لكل عصر مميزات الخاصة كما سبقنا الإشارة إلى ذلك - فإذا ما أخذنا تماثيل الملوك فإننا نجدها فى الدولة القديمة تتميز بالوقار والعظمة وتشعر الرأى بأنه أمام قطعة تمثل شخصية لها

بجدها، أما تماثيل الدولة الوسطى فنتبين فيها دلائل الصرامة والقوة ومضاء العزيمة وكان الجزء الأسفل منها لا يعتنى به عناية تامة وخاصة في أوائل ذلك العهد ، أما تماثيل الدولة الحديثة فتمتاز بالرشاقة وإبراز تقاطيع الجسم في شيء من الليونة كما تمتاز باستطالة الوجه - ومما تجدر ملاحظته كذلك أن نسبة الرأس إلى الجسم كانت تختلف فهي في الدولة القديمة ١ - ٩ وفي الوسطى ١ - ٨ وفي الحديثة ١ - ٧ تقريبا ، كذلك من الممكن الإشارة إلى بعض المميزات العامة التي تبين الاختلافات بين تماثيل كل عصر عن تماثيل العصور الأخرى - ففي الدولة القديمة امتازت التماثيل باستقامة الخطوط وكان التمثال الواقف تمثل يدها مستقرة على الجانبين أما في التماثيل الجالسة فكانت إحدى اليدين تستقران على الصدر والأخرى على الركبة ثم أصبحت اليدين تستقران على الركبتين منذ عهد خفرع - أما تماثيل الدولة الوسطى فأهم ما يميزها ضخامة الجزء الأسفل وعدم مطابقته للواقع وخشونة المظهر وعدم تناسق الأعضاء تناسقا تاما أما تماثيل الدولة الحديثة فقد امتازت برشاقتها كما سبقت الإشارة ورقبة التمثال في الدولة الوسطى عادة أكبر منها في تماثيل الدولة القديمة والرأس أكبر وقتها أقل تسطحا ، كذلك يمكن ملاحظة بعض مميزات خاصة في زى التماثيل وطريقة تصنيف الشعر وغير ذلك مما يلاحظ المتخصصون .

وإذا ما تحدثنا عن الفن يجب ألا يفوتنا ذكر ما وصل إليه المصري في فن المعمار حيث ارتبطت به الفنون السابقة ارتباطا وثيقا - ومن المعروف أن المادة الطبيعية كانت في أول الأمر تتمثل في سيقان البردى وطمي النيل ، وقد بدأ البناء أولا بشكل دروة بسيطة من البردى أو البوص

أوما شاكلها من المواد الخفيفة ثم استعمل الطمي في هيئة كتل غير منتظمة، وكان مما يساعد على تدعيم هذه الكتلة واستقامتها حزم من البردى تثبت إلى الجدران وتحدد أشكالها وكان المصري في أول عهده بالبناء يضطر إلى جعل قواعد الجدران التي يبنها بالطمي أضخم وأسمك من أطرافها العليا ويدعم أركانها بحزم البردى أو بقوائم خشبية مستديرة وكذلك يقوى الاطراف العليا للجدران بمثل هذه القوائم لتتحمل ثقل السقف، وعلى ذلك يمكن أن نتصور بأن الجدران كانت تميل إلى الداخل وقد ظل هذا الشكل يحافظ عليه حتى بعد اختراع اللبن الذي كان يصنع عادة من الطمي المخروط ببعض التبن وأحجامه في معظم الأحيان هي $١٢ \times ١٨ \times ٢٨$ سنتيمترا ولما بدأ الإنسان يستعمل الحجر لم يتخل عن محاكاة المباني القديمة في الشكل والهيئة العامة لاذ كثيراً ما كانت جدران المقابر والمعابد تميل إلى الداخل كما مثل شكل حزم البردى في أركان هذه المباني ومثل اسطوانات الخشب كذلك في السقف . ولم يستعمل الإنسان الحجر في بناء المنازل فيما عدا الاجزاء المحيطة بالأبواب والنوافذ أى أن إطارات هذه صنعت من الحجر بينما كانت بقية المنزل من اللبن .

وقد استعمل الحجر في المباني الجنزية وفي المعابد لأنها كانت هي المباني الخالدة في نظر المصري القديم . فإذا ما أخذنا المقابر فإننا نجد أنها كانت في أول الأمر عبارة عن حفرة يوضع فيها الميت ثم تمال عليه الرمال ، ثم أمكن تسقيف المقبرة بالبوص وبعدئذ استعمل الخشب في هذا التسقيف وكتيافة لذلك ولاختراع اللبن أصبحت المقبرة مستطيلة الشكل، وابتداء من أواخر عصر ما قبل الأسرات عمق الجزء المحفور في باطن الأرض وقسم إلى عدة

حجرات بنى فوقها بناء مستطيل مائل الجوانب من اللبن يشبه المصطبة جدرانته تشبه جدران الحصون ذات المداخل والمخارج ثم فى عهد الأسرة الثانية خلت الجدران من هذه الفجوات إلا من فجوتين فى الناحية الشرقية والجنوبية من هاتين الفجوتين كانت أكبرهما وفيها كانت توضع لوحة جنازية ومع أن الحجر استعمل فى بناء بعض أجزاء أو تبليط بعض حجرات من المقابر فى نطاق ضيق جداً فى عهد الأسرتين الأولى والثانية إلا أن بناء مقبرة بأكملها من الحجر لم يتم إلا فى عهد الأسرة الثالثة ، وأول المقابر الملكية التى بنيت من الحجر هى هرم زوسر المدرج ، ثم أصبح من المعتاد أن يتخذ الملوك أهراماً كمقابر لهم ، أما الأفراد فتدبّنوا مصاطب حجرية ونحت أمراء الأقاليم فى عهد الإقطاع الأول مقابرهم فى الصخور وبنوا بعض أجزاء منها بالحجر وفى عهد الدولة الوسطى بنى الملوك أهراماً صغيرة الحجم من اللبن ، أما فى الدولة الحديثة فقد نحتت المقابر فى الصخور لإخفائها عن العيون خشية السرقة .

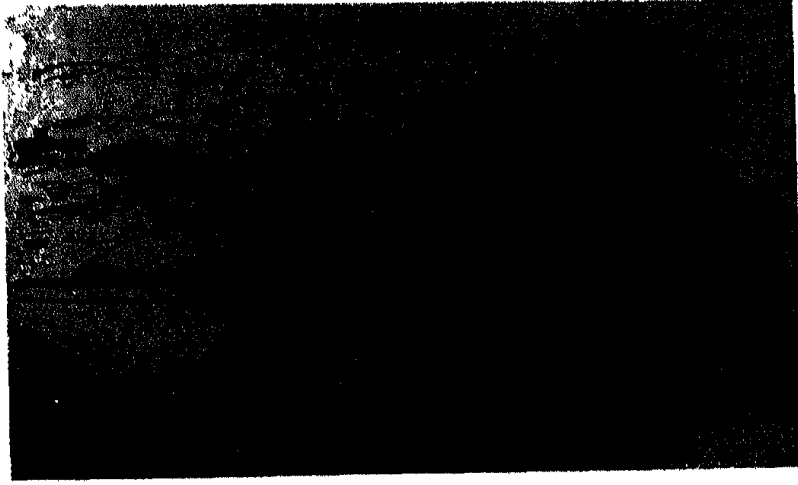
ولما كان من المعتاد فى الدولة القديمة أن تلحق بالآهرام معابد جنزية (شكل ٢٤) ، وكذلك كان الحال فى الدولة الوسطى فإن ملوك الدولة الحديثة استعاضوا عن ذلك ببناء معابدهم الجنزية فى أماكن منفصلة بعيدة عن مقابرهم .

أما معابد الآلهة فكانت فى أول الأمر عبارة عن تعريشة أو دروة من البوص أمامها العلم الخاص بالمعبد ، ولانعرف على وجه التحديد شكل هذه المعابد فى الأسرتين الأولى والثانية وأغلب الظن أنها بنيت من اللبن كذلك - وأقدم ما وصلنا من المعابد هى المعابد المعروفة باسم معابد الشمس



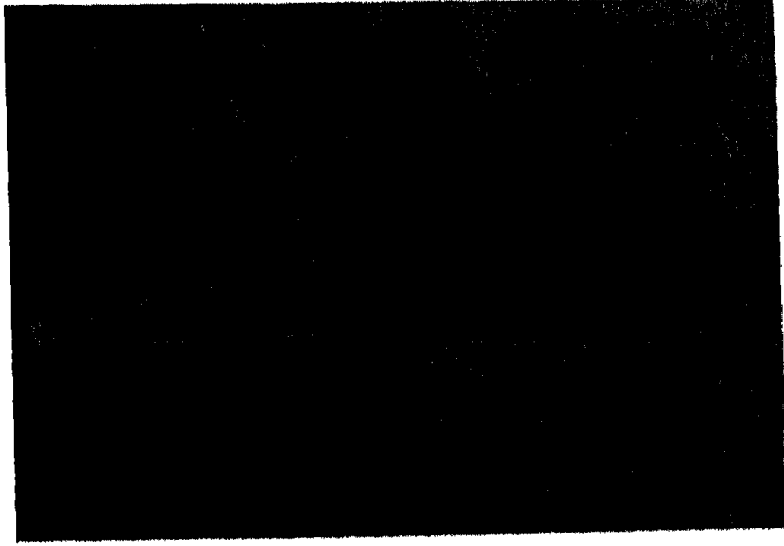
شكل (٢٤) : منظر هرمى خفرع ومنقرع .
أمامهما مما يدهما الجزئية

وتتمثل فى بناء على حافة النيل أشبه بهكان الاستقبال يخرج منه طريق
صاعد إلى المصنبة وهذا الطريق مسقوف إلا من فتحة ضيقة تمتد بطول
السقف، وفى وسطه، وهذا الطريق ينتهى إلى المعبود بالمعنى الصحيح ويبدأ
بمدخل ثم حجرة للبواب أو حجرتين وهو صغير يتفرع منه فرعان
أحدهما يتجه إلى اليمين حيث المخازن والحجرات الخاصة بالسكينة والآخر
يتجه إلى اليسار وهو عبارة عن دهليز طويل مظلم ينتهى إلى سلم يصعد داخل
قاعدة ضخمة تقوم عليها المسلة التى تقع فى فناء مكشوف، وأمام المسلة
مائدة ضخمة للقرايين وبجارى طويلة تنتهى إلى أوانى تتجمع فيها دماء



شكل (٢٥ أ) : معبد الشمس

القرابين التي تقدم لإله الشمس ، كذلك توجد مجموعة أخرى من المجرى أصغر عدداً من السابقة في الجانب الآخر من قاعدة المسلة المقابل للجانب الذي به بداية السلم وهذه المجموعة تنتهي بدورها إلى مجموعة من الأواني (شكل ٢٥ أ) . أما معابد الدولة الوسطى فكانت تشبه الشرفة المرتفعة أو المنصة التي تحيطها جدران قليلة الارتفاع بينما تتخلل هذه الجدران أعمدة مربعة مرتفعة يقوم عليها السقف ، ويؤدي إلى المنصة سلبان في جانبيين متقابلين كما يتوسطها مذبح كبير الحجم (شكل ٢٥ ب) ، أما معابد الدولة الحديثة فكانت لا تخرج في تصميمها عن بوابة ضخمة تؤدي إلى فناء مكشوف إلا من جوانبه حيث توجد بوائك مسقوفة ، وهذا الفناء يؤدي إلى صالة للأعمدة تنتهي إلى قدس الاقداس أو الهيكل - ويلاحظ أن البوابة والفناء وسائر أجزاء المعبد كلها تقع على محور مستقيم ، كما أن



شكل (٢٥ ب) معبد من الدولة الوسطى

البوابة يحيط بجانبها برجان عظيمان يواجههما تجاويرف أعدت لوضع ساريات الاعلام وتثبيتها وقد يسبق البوابة أحيانا طريق للكباش كما أن بعض المسلات توضع أمام المعبد وفي بعض أفنيته - وبما تجدر ملاحظته هنا أن التأشير على المتعبدين في معابد الدولة القديمة يأتي على أثر المسير في الطريق الصاعد شبه المظلم ثم الدخول في الممر الطويل المظلم وبعد ذلك يفاجأ المتعبد بسطوع الشمس على قمة المسلة أو بالخروج إلى النور التام في وضوح النهار ، أما في معابد الدولة الحديثة فإننا نلاحظ أن التأشير يتم بدخول المتعبد من البوابة إلى الفناء المكشوف ثم صالة الأعمدة ثم قدس الأقداس الذي يكاد يكون مظلمًا إظلامًا تامًا بما يوحى بالرهبة في النفس .

وإذا ما تحدثنا عن المسلات فإننا نجد أنها عبارة عن كتلة ضخمة

من الحجر تميل جوانبها تدريجياً إلى قرب نهايتها حيث نجد قبة مديبة
تميل يزاوية ٦٠°م تقريباً، وكانت المسلة عادة توضع على قواعد مكعبة
من درجة أو درجتين والشائع أنها كانت توضع في أزواج أمام مداخل
المعابد ولكن وجدت كذلك مسلات صغيرة في مقابر الدولة القديمة
وأقدم مسلة لمعبد مازالت قائمة في موضعها هي تلك التي أقامها سنوسرت
الأول في هليوبوليس وارتفاعها ٦٨ قدماً ، وكانت أمام معبد الأقصر
مسلتان إحداهما ما زالت في مكانها والأخرى نقلت إلى باريس سنة ١٨٣١،
وتوجد بعض المسلات الأخرى في مصر ومن أمثلة ذلك مسلة لتحتمس
الأول ومسلة لحثشبسوت وكلاهما بالكرنك- وقد أعجب الرومان بالمسلات
المصرية ونقلوا كثيراً منها حتى أن روما وحدها بها ١٢ مسلة، وواحدة
بالقسطنطينية - ومن المسلات التي أقامها تحتمس الثالث مسلتين كانتا في هليوبوليس
نقلهما الامبراطور أغسطس إلى الاسكندرية ثم نقلت إحداهما سنة ١٨٧٧
إلى لندن والأخرى نقلت سنة ١٨٧٩ إلى نيويورك، وأكبر مسلة معروفة
كانت هي الأخرى من عمل تحتمس الثالث وكان قد أقامها في هليوبوليس
أيضاً وهي الآن موجودة في ميدان القديس جون لاثيران في روما ،
وقد أقامها هناك البابا سكستوس الخامس .

ولا شك في أن نحت المسلات وإقامتها كان يتطلب عملاً ووقتاً
كبيرين كما يتبين ذلك من النص الموجود على قاعدة مسلة حثشبسوت
في الكرنك والذي يفخر فيه مهندسها بأنه أتم قطع هذه المسلة في سبعة
شهور فقط وأن هذه كانت أقصر مدة عمل فيها مثل هذا العمل.

ويحتمل أن أصل المسلات هو الأحجار المقسدة أو الشواهد

التي كانت تقام تمجيداً للوتى والآلهة لاننا نعرف بأن لوحات منقوشة بأسماء الملوك كانت توضع في أزواج في مقابرهم بأبيدوس ، ويقال بأن أزواجاً من المسلات الصغيرة كانت توجد في مقابر الأشراف من الأسرة الرابعة . ولم تكن هذه المسلات لمجرد الزينة أو لتسجيل بعض ذكريات الملوك وأعمالهم فحسب بل كانت بعض المسلات تغطى في قبتها بمعدن الالكترتون مزيج الذهب والفضة ، لتعكس أشعة الشمس إذ أن المسلة كانت ترمز لإله الشمس ، ولذلك نجد أنها كانت كثيرة في هليوبوليس متمر عبادة هذا الإله - وقد رمز في الكتابة الهيروغليفية لبعض معابد الشمس بقرص الشمس فوق قمة المسلة .

ثانيا : بلاد العرب

من المعروف أن بلاد العرب ظلت بيئة مغلقة أمام العالم المتحضر ، فلم تقم بها بحوث أثرية ولم يصل إليها من الرحالة الذين تركوا وصفا لمشاهدتهم فيها إلا في القليل النادر .

وكان اهتمام أقدم من عرفناهم من هؤلاء منصبا بصفة خاصة على التعرف على مايجرى في داخل الحجاز وخاصة فيما يتعلق بمراسيم الحج ، وبما زاد في إثارة الرغبة عند هؤلاء تحريم دخول غير المسلمين إلى مدينتي مكة والمدينة .

وأقدم الرحلات التي سمعنا بها كانت في أوائل القرن السادس عشر ، ولكن الرحلات التي جاءت عنها تفاصيل أكثر إسهابا ودقة هي تلك التي بدأت منذ أوائل القرن التاسع عشر .

ورغم أن مثل هذه الرحلات لم يكن الغرض منها وصف المعالم الأثرية إلا أن هناك رحلات أخرى كانت تهدف إلى مشاهدة بقايا ماكتب في التوراة عن بياكة سبأ وغيرها من أماكن متعددة من بلاد العرب وما حوته من كنوز ونفائس . كما أن بعض المؤرخين اليونان والرومان وبعض كتاب العرب ذكروا قصصا عن بلاد اليمن وما فيها من قصور وحصون ألهمت خيال بعض الرحالة وحماتهم على التفكير في السفر إليها .

وبالفعل قامت بعثة ذكريّة أوفدها ملكها سنة ١٧٦١ مكونة من خمسة أعضاء مات رئيسها عند وصوله إلى المخا ميناء اليمن ومات لإخصائي النبات بين المخا وصنعاء واستمر الثلاثة الباقون حتى عادوا إلى المخا متجهين إلى الهند فات اثنان منهم ولم يرجع بعد لإتمام الرحلة سوى واحد هو نبؤور الذي كان مكافأ بعمل الخراط فقط ولكنه أعد جميع الأبحاث والرسوم للنشر .

وكانت نتائج هذه البعثة من أحسن النتائج العلية التي أمكن الوصول إليها .

وفي سنة ١٨٤٣ قام شاب فرنسي برحلة إلى مأرب ونقل كثيراً من النقوش السبئية ، نشرها القنصل الفرنسي في جدة في سنة ١٨٤٥ . ثم قامت رحلات أخرى بعد ذلك في فترات متباعدة ولكنها جميعاً لا تلقى ضوءاً كافياً على ما كان في هذه المناطق من حضارة .

ومها كان الأمر فان شبه جزيرة العرب لم يكن فيها من التيسيرات التي تسمح للرحالة والعلماء بالتجوال فيها أو الكتابة عنها ، واقتصرت الجهود على مناطق محدودة منها ، وإذا ما نظرنا إلى الظروف المناخية وما نشاهده من أحوال الطبيعة في الوقت الحاضر يمكننا أن نستنتج أن أهل شبه الجزيرة وإن اتحدوا في صفاتهم الجنسية فإنهم كانوا يختلفون في ظروف معيشتهم بين بقعة وأخرى ، ويمكن القول إجمالاً بأن المناطق التي سبقت إلى ميدان الحضارة هي تلك التي جمعت الاستقرار فيها يمكننا ، وبعبارة أخرى فإن مناطق الحضارات القديمة يمكن تتبعها في الأطراف الجنوبية والشمالية لشبه الجزيرة .

ومع كل فان مخلفات هذه الحضارات التي ظلت قائمة والتي أمكن الكشف عنها قليلة للغاية ولا تكفي لأن تكون فكرة كاملة عن مظاهر الحضارة المختلفة التي سادت في تلك البقاع .

وبما يلاحظ على حضارات شبه الجزيرة بصفة عامة عدم وجود سلسلة متكاملة من المظاهر الحضارية فهناك فجوات كثيرة في هذه السلسلة ، فالآثار التي كشف عنها في مناطق محدودة من جنوب شبه الجزيرة والتي تمثل حضارات العصور قبل التاريخية لا تخرج عن كونها بعض آلات الصوان التي تشبه ما وجد في شرق أفريقيا من العصر الحجري القديم بما أدى الى افتراض نظريتين : إحداهما تشير الى أن الحضارة انتقلت من شبه الجزيرة الى الساحل الافريقي ، بينما تشير النظرية الأخرى الى العكس من ذلك حيث تفترض وجود مركز إشعاع حضارى في شرق افريقيا انتقلت منه ثقافة صناعة الصوان الى جنوب شبه الجزيرة وغيرها . ولا نكاد نجد من المخلفات الأثرية ما يبين مظاهر حضارات تالية للعصر الحجري القديم بل إن كل ما عثر عليه من مخلفات غير صناعات هذا العصر تشير الى حضارات عصور تاريخية متأخرة .

وربما كانت أعظم المناطق الأثرية في جنوب شبه الجزيرة هي مأرب التي ذكرت في الكتب المقدسة ففيها بقايا مباني مازالت جدرانها قائمة وإن كان الكثير مازال مطموراً تحت الأكوام الأثرية ، وهذه الجدران تدل على مباني مختلفة - وإلى جوار تلك الجدران توجد أحجار كثيرة منقوشة ببعض الكتابات وبعض التماثيل وبقاياها . ويمكن أن يقتنع المرء في أطلال هذه المدينة مكان السوق القديم والسور ، ويتضح منها

حسب رأى بعض الرحالة أن المدينة كانت مستديرة وأن سورها كانت به ثمانية أبواب ، ومن هذه البقايا أيضا يمكننا أن نستنتج أن أهل سبأ الذين اتخذوا مأرب عاصمة لهم (١) وصلوا إلى مرحلة متقدمة في فن المعمار وفي فن نحت التماثيل كما أن من بين النصوص ما يشير إلى أن أحد الملوك بنى حائطا حول مأرب بناء على أمر ومعونة الإله عشتار (٢).

ومن الخلفات الأثرية في هذه المنطقة وما جاورها من مناطق أثرية أخرى بعض اللوحات المزخرفة المنقوشة وبعض التوابيت الحجرية مما يدل على أن أهل سبأ استخدموا التوابيت في دفن موتاهم - ولا بد أنهم اعتقدوا بالبعث لأن بعض المقابر التي كشفت بفعل السيول وغيرها كانت تحتوى على كثير من الأثاث الجبزي إلى درجة أن أهل المنطقة اعتقدوا بأن الموتى كانوا من التجار الذين دفنوا معهم بضائعهم ولذا يطلقون على هذه القبور اسم مقابر البياعين (٣) .

ومن الواضح في فنون البناء والنقش في تلك المنطقة أن هناك تأثيرات توحي بوجود اتصالات بينها وبين بلاد النهرين وسوريا واليونان

(١) كانت العاصمة أولا صرواح أو صروح - أنظر كتاب المؤلف « معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم » (الاسكندرية سنة ١٩٦٨) ص ٢٥٧
(٢) كانت الديانة الرئيسية لدى شعوب جنوب بلاد العرب تعتمد أساسا على ثلاث من الكواكب تمثل في الإله الأب وهو القمر (الموآه) والإلهة الأم وهي تسمى (ذات حميم أو ذات بمدان) والإله الابن وهو نجم الزهراء (عشتار) أنظر :

احمد فخري : اليمن ، ماضيها وحاضرها (القاهرة ١٩٥٧) ، ص ٥٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٢

كما أن هناك ما يوحى بتأثيرات من الفن المصرى وخاصة فى القبائل
وزخارف بعض النصب .

والظاهر أن بعض النقوش تشير إلى تصريح بقطعة من الأرض
منحها الملك إلى قبيلة فى نظير الخدمة العسكرية ، كما أن هناك نقوشا
أخرى تحرم نهب الأراضى المزروعة أو تركها وقت الحصاد ، ونقوشا
غيرها تحدد امتلاك بعض القبائل لبعض الأراضى وتحدد الضرائب
الواجب دفعها عنها .

وهكذا يمكن أن نستنتج بأن استقرار بعض القبائل البدوية كان يتم
بشروط معينة ، وربما كان الكيان السياسى للدولة غير كامل أو أنه كان
عرضة للتغير بسبب دخول بعض العناصر الجديدة بين حين وآخر .

ويتمثل فن السبئيين فى سد مأرب الذى بلغ من شهرته أن ذكر فى
القرآن الكريم ، وقد نسب إلى ملكة سبأ كما نسب إلى غيرها من الملوك
الذين سبقوها ، وهو يعد أعظم عمل هندسى قديم فى الجزيرة العربية .
وتروى الأساطير أوصافه بشيء من الخيال كما تنسب تحطمه إلى أسباب
مختلفة منها ما هو خيالى - وقد أقيم هذا السد فى حوالى منتصف القرن
السابع قبل الميلاد ، وتهدم فى حوالى أواخر القرن السادس الميلادى ،
وكان الغرض من بنائه ينحصر فى السيطرة على مياه السيول وتخزينها
والصرف منها بالمقدار اللازم فتتوفر المياه اللازمة للرى إلى أن يحين
موعد قدوم السيول التالية وهكذا .

ونظراً لما تمتعت به بالقديس من شهرة فى التاريخ فإن كثيراً من
الاماكن الأثرية تنسب إليها ولا يقتصر وجودها على منطقة مأرب

وحدها بل يطلق اسم بلقيس على مناطق أثرية في أماكن أخرى من اليمن . ومن أم الآثار التي تنسب إليها في منطقة مأرب محرم بلقيس وهو أهم المعابد وأشهرها ويقع على بعد نحو أربعة كيلو مترات جنوب شرق مأرب الحالية ، وأقدم النقوش على جداره الخارجى يدل على أن ثاني ملك حكم سبأ هو الذى بنى سور هذا المعبد وأنه شيده لإله القمر ، وقد عاش هذا الملك فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وهو نفسه الذى شيّد المعبد الكبير فى صرواح - وقد وجدت نقوش من تواريخ تالية تصل إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، أى أن هذا المعبد ظل قائماً وعبادة القمر ظلت تقام فى هذا المكان ألف سنة على الأقل .

ومن كتابات المؤرخين القدامى نعلم بأن مأرب كانت بها ثلاثة قصور على الأقل قرن أحدها بقصر الملكة بلقيس ، وقد ورد فى كثير من أقوال الشعراء وكتاب العرب ولكن من العسير تحديد مكان هذا القصر أو التعرف عليه .

أما فى منطقة صرواح وهى تتمثل فى وادى مستدير محاط بالجبال ، فقد وجدت بها آثار تدل على وجود سسّد قديم مازالت عليها بعض الكتابات القديمة كما وجدت آثار تدل على وجود معابد قديمة أحدها يطلق عليه الآن « دار بلقيس » ويبدو أنه مازال سليماً لأن سقفه الحجرى مازال فى مكانه ولكنه مطمور بالردم . وأهم الآثار جيماً فى تلك المنطقة معبد إله القمر أو المعبد الكبير الذى يبدو كأنه بناء نصف بيضى لاستدارة إحدى نواحيه مما جعله يبدو بهذا الشكل ، وقد بنى هذا المعبد أيضاً الملك الثانى من ملوك سبأ الذى سبقت الإشارة إليه

على أنه باني سور المعبد في مأرب وربما كان هو الذى وحد جنوب شبه الجزيرة بأكملها بما فى ذلك حضرموت ونجران والمحميات : ومن الجدير بالذكر أن هذا الملك يشير فى نقوشه إلى خزانات المياه والجسور والقنوات التى أسس بإنشائها .

وليس من اليسير تتبع الآثار المختلفة فى مناطق جنوب شبه الجزيرة وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد أن هذه الآثار وإن كانت قليلة ولم تدرس دراسة وافية بعد إلا أنها تعطى فكرة واضحة بعض الشيء عن الديانة فى هذه المنطقة وعن توصل أهلها إلى أعمال هندسية رائعة سواء فى المعمار أو فى التحكم فى مياه السيول ، وبلوغهم درجة لا بأس بها فى القوانين والعلاقات العامة وخاصة فيما يتعلق بتحديد الملكية وتحديد الحدود بين الأملاك المختلفة كما يبدو من هذه الآثار أيضا أنهم نعموا بالرفاهية وأن الرقص والموسيقى كان لهما نصيب فى حياتهم إذ توجد على بعض الأحجار مناظر تمثل راقصات تحيطها زخارف مختلفة .

ولاشك فى أن موقع جنوب شبه الجزيرة كان له أثره فى اتصال بعض الأقطار ذات الحضارات القديمة بسكانه . ومن المرجح أن وجود هؤلاء السكان عند مخرج البحر الأحمر جعلهم يغامرون بالخروج إلى البحر وأصبحوا من الملاحين الممتازين ، بل ويتغالى بعض المؤرخين فيذكر أنهم وصلوا بسفنهم إلى بلاد الهند وبلاد النهرين ومصر ، كما أن لإقبال بعض القبائل على الاستقرار فى بعض أماكن شبه الجزيرة لم يجعلهم يتخلون نهائيا عن صفاتهم البدوية بما فيها من حب التجوال والترحال ، ولذا نجد أن سكان هذه المناطق إلى جانب مهارتهم فى الملاحة قاموا

بنقل المتاجر عبر شبه الجزيرة ووصلوا بتجارهم إلى الشام، كما أنهم كانوا أحيانا يجمعون في الانتقال بالمتاجر بين اتخاذ طريق بحرى وآخر برى إذ كانوا يهرون البحر إلى الشاطئ الإفريقي ثم يسرون بجذاء الشاطئ، تبهم سفنهم من مكان إلى آخر. ويبدو أن ملوك «أكد» ببلاد النهرين اتصلوا بالمناطق الواقعة في جنوب شرق الجزيرة كما يبدو ذلك من نصوص «نارام سن» و«جوديا» كبير كهنة «لجش» - والظاهر أن بعض القبائل الجنوبية وقفت إلى جانب ملك دمشق في حربه ضد الملك الآشورى «شلنصر الثالث» ، وبعد ذلك نجد في النصوص الآشورية ما يشير إلى وصول جزية وهدايا من السبثيين إلى ملوك «آشور» إلا أنه من المستبعد أن يكون الآشوريون قد وصلوا إلى جنوب شبه الجزيرة وفرضوا الجزية على سبأ والأرجح أن بعض الجماليات السبثية كانت مستقرة على طول الطريق التجارى بين شمال الجزيرة وسوريا وهذه هى التى تعرضت لإغارات الآشوريين ، كما أنه من الجائز أيضا أن يكون ما ذكره الآشوريون عن جزية السبثيين لا يدل إلا على هدايا أرسلها السبثيون لتوطيد صلوات الصداقة معهم والمحافظة على نشاطهم التجارى في شمال شبه الجزيرة .

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما تذكره الأساطير المصرية من أن المصريين كانوا ينتمون إلى أتباع حور وأن هؤلاء الأتباع هم الذين جاءوا من الجنوب والشرق وعلوا المصريين الحضارة وأخضعوا البلاد لسلطانهم. ويرى كثير من الباحثين بأن فى هذا إشارة إلى أن أتباع حور قد جاءوا من شبه الجزيرة وعبروا البحر الأحمر وتجهلوا على طول الساحل الإفريقى ثم تقدموا شمالا حتى وصلوا إلى مصر، كما أن الاتصال المستمر بين مصر

وبلاد « بونت » وهذه الاخيرة قد دعا كثير من المؤرخين إلى الربط بينها وبين جنوب شبه الجزيرة بل ويرجحون أن بونت هي نفسها بلاد اليمن الجنوبية وليس كما يقول بعض المؤرخين الآخرين بأنها هي شاطئ أفريقيا في منطقتي أرتريا والصومال (١).

أما على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة فقد استقرت بعض القبائل وتكونت بعض الدويلات كانت أهمها « البتراء » و « تدمر » . ولا نكاد نعرف من أمر هذه الدويلات شيئاً سوى ما ذكرته بعض النصوص التي جاءت من الأقطار المجاورة . وشأن الدويلات الشمالية شأن الدول الجنوبية لشبه الجزيرة من حيث أن تاريخها المعروف به فجوات كثيرة ، فخطابات « ماري » تدل على أن منطقة تدمر كانت آهلة بالسكان حوالي سنة ١٧٠٠ ق . م . - ولا نجد وثائق مستمرة عنها بعد ذلك التاريخ غير أن تدمر تأخذ في الظهور حوالي القرن الأول قبل الميلاد . أما البتراء فقد أخذت في الظهور منذ القرن الثاني قبل الميلاد - وإذا كان أهل البتراء هم « الأباط » ، فإن أقدم ذكر لهؤلاء يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد حيث حارب ملكهم « آشور بانيبال » ، وقد اعتبرهم هذا الملك ثواراً وتذكر حولياته بأن جيوشه تقدمت في الصحراء وهزمتهم ، ويبدو التضارب في وصف هؤلاء الأباط بين الكتاب القدامى ، فمنهم من يرى بأنهم كانوا يعيشون في منطقة صحراوية تقوم حياتهم على الغزو ويحرمون الزراعة وشرب الخمر وبناء المنازل ، بينما يصفهم آخرون بأنهم

(١) أحمد فخري ، المرجع السابق ص ٦٦-٦٨

يشتغلون بنقل التجارة الآتية من الجنوب . أما التدمريين فكانت عاصمتهم « تدمر » ، ويبدو أن سكانها كانوا من القبائل التي استقرت في هذه المنطقة على طول الطريق التجارى الرئيسى بين شبه الجزيرة وشرق البحر المتوسط ، ويبدو اختلاف أصول السكان وإرجاعهم إلى قبائل مختلفة من النقوش التي خلفوها ، إذ نجد نقشا على تمثال يسجل الصلح بين قبيلتين متنازعتين ، كما أن بعض النقوش وإن كانت تسجل اشتراك السكان في بعض الطقوس الدينية إلا أن هذه النقوش تسجل أسماء تلك القبائل ، وقد أقاموا تماثيل لآلهتهم المختلفة . ومهما كان الأمر فإنه نظراً إلى أن هذه الدويلات الشمالية تقع في الطريق بين بلاد النهرين والشام فقد تعرضت لهجمات الآشوريين والسكادانيين كما تعرضت الدويلات الأخرى المتاخمة لها من الجنوب ومن ذلك مثلاً ما نعلمه من أن « تيجلات بلسر الثالث » يتقبل خضوع أميرتين عريبتين إحداهما تدعى « زيببة » والثانية تدعى « سمسى » ، كما أن « سنجريب » يذكر بأنه توغل في الصحراء متعباً العرب الذين كانوا قد تقدموا إلى بابل واضطروهم إلى الإعتصام في مكان ما في قلب الصحراء . وعلى أى حال فإن خصائص وسميات حضارات تلك الدويلات الشمالية ينبغى أن تكون موضوع الحضارات المعاصرة لليونان والرومان لأن التواريخ المؤكدة لظهورها هي القرنين الثاني والأول قبل الميلاد كما سبق أن أشرنا ، وقد سقطت البترا سنة ١٦ م ، وتدمر سنة ٢٧٣ م .

ثالثاً: الإقليم السوري

من المعروف أن موقع هذا الإقليم جعله يستقبل الكثير من العناصر البشرية في مختلف الأدوار التاريخية^(١) كما أن انقسام هذا الإقليم من ناحية التضاريس جعله يشتمل على وحدات سياسية مختلفة ، ومما كان بينها من تشابه في بعض مظاهر الحضارة فيها فإنه من العسير أن نتناولها جميعها بالبحث كوحدة حضارية ظهرت في الإقليم بأكمله ، ولذا فإننا سنتناول حضارته على أساس الحضارات التي انتشرت بين العناصر البشرية الرئيسية التي أثمرت فيه .

وقد اصطلح المؤرخون على أن أهم العناصر التي لعبت دوراً فعالاً في تاريخه القديم هي تلك العناصر السامية التي وفدت إليه في هجرات مختلفة .

الأموريون :- اقدم العناصر السامية

ويرجح بأن سكان بلاد النهرين هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم ، فقد أطلق السومريون كلمة « مارتو » على أهل الغرب ، ومنها جاءت الكلمة الأكادية « أمورو » التي أصبحت بعد ذلك تطلق على الإقليم السوري بأكمله ، وهي في هذا تشبه استخدام العرب لكلمة الشام التي كانت تعنى أصلاً اليسار أو الشمال .

وحيثما وفد الأموريون إلى الإقليم السوري كانوا عبارة عن جماعات بدوية

(١) أنظر كتاب المؤلف : معالم تاريخ الشرق الأذى القديم ص ٢٧٢

لا تعرف سكنى المدن ولا الزراعة ، ولكن بعد أن استقروا في هذا الإقليم أخذوا عن أهل مظاهر الحضارة المختلفة وعرفوا الزراعة وأسسوا دويلات قوية من أهمها تلك التي كانت في حوض الفرات الأوسط وكانت عاصمتها « ماري » - وبلغ من قوة هذه الدويلات أن حاولت التوسع في بلاد النهرين ، ولذا نجد أن أحد ملوك أسرة أور الثالثة قام بتشديد سور في أور أطلق عليه اسم « الجدار الذي يصد الأموريين » كما أن آخر ملوك هذه الأسرة افتخر بانتصاره عليهم بقوله « لقد انخضت مارتو الذين في قوة العاصفة »

ومع أن الأموريين اقتبسوا الكثير من مظاهر حضارتهم من حضارات أهل المنطقة السابقين ومن جيرانهم إلا أن هؤلاء الجيران تأثروا بدورهم بمؤثرات أمورية ، فمثلا نجد أن البابليين والاشوريين أخذوا في قوانينهم بمبدأ « العين بالعين والسن بالسن » الذي انتشر بين الجماعات السامية ومن بينها الأموريين ، كما أنهم كذلك عبدوا بعض الآلهة الأمورية.

وقد وصلوا إلى مرتبة حضارية عظيمة كما يستدل على ذلك من الآثار التي عثر عليها في عاصمتهم ماري ، فقد أمكن الكشف عن بقايا قصر ملكى كان يشغل مساحة تزيد على خمسة أفدنة ويحتوى على أكثر من ٣٠٠ حجرة زيت جدران الكثير منها بصور ملونه بألوان زاهية ويشمل عدداً من الساحات والحمامات وألحقت به بعض الدوائر الحكومية ، كما عثر على أكثر من ٢٠٠٠٠ لوح من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسمارى وهي تتضمن وثائق تتناول مختلف الشؤون وتلقى كثيرا من الضوء على النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والدينية التي سادت

في هذه المنطقة وفي مناطق أخرى من العالم القديم ، فمثلا نعلم من هذه الوثائق أن مملكة أمورية اسمها « يمخاد » كانت عاصمتها « حلب » وأن « ججيل » كانت مركزا صناعيا هاما للنسيج ، « وقطنه » كانت مركزا تجاريا ، كذلك عرفنا أن « زمري ليم » كان يناصر الملك البابلي « حورابي » وأنه كان آخر ملوك ماري .

ورغم هذه الحضارة فإن الاموريين لم يتركوا كتابات هامة بلغتهم بل اقتصرُوا في تدوينهم بها على أسماء ملوكهم وحكامهم وبعض الأماكن في الإقليم السوري ، أما أهم مدوناتهم فقد كتبت بالأكادية التي شاع استخدامها كلفة تدوين رسميه .

ويبدو أن وقوع الاموريين بين آسيا الصغرى في الشمال ومصر في الجنوب وبلاد النهرين في الشرق قد أكسبتهم مهارة سياسية في بعض الظروف وخاصة عندما أخذ الحيشيون (في آسيا الصغرى) في القوة وبدأت مصر في الضعف ، فقد أخذ بعض الحكام الاموريين الذين كانوا يخضعون لمصر فيما سبق يستغلون الظروف ويعلمون استقلالهم ، ومنهم من تظاهر بالولاء للبصريين وفي نفس الوقت كان يتعاون مع الحيشيين في غزؤهم لبعض المناطق بينما يستولى لنفسه على بعض المناطق الأخرى ، ويبدو ذلك واضحا في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية .

أما عن ديانة الاموريين فقد وجدت لديهم معبودات مختلفة منها الإله « أمورو » (مارتو) الذي عرفت عبادته في بلاد النهرين وكانت زوجته الإله « عشتار » إلهة الحب والقوة التي يرجح أنها مقتبسة من الإلهة البابلية عشتار - وقد وجدت في أنقاض قصر ماري الذي أشرنا إليه

فيا سبق صورة كانت تزين أحد الجدران وفيها يرى الملك الذي يرجح أنه « زمري لم » وهو يقسم شارات الملك من هذه الإلهة ومن الإله « حدد » الذي عرف في بابل باسم « أدد » إله المطر والزوابع وكان يطلق عليه أحياناً اسم آخر هو « رمان » (رمانو) أى إله الرعد، ويحتمل أنه هو الذى عرف بعد ذلك في بعض جهات سوريا باسم « بعل » - ومن آلهتهم أيضاً الإله « رشف » وقد عبده الفينيقيون وعرفه المصريون في عهد الدولة الحديثة . ومن معبوداتهم التى انتقلت إلى بلاد النهرين « داجون » أو « داجان » وكان من آلهة الخصب - ومن المحتمل أيضاً أنهم هم الذين أدخلوا إلى الإقليم السورى عادة تقديم الإبن البكر كقربان للآلهة وعادة تضحية أطفال في أسس المباني ، وهذه الأخيرة ظلت إلى زمن العبرانيين .

ب - الكنعانيون والفيديقيون : وصل هؤلاء في هجرة واحدة مع الاموريين . وقد اختلف الباحثون في أصل اسمهم ، فمنهم من يرى بأنه سامى « كنع » أو « خنع » بمعنى المنخفض ، أى الأرض المنخفضة التى سكنوها وخاصة على الساحل للتمييز بينها وبين الاراضى الجبلية المحاذية لها ، ومنهم من يرى أن أصله هندى أوربى من كلمة حورية « كنجى » بمعنى صبغة حمراء ومنها أخذت الكلمة الكلدانية « كنانخى » أو « كنجخى » التى حرفت إلى كنعان أى بلاد الأرجوان لشهرتها بهذه الصباغة ولذا عرفها اليونان باسم فينيتميا كمرادف لهذه التسمية ، وكانت تدل في أول الامر على الساحل السورى وغرب فلسطين ثم أصبحت تدل على فلسطين وجزء كبير من سوريا .

ونظراً لطبيعة الإقليم الذى عاشوا فيه واتهم به بين حين وآخر لتوسع الدول الكبرى المجاورة لم ينجح الكنعانيون في تأسيس دولة

قوية موحدة بل انتظموا في جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها ، وكانت هذه المدن هي العواصم التي يلجأ إليها أهل المناطق الزراعية ويحتمون داخل أسوارها عند الخطر - وكثيراً ما كان يحدث النزاع بين تلك المدن فكانت أكثرها تفوقاً تلك التي كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية، وبعضها كان يشغل موقعين أحدهما على الساحل والآخر يمثل جزءاً صغيرة في مواجهته يلجأون إليها عند اشتداد الخطر - وبالطبع كانت المدن المتباعدة أقدر من غيرها على البقاء والازدهار ، ومن جهة أخرى كثيراً ما كانت هذه المدن تتفق فيما بينها لتحقيق مصالح مشتركة أو للتحالف ضد أخطار خارجية.

ومع أن السكنعانيين لم يتمكنوا من إنشاء دول كبيرة كما أشرنا إلا أنهم فرضوا شهرتهم في التاريخ لما امتازوا به من نشاط في الميدان الاقتصادي . فقد عملوا على تنمية زراعتهم وصناعاتهم ونشطوا في الاتجار خارج وطنهم وأسسوا مستعمرات تجارية في مناطق بعيدة ، ففي ميدان الزراعة لم يتركوا بقعة صالحة دون استغلال حتى أنهم زرعوا السفوح الجبلية حيث حولوها إلى مسطحات متفاوتة الارتفاع يفصل بين كل منها والآخر جدار يمنع التربة من التآكل ويزيد في المساحة المنزرعة - وإلى جانب الزراعة كانوا يربون الأذناب والخنازير ومهروا في صناعة الفخار كما برعوا في صناعة النسيج والزجاج - وقد عرفت لديهم الأقمشة الصوفية منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد على الأقل ، ونقلوا زراعة القطن من آشور وعرفوا نسيج السكتان كما عرفوا الحرير منذ القرن السادس قبل الميلاد تقريباً - وقد ارتبطت حرفة صيد الأسماك بطريق غير مباشر بشهرة

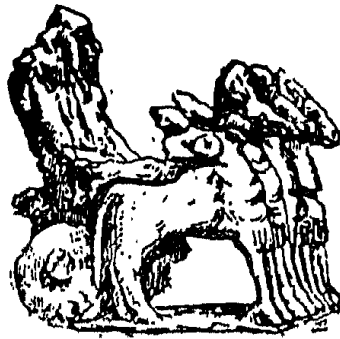
منسوجاتهم لأن الصبغة باللون الأحمر التي اشتهروا بها كانوا يستخرجون سائلها من أصداف تسكّر على سواحل البحر، وكانوا لا يتاجرون في هذا السائل بل في المنسوجات المصبوغة - ولم يقتصر استخراجهم لهذه المادة على الأصداف الموجودة على سواحلهم بل كانوا يجابونها أيضا من الموانئ البعيدة ، وبلغ من شهرة أقمشتهم المصبوغة بها والتي أصبحت تعرف باسم « الأرجوان » أن ارتفعت أثمانها حتى أصبحت رمزاً للبلوك فيقال عنهم « مولود في الأرجوان » . كما أنها كانت تستعمل في أزياء بعض ذوي المكانة مثل رؤساء الكهنة في بعض الجهات - وإلى جانب الصبغة بهذا اللون عرف الفينيقيون صبغة أخرى لونها قرمزي استخرجوا مادتها من حشرات كانت تعيش على أشجار السديان حول الساحل وذلك بوضع هذه الحشرات بعد تجفيفها في بعض الأحماض .

ومع أن الفينيقيين نشطوا في التنقل بين مختلف الاقطار وقاموا بدور عظيم في نقل مختلف السام والثقافات إلا أن ما خلفوه من مدونات لا يتناسب مع الدور الذي قاموا به وربما يرجع ذلك إلى فناء أوراق البردي التي كانوا يدونون عايبها وكانوا يجابونها من مصر ، ومع هذا فإن القليل الذي عثر عليه من نقوشهم ومدوناتهم يدل على علو شأنهم في كثير من المعارف - ومن ذلك أيضا نستطيع أن نتتبع أن المدن الفينيقية كان يحكمها ملوك يتم اختيارهم من بعض الأسر النبيلة أو التي تنتمي إلى أصل مقدس ، ولكن سلطان الملك كان يحدده مجلس للشيوخ مؤلف من تجار المدينة .

ومن الملاحظ أن أصحاب الحرف كانوا يدينون بالولاء لرؤساء يمثلون طوائفهم المختلفة ويطلق على رئيس كل حرفه لقب « رب »

الذى يدير أمور أهل الحرفة ويتولى رعاية شئونهم - ومع أن شهرة الفيزيقيين الرئيسية كانت لمهارتهم في الملاحة إلا أنهم تفتنوا في استغلال كل ما يمكن أن تجود به بلادهم من موارد ، وقد اشتهرت أخشاب أشجارهم بالجودة وخاصة خشب الأرز والصنوبر ولذا فرض على جيرانهم الاتصال بهم والاتجار بهم للحصول على هذا الخشب الثمين ، كما أنه من المرجح أن زيت الصنوبر ونشاراته كانا يستخدمان في التحنيط ، كذلك استخدمت أخشاب الصنوبر في بناء قصر ومعبد « سليمان » كما استخدمها الآشوريون أيضا في بعض قصورهم وخاصة من عهد « سرجون الثانى » .

أما في مجال الزراعة فقد وصلوا إلى مرحلة راقية واستخدموا المحراث ، بل وكانوا أحيانا يستغلون الفيل كحيوان لجر المحراث في الزراعات الكبيرة ، وأكثر وسائل النقل استعمالا عندهم كانت عربات ذات عجلتين تجرها أربعة خيول (شكل ٢٦) - وربما كان الحمار يستعمل في الخدمات بدل الخيل قبل دخول الحصان أيام الهكسوس - وكان استخلاص الحب من سنابله يتم إما بأن تمرر على السابيل لوحة خشبية بأسفها شظايا



شكل (٢٦) : نموذج من الخزف لعربة يجرها الخيل

صوانية أو أن تستعمل مركبة من خشب لها عجل بأسنان من حديد أو أن يداس المحصول بأرجل الحيوانات^(١) - وتطحن الحبوب بالرحى، وقد عرف الفينيقيون صناعة الأبنسة واستخراج الزيوت، وغير ذلك من الصناعات الزراعية .

ويعد الفينيقيون أقدم أمة بحرية في التاريخ ، ونبوغهم في الملاحة هو سبب شهرتهم الحقيقية ، وقد وصل نشاطهم إلى اسبانيا وبريطانيا ، وبلغ من حدقهم أنهم كانوا يصنعون السفن لحساب الدول والشعوب الأخرى، فقد أمدوا «سنحريب» ملك آشور بالسفن التي غزا بها دويلات جنوب العراق كما أمدوا سليمان بالسفن واستخدمهم «نحاور» (الأورة ٢٦) في الدوران حول أفريقيا وقد أتوا رحلتهم في ثلاث سنرات - وقد أخذوا يكتفون في الأماكُن التي وصلوا إليها للتجارة مراكز تجارية سرعان ما تحولت إلى مستعمرات تجارية كانت أعظمتها «قرطاجة» التي سرعان ما ازدهرت بعد تأسيسها ثم أصبحت لها سيادة تجارية وسياسية فكوّنت امبراطورية تمتد من حدود ليبيا إلى جبل طارق وضمت بعض جزر البحر المتوسط إليها - ثم تنافست مع روما من أجل السيادة على البحر المتوسط ونشبت بينهما حروب دامت أكثر من مائة عام انتهت بأن أحرقها الرومان وحولوها إلى كومة من الرماد .

ويبدو أن الكنعانيين نشطوا في صناعة المعادن حيث ينسب إليهم أنهم وصلوا إلى صناعة الفولاذ واشتهروا بالصياغة ولذا كانوا

(١) كونيون : الحضارة الفينيقية (مترجم) ، ص ٣٠٦ .



شكل (٢٧) نحت في العاج يمثل الفن الفينيقي
وفيه مزج بالفن المصرى

يقومون برحلات عديدة لجاب المعادن حتى أن «هوميروس» أشار إلى حذق أهل صيدا، بصفة خاصة في الصياغة .

ومع أن الفنيقيين في فنونهم اقتبسوا من فنون الشعوب المجاورة ، إلا أنهم مزجوا في كثير من الحالات بين هذه الفنون جميعا حتى جعلوا منها فنا فينيقيا متميزاً (شكل ٢٧) غير أنهم في بعض الحالات كانوا يقتبسوا كلياً (شكل ٢٨) - ولا يمكننا أن نقتصر في دراسة الفن الفينيقي على ما وجد من آثاره على الساحل السوري وحده ، ولكن لابد من دراسة كل آثارهم في المناطق الأخرى ، وكثما للاقتباس الكلى نلاحظ في بعض أختامهم وتوابيتهم طابعا مصريا صرفا .

وينسب إلى الفنيقيين اختراع الحروف الأبجدية التي نقلها عنهم اليونان ثم شاع استعمالها وإن كان من الممكن أن نعتبر أن الهجائية

وجدت أولاً في الهيروغليفية حيث كانت هناك رموز تدل على حروف إلى جانب الرموز المستعملة ككلمات أو مقاطع وكل ما قام به الفينيقيون هو أنهم طوروا الفكرة واستخدموا الرموز للدلالة على حروف فقط ، ومع هذا فإن اللغة الفينيقية لم تصبح لغة دولية وإنما كانت الأكادية هي التي تعد لغة دولية رسمية. ومن التراث الأدبي الذي تركه الفينيقيون اقتبس العبرانيون كثيراً من تراثهم وأدخلوه في كتاباتهم المقدسة وخاصة بعض الأساطير التي تدور حول الصراع بين الخصب والجفاف أو بين الإنبات والموت ثم البعث أو عودة الحياة وإن كنا نعتقد بأن هذه كلها أصلاً يمكن إرجاعها إلى أسطورة أوزير التي انتشرت في مصر .

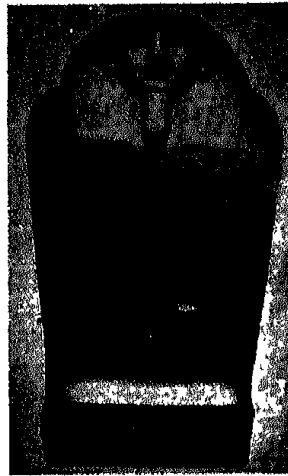


شكل (٢٨) : تطعيم بالمعجى فى الطابع المصرى واضعاً

أما ديانة السكمنانيين فشأنها شأن معظم الديانات القديمة تدور حول تقديس مظاهر السكون وعبادة الطبيعة ، فالجسو كان يمثل فى نظرهم الإله الأب ، بينما تمثل الأرض الإلهة الأم - أما الإله الأعلى فكان يعرف

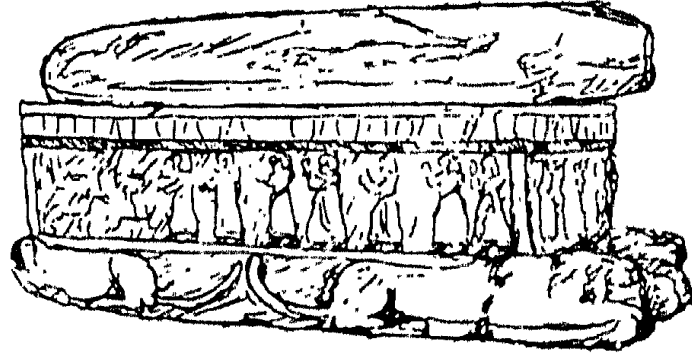
باسم «ايل» أو «عليان» وهو الذى يوحّد مع الإله «بعل» وكان يعد له

المطر والمحاصيل ، وزوجته كانت الإلهة «عاشرة» أو «عائرة» أو «عشترت» ،
التي عبدت أحيانا كالإلهة الأم ، ومن ألقابها «بعلة» أى «سيدة» - وهنا تعد
حامية لمكان أو مدينة معينة - ولقب ملكة السماء ولقب «عنات» وهذه كانت
تعد إلهة للحب والحرب ، وقد وحدها اليونان مع إلههم «افروديت» ،
والرومان مع إلههم «فينوس» ، وقد عبد المصريون إلهتهم «رشف» كما أنهم
أخذوا عن المصريين عبادة الإله «بس» - وقد وجدت آثار معابدهم
في أماكن مختلفة وهى لا تخرج عن مذبح صخرى ونصب مقدس قائم
إلى جوار عمود أو شجرة مقدسة وغرف تحت سطح الأرض ومصاطب
يغسل عليها المتعبدون أقدامهم قبل تأدية الطقوس وفى بعض الأحيان كان يوجد
مكان مرتفع فى مؤخرة المعبد - أما قدس الأقداس فيوضع فوقه رمز
أو تمثال الإله ، وكانوا يستخدمون تماثيل صغيرة كتماثيل لها قدرة سحرية ،
كما أنهم أحيانا كانوا يجعلون أماكن للعبادة فى الهواء الطلق على رؤوس



شكل (٢٩) : تابوت فى هيئة آدمية لآحد ملوك صيدا

التلال أو الأماكن المرتفعة وهذه لا يوجد بها سوى مذبح وعمود أو حجر مقدس وكانت غالبا لعبادة الآلهة المحلية - واعتقدوا بالبعث إذ عثر على بعض أواني الطعام والشراب وأدوات الزينة والأسلحة مع الموتي ، ويظهر أنهم تأثروا في ذلك بما كان متبعها في مصر بل وكانت بعض توابيتهم في الهيثة الآدمية كالتوابيت المصرية (شكل ٢٩) ، وقد زينت بنقوش وكتابات دينية ومنها نقوش تمثل الموكب الجزى بها فيه من نائمات وحملات للقرابين (شكل ٣٠) ومنها نقوش تصب اللعنات على من يحاول الاقتراب على التوابيت أو لإزعاج الميت ، وقد ظلوا يمارسون عادة التضحية بالأطفال عند تأسيس المباني الجديدة وهؤلاء كانوا يدفنون في أواني فخارية كانت توضع تحت أرضية المنزل .



شكل (٣٠) : تابوت لملك من ببلوس مينا عليه الموكب الجزى

ج - الآراميون : هم الجماعة السامية التي هاجرت من شبه جزيرة العرب حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد . وقد استقروا في أواسط الفرات واقتبسوا من جيرانهم بعض المظاهر الحضارية ، والظاهر أنهم كانوا من جماعات عرفت بأسماء مختلفة وربما كانوا من بين أولئك

الذين عرفهم الاموربون باسم «أخلامو» ومعناها الرفاق وهي التي أطلقوها على عدد من القبائل المتحدة ، وقد سادت العناصر الآرامية في قسم كبير من بلاد النهرين وشمال سوريا ووسطها خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد غير أنه كانت توجد بينهم بعض الجيوب الحيثية ، ولم يتمكنوا من التوسع غربا لوقوف جبال لبنان حائلا دون توغلمهم عبرها - ومع أنهم اقتبسوا من حضارات جيرانهم إلا أنهم احتفظوا بلغتهم بل وانتشرت هذه اللغة في الاقطار المجاورة ولعبت دورا هاما في ثقافتها .

ويبدو تأثر الآراميين بحضارة الشعوب المجاورة واضحا في شمال سوريا إذ تأثر الآراميون هناك بمظاهر الحضارة الحيثية وكانت عاصمتهم في مظهرها لا تختلف كثيراً عن المدن الحيثية ، وقد ذكر أحد ملوكها على تماثيل أقامه للإله «حدد» بأنه كان يحرص أن يوفر السعادة لشعبه وأن بلاده ازدهرت فيها زراعة الشعير والقمح والثوم والكروم ويفتخر ابن هذا الملك في نص له بأن والده زاد في فخامة البلاط الملكي كما أن هذا الابن نفسه عاش في أبهة لا تقل عن أبهة ملك آشور الذي خضع له .

وكما اشتهر الفينيقيون بالتجارة البحرية اشتهر الآراميون بالتجارة البرية وأرسلوا قوافلهم إلى جميع الاقطار المجاورة وتاجروا في الأرجوان من فينيقيا والمطرزات والكتان والنحاس والابنوس والعاج من افريقيا واللؤلؤ من الخليج العربي - وكان نتيجة هذا التوسع التجاري أن نشروا لغتهم في مختلف البلدان فأصبحت لغة رسمية إلى جانب كونها اللغة العامة

للتجارة ، بل واستعملت كلغة رسمية في الامبراطورية الفارسية وكان انتشارها سببا في انتشار الاليجدية الفينيقية التي استخدموها فكانت هي لغة المسيح واتباعه وكتبت بها بعض الصلوات ثم تفرعت الى مجموعتين ، شرقية في وادى الفرات ومنها السريانية ، وغربية ومنها التورائية والتدمرية وغيرها .

أما عن ديانتهم فتمد كان الإله « حدد » أهم معبوداتهم وهو إله الزوابع والرعد وكان محبوبا بصفة خاصة بين المزارعين لأنه كان يرسل المطر . وقد امتزجت عبادته بعد ذلك بعبادة الشمس وكانت رفيقته الإلهة « أنارجاتس » . تمد الإلهة الأم وكان يرمز لها بالهلال وقرص الشمس وانتشرت عبادتها في فلسطين ثم انتقلت الى الرومان بعد ذلك - وإلى جانب هؤلاء كان هناك عدد من الآلهة الثانوية بعضها محلي والبعض الآخر انتقلت عبادته من الأقطار المجاورة مثل الإله « شمش » وهو من آشور والإله « رشف » وهو من فينيقيا ، وغيرها .

د - العبرانيون : هم الجماعات السامية التي جاءت مع الآراميين في نفس الوقت تقريبا وقد وصلوا إلى فلسطين بعد أن ذهبوا إلى جنوب بلاد النهرين ثم إلى وسطها ، وقد هاجرت جماعة منهم إلى مصر ثم خرجت منها بتميادة موسى وبعدئذ أخذ كيانهم يبدو في فلسطين بوضوح وعند قدمهم كان سكان فلسطين عبارة عن جماعات كنعانية وجماعات غير سامية إلى جانب قدامى العبرانيين الذين لم يكونوا قد هاجروا إلى مصر وقد اندمج هؤلاء الآخرون معهم ، وأصبح القادمون الجدد يكتفون حياتهم حسب مقتضيات ظروف بيئتهم الجديدة وأرادوا

محاكاة جيرانهم الذين كانوا يعيشون في ممالك خاصة - وأتيحت لهم فرصة ذلك عند اشتداد الحرب بينهم وبين الفلسطينيين فأنشأوا ملكية لهم يمكن اعتبار تأسيسها بداية تاريخ الأمة العبرية وإن كنا نعتقد بأنهم لم يحرصوا على قوميتهم بل ولم يخلصوا تماما لملكيتهم ، فقد تركوا لغتهم السامية القديمة واتخذوا لغة الشعب الذي عاشوا بين ظهرانيه فاستعملوا لغة الكنعانيين وأبجديتهم ولم يكن لهم أدب إلا بعد أن تعلموا فن الكتابة من جيرانهم كما أنهم ظلوا محتفظين بنظامهم القبلى فيما يختص بالشؤون الإدارية ولم يحكم الملك بينهم إلا حسب أوامر «يهوا» (الرب) كما يملها الصالحون منهم - ومهما كان الأمر فإنهم كانوا أصلا من البدو ولم يحترفوا الزراعة إلا بعد استقرارهم في الأراضى الخصيبة ، ومع هذا ظل سكان المناطق المرتفعة منهم يعتمدون على الرعى كمورد أساسى لهم، وقد ارتبطت حياتهم الزراعية بكثير من الأفكار والقوائد التى لم يكن لهم بها عهد ومارسوا الأعمال والطقوس التى اعتبرت ضرورية للخصب وضمان محصول طيب فكانوا يضعون بأحد الحيوانات ويقدمون قرابين للعبد من المحاصيل والماشية ويرقص منكم أمام تابوت العهد - واعترفوا بالآلهة المحلية التى تتعاق بالخصب والنماء بصفة خاصة إلى جانب معبودهم يهوا ولذا كانت بعض العبادات والطقوس الكنعانية القديمة منتشرة بينهم، بل وأصبح الإله الكنعانى بعل فى بعض الفترات منافسا قويا للعبود يهوا ، وكانت فكرتهم عن الحياة الأخرى شبيهة بالفكرة لدى الكنعانيين ومعظم الأمم القديمة إذ كانوا يدفنون مع موتاهم بعض الأدوات التى كانوا يستخدمونها فى حياتهم اليومية .

ولم يقتصر تأثير العبرانيين بالكنعانيين على المظاهر الدينية فحسب بل تأثروا كذلك بالكثير من المظاهر الحضارية الأخرى ، ففي العمارة نجد أن أقدم أثر ديني لهم هو هيكل سليمان قد خطط على نمط معبد كنعاني وزخرف بزخارف كنعانية ولم يشيده معماريون من العبرانيين أنفسهم بل من السوريين - وكان القصر الملكي في أورشليم من عمل صناع فينيقيين أيضا وزخرف بزخارف تمثل رموز الحماية المأخوذة ففكرتها بما وجد لدى الأشوريين والسوريين القدماء ، فهي تمثل حيوانات لها رؤوس بشرية تحرس شجرة الحياة

وقد تعددت آلات الموسيقى التي استخدموها في طقوسهم الدينية وفي حياتهم العادية ومعظمها من آلات كانت مستعملة في سوريا قبل وصولهم إليها ، كما يرجح أن التوازي والمطابقة في الشعر العبرى كان معروفا عند الكنعانيين أيضا - ونظراً لما عرف عنهم من حرص بصفة عامة فإنهم برعوا في قطع الأحجار الكريمة ، ومع هذا فإن من المرجح أنهم اتبعوا في حلبيهم بل وفي ثيابهم وخزفهم النماذج والأساليب الكنعانية - ومن صفاتهم المأثورة حبهم للإفادة وجمع الثروة ولذا عملوا على رقى الزراعة والصناعات المتعلقة بها بغية ازدياد التبادل التجارى بينهم وبين جيرانهم .

ويعد الدين المظهر الوحيد الذي أسهموا به في مضمار الحضارة ، ومع هذا يمكن أن يدرس العهد القديم على أنه مؤلف أدبي ويمكن مقارنة الشريعة الموسوية بقانون حمورابي في كثير من المواد غير أنها تمتاز بما فيها من عناصر أخلاقية لم يرد مثالا في الشرائع السابقة ، وكان كهنتهم

يقومون بالطقوس الدينية ويعبدون وسطاء بين الإنسان وربه ، ومن هؤلاء من امتازوا بالحكمة وبلغوا مرتبة عالية في التفكير وقد عرفوا باسم الانبياء - وكانوا يهدفون إلى رقى الفرد وسلامة المجتمع فربطوا بين الدين والأخلاق ونادوا بعبادة إله واحد ، واعتبروا قواعد السلوك كأوامر إلهية - وقد مرت التوراة بمراحل متعددة بدأت بالرواية التي يتناقها الخلف عن السلف ثم انتقلت إلى مرحلة التدوين وفيها جمعت من مدونات تاريخية قبل السبى وبعده وقد تعرضت للتنقيح وحذفت منها بعض الأمور كما ضاعت أثناء الجمع بعض الأسفار التي اكتفى بالإشارة إليها أثناء النسخ - وإلى جانب التوراة وجدت مجموعة من التواعد والأحكام والوصايا والشروح والتعاليم ظلت تنقل مشافهة عن طريق الرواية ثم دونها علماءهم لتكون دستوراً لهم ، وقد عرفت هذه باسم « التلود » - وقد انقسم العبرانيون تجاه التلود فمنهم من لم يعترف بغير التوراة وأنكروه وهؤلاء هم « القراءون » ، ومنهم من اعترف بالتلود واعتبر أنه موحى به إلى من كتبوه وهؤلاء هم « الربانيون » .

وينبغي أن نلاحظ بأن هناك تلودان : أورشليمى وبابلى ، والأورشليمى هو ما وضعه أحبار أورشليم ويحتوى على ٣٩ بحثاً بالعبرانية وقد كتب ابتداء من القرن الثانى إلى القرن الرابع الميلادى ، أما التلود البابلى فقد بدىء فى بغداد فى أواخر القرن الخامس ويشمل ٣٦ بحثاً بالآرامية وبه بعض الشروح العبرانية ولكنه أربعة أضعاف الأورشليمى وهو المتداول بين اليهود - ويتألف التلود من « المشنة » أى المتن أو الشريعة وهى التي تشتمل على الأحكام الدينية المكلمة لشريعة موسى وتفسر ما يلتبس فهمه منها « والجارا » وهى الشرح والتعليق .

رابعاً : آسيا الصغرى

بالرغم مما روى فى أشعار هومر عن طرواده وفى الكتاب المقدس عن الحيثيين فإن العالم المتحضر ظل لا يعلم شيئاً يذكر عن تاريخ وحضارة آسيا الصغرى - ومع أن الرحلات الاستكشافية إليها بدأت منذ عام ١٧٦٤ إلا أن الجهود الأثرية فيها لم تبدأ إلا حوالى سنة ١٨٧٠، حينما أخذ شليمان يبحث عن آثار طرواده، ولو أن هذه الآثار كانت تمثل مظاهر حضارية أقرب لتلك التى سادت فى اليونان منها إلى تلك التى سادت فى بقية أنحاء آسيا الصغرى التى أخذت أنظار الباحثين تتجه إليها بعد ذلك - وقد أمكن التوصل إلى أن النقوش التى كانت على بعض الأحجار التى عثر عليها فى حلب وتلك التى كانت على الصخور فى جهات مختلفة من آسيا الصغرى ترجع إلى الحيثيين الذين عرفوا فى النصوص المصرية وفى الكتاب المقدس باسم «خاني»، كما أمكن التوصل إلى معرفة الكثير عن الحضارات التى سادت فى شبه الجزيرة قبل عصرها التاريخى .

وقد تبين للباحثين أن مركب الحضارة فى آسيا الصغرى لا يمثل سلسلة متكاملة وأن هذه الحضارة لم تتدرج فى تطورها منذ أقدم المصور دون أن تنتابها تأثيرات مفاجئة ، غير أنه من الممكن إجمالاً القول بأن العصر التاريخى يبدأ فيها بظهور الكتابة التى انتشرت بين طوائف من التجار الآشوريين الذين وفدوا إلى الأناضول حوالى سنة ١٩٠٠ ق.م ، ومن رسائلهم ويومياتهم عرفنا أن البلاد كانت تنقسم إلى إمارات يحكمها أمراء محليون ، وكان بعض هؤلاء يحملون أسماء هندو أوربية ويدعو

هذا الى الظن بأن الحيثيين جاءوا غزاة الى شبه الجزيرة واستقروا بها وخاصة لان النصوص الحيثية المسمارية كانت تختلف في لغتها عن النصوص المسمارية التي سبقتها والتي أدخلها التجار الاشوريون - كذلك يبدو واضحا أن مظاهر حضارية متشابهة بصفة عامة سادت في أنحاء شبه الجزيرة منذ أن سيطر عليها الحيثيون ، وعلى هذا فإن مظاهر الحضارة الحيثية تمثل بشيء من التجاوز المظاهر التي سادت في شبه الجزيرة - وبها أن الحيثيين ينتمون إلى عناصر هندو أوروبية فإن حضارتهم وإن تأثرت بحضارات جيرانهم يغاب عليها طابع يختلف عن طابع حضارات الشعوب السامية المجاورة ، ومن دراسة مخلفاتهم الحضارية يتضح لنا أن الحيثيين كانوا من أكثر الشعوب القديمة تقدما في النواحي التي تتميز بها الطبقات الحاكمة، فقد امتازوا في الشؤون الحربية والسياسية والقانونية ولكنهم لم يصلوا إلى مرتبة عالية في النواحي الدينية والأدبية - أما فنونهم فقد بلغت مرحلة متقدمة وإن كانت لم تصل إلى نجد التفوق والعبقرية .

ومع أن هناك بعض الصعوبات التي تعترض الباحثين في دراسة الحضارة الحيثية كانشأة الهيروغليفية الحيثية وتفسيرها فإن من الممكن تتبع المظاهر العامة لتلك الحضارة .

الأسرة

يبدو أن عادات الزواج عند الحيثيين لا تختلف عن عادات الزواج في بلاد النهرين ، فع أن الخطبة المصحوبة بهدية من الزوج المنتظر كانت خطوة أولية للزواج إلا أنها لم تكن إلزامية فكانت للفتاة حرية الزواج

من رجل آخر بموافقة والديها أو بدونها بشرط أن يعرض الخطيب الأول.
وكان الزواج يتم بعد حصول الفتاة على هدية من رجلها كما كانت
تأخذ صداقا من والدها - وإذا حدث عدم إتمام الزواج بعد ذلك كان
الطرف المذنب يعاقب بدفع تعويض مناسب ، وفي حالة الوفاة كان
يتحتم زواج الأرملة بأقرب المقربين للزوج المتوفى وربما كان الغرض
من ذلك هو تخليد عائلة المتوفى ، وقد انتقلت هذه العادة إلى العبرانيين.
ولم يكن الزواج من الرقيق غريبا بل معترف بشرعيته ، وكانت القوانين
الحيثية تجعل من رب الأسرة سيدها وراعيا وساطته على زوجته واضحة
وله حق تقرير مصيرها إذا ارتكبت خيانة زوجية .

ومع هذا فإن المرأة في بعض أجزاء آسيا الصغرى كانت تتمتع ببعض
الامتيازات الخاصة التي كانت على الأرجح من بقايا نظام أموى (لم تكن التبعية فيه
للأب) ساد تلك الانحاء في أقدم العصور .

ويبدو أن هذا النظام الأخير كان أكثر وضوحا في البيت المالك
إذ أن الملاك كانت تتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلال ، وكانت الملاك الوالدة
بالذات ذات مكانة خاصة ولها من الألقاب ما تحفظ به من طوال حياتها
ولا ينتقل إلى زوجة الملك الحاكم إلا بعد وفاتها - وكثيرا ما كانت
بشخصيتها القوية تسبب مقاعب لابنها الحاكم ، أما في حالة وجود زوجها
على قيد الحياة فإنها تلعب دورا كبيرا في شئون الدولة ، فنذكر مع
زوجها في كل الوثائق الرسمية وقد تشترك في القيام بالطقوس الدينية
الرسمية أيضا.

الملك

من المرجح أن الملكية الخيثة كانت انتخابية في الأصل ، فرغم أن تعيين وريث العرش كان يتم أمام النبلاء إلا أنه كان لا يعد شرعيا إلا بعد إتمام هذا الإجراء الذي يفترض فيه أن يكون طلبا من الملك توافق عليه جماعة النبلاء ، وبما يدل على ذلك أن تاريخ الدولة الخيثة كان مائتا بالفتن والثورات التي قام بها أقرباء الملك وكان تعيينه لخليفته علنا مدعاة للتخلص من بعض هذه الفتن - وفي النهاية وضع أحد الملوك (تيليبينوس)^(١) قانونا لوراثة العرش استقرت بعده الامور فلم يحدث نزاع بين النبلاء في هذا الصدد .

وقد تمتع ملوك الخيثة بمكانة ممتازة ، وتدل ألقابهم على اعتمادهم أنهم أصحاب سلطان ونفوذ على غيرهم من الملوك الذين كانوا في نظرهم أقل شأنا كما اعتبروا بأنهم يتبعون بقوى خارقة وإن لم يؤلوا في حياتهم على الإطلاق أي أنهم لم يصلوا إلى مرحلة التقديس إلا بعد وفاتهم .

وكان الملك يعد القائد الأعلى للجيش والكاهن الأعظم والقاضي الأعلى في الدولة ، وهو المسئول عن جميع المعاملات السياسية مع الدول الأجنبية ، وكان من الممكن أن ينيب عنه في هذه الشؤون من يقوم بدوره فيها إلا في المسائل الدينية وحدها إذ كان الاعتقاد السائد بأن إهماله لمشل هذه المسائل كان يسبب نقمة الآلهة على الشعب .

(١) آخر ملوك الدولة القديمة الخيثة .

الإدارة

كان الحِيثيون في أول الأمر يتمددون في إدارة مجتمعاتهم الأولى التي نشأت في بقاع مختلفة على مجالس محلية تتألف من الشيوخ التي تتولى الإشراف على كافة الشؤون الإدارية المحلية . أما في المراكز المقدسة فإن المعبد هو الذي يشرف على تلك الإدارة فكان الكاهن الأعظم يعد الحاكم المدني في نفس الوقت .

وقد احتفظ ملوك الحِيثيين بهذا الحق فكانوا يشرفون على الأقاليم التي يستولون عليها وبعدئذ عهدوا بإدارتها لابنائهم ، ولما ازدادت رقعة المملكة أعموا بمثل هذه المناصب على بعض القواد الذين كانوا عادة من أقربائهم ، غير أن هذا التعمين كان مؤقتا في الغالب لأن أمثال هؤلاء كانوا لا يستطيعون النهوض بكافة الأعباء الملقاة عليهم - وأخيراً دعت الضرورة إلى تعيين حكام دائمين يقيمون في الأماكن التي يعهد لهم بها ويدينون بالولاء للسلطة الملكية - والظاهر أن هذا النظام قد استموى بعض الدويلات الصغيرة المجاورة فأخذت تنضم إلى الإمبراطورية الحِيثية رغبة منها في المحافظة على كيائها من جهة ، ومن جهة أخرى كان حكامها يتمتعون بالكثير من الاستقلال في ظل الامبراطورية ، فالملك التابع لها هو الحاكم ذو السيادة داخل إقليمه - ولم يكن مفروضا عليه أن يمد الجيش الحِيثى بجنود في كل وقت يخرج فيه للحرب ولكنه كان ملزما برد اللاجئين من الحِيثيين إلى وطنهم كما كان عليه أن يقدم لإتاوة سنوية وفي نظير ذلك كان الملك الحِيثى يضمن تولية الوارث الشرعى للحاكم على عرش البلد التي يحكمها ذلك الحاكم.

ولم تسكن القوانين في المملكة الحيثية ثابتة دائما بل كانت عرضة للتعديل والإضافات مما يدل على أن الحيثيين لم يترددوا في إصلاح قوانينهم كلها دعت الحاجة لذلك ، كذلك يبدو أنها كانت تختلف باختلاف أنحاء الامبراطورية ، فما كان يطبق في جهة من الجهات لا يؤخذ به في جهة أخرى . وما يلاحظ على النصوص القانونية التي عثر عليها أنها كانت في غالبيتها ترد على هيئة قضايا إقتراضية يتبناها الحاكم المناسب مما يدعو إلى الظن بأنها كانت مأخوذة من أحكام المحاكم .

والظاهر أن هذه القوانين كانت في بداية الأمر تأخذ بمبدأ العين بالعين والسن بالسن ، ولكن كانت الأحكام في كثير من القضايا تقتصر في حالة الأحرار المذنبين على تكليفهم برد الشيء إلى أصله أو بالتعويض أما إذا كان الجاني من العبيد فقد تشمل الأحكام عقوبات جسدية تصل أحيانا إلى الإعدام - كذلك كانت القوانين الحيثية تفرق بين حدوث الذنب عن عمد وبين حدوثه عن غير عمد ولكنها كانت تعتبر حدوث جريمة في مكان ما واختفاء المجرم به أمر يعاقب عليه أهل المكان الذين يعتبرون مسئولين عن حدوث الجرم في مكانهم ، ويعتبر القانون الحيثي صارما في الأخذ بمبدأ المسئولية الجماعية في حالات عصيان أمر الملك لأن العقوبة تنفذ على بيت الجسائي ، أى على أهل بيته وكل من فيه .

أما المحاكمات فكانت بسيطة الإجراءات إذ أن المنازعات كانت تنظر أمام الشيوخ الذين كانوا يشرفون على الإدارة المحلية ، وفي هذه الحالة كانوا يمثلون محكمة شعبية - وإلى جانب هؤلاء يمثل الدولة أحد ضباط

الملك الذى يتعاون مع السلطات المحلية فى إقامة العدل دون تحيز ، وفى حالات القضايا الكبرى التى تتطلب حكم الإعدام والقضايا التى يمجزون عن البت فيها لموضوعها أو تلفيقها كانت القضية ترفع إلى الملك للبت فيها.

العسكرية

وصات الجيوش الحيثية إلى درجة كبيرة من الخبرة فى التاريخ القديم ، ومع ذلك فإننا نجعل الكثير عن تكوينها ووسائلها غير أنه من المرجح أن مشاة الجيش الحيثى كانت أكثر عدداً من جنود مركباته، ومع هذا فإنهم كانوا يقومون بدور ثانوى نسبياً فى الميادين المفتوحة . أما المركبات الحيثية فكانت تختلف فى شكلها اختلافاً بسيطاً عن المركبات المصرية إذ أنها كانت تتسع لثلاثة رجال بدلاً من اثنين أحدهما للهجوم والآخر للدفاع والثالث للقيادة (شكل ٣١) ، وسلاح الهجوم فيها هو الرمح والقوس ، وسلاح الدفاع هو الدرع - وإلى جانب المشاة والمركبات كانت هناك فرق خفيفة للمساعدة مهمتها الهجوم المناجىء الذى يتطلب سرعة الحركة وكانت تسليح بالقسى والسهم - ومن النقوش المصرية يتبين لنا أن الجيوش الحيثية كانت تشمل أيضاً فرقا للبهات وهذه تتمثل فى عربات ثنيلة ذات أربع عجلات تجرها الثيران وعدد من الخيول المحملة بالانتقال وقد ورد فى النصوص الحيثية ما يدل على وجود جنود للبحار - وكان الأمر لا يخلو دائماً من وجود عدد من الجنود المرتزقة .

ويتسلح الجندى الحيثى العادى بسيف قصير وفأس للقتال ويرتدى خورذة لها غطاء للأذن .



شكل ٣١ - عربية مصرية تهاجم عربية حثيثة
(من نقش مصرى)

وقد أثبتت الجيوش الحثيثة كفاءة ومهارة حربية إلا أنها كانت تعتمد غالباً على مياغمة العدو واستغلال تدرة العربات الحثيثة إلى أقصى حد، ونخير دليل على ذلك نجاحهم في موقعة قادش ضد المصريين في عهد «رعسيس الثانى» - وعند حصارهم لمدينة ما كانوا يلجأون إلى وسائل فعالة كضربها بالمنجنيق وإقامة روابى مرتفعة يحملون إلى أعلاها معدات الحصار . أما عن وسائلهم الدفاعية فقد أمدتهم الطبيعة بأماكن منيعة لا تحتاج إلا إلى تقوية بسيطة وخاصة عند سفوح الجبال والتلال حيث كان يكتفى بجدران سميكة مزدوجة تبنى أمام الجزء المكشوف من التل والجدار الأمامى يكون عادة منخفضاً عن الجدار الخلفى .

الديانة

يبدو أن المجتمعات المحلية الأولى التي نشأت في آسيا الصغرى كانت تحتفظ باستقلالها الديني واستمرت أماكن العبادة فيها دون مساس بمعبوداتها ، وكانت سياسة الملوك تدعو إلى رفع شأن تلك المعبودات كما انتحلوا لأنفسهم وظيفة الكامن الأعظم لها حيث يقوم الملك بموكب سنوى يزور فيه أم مراكز العبادات التي يحتفل فيها شخصيا بأعيادها الرئيسية .

وقد جعل صيانة المعابد إحدى المهام الرئيسية التي يكلف بها حكام الأقاليم والقواد المحليين ، واستفادت أماكن العبادة بالطبع من وراء ذلك وزاد استقرارها وعظمت ثروتها - وبما يذكر أن كل المراسيم والأوامر العليا للدولة كانت تصدر باعتبار أن الآلهة والإلهات جميعا تضمن نفاذها ومفعوليتها ، ولذا كان الكتاب يجمعون قوائم بجميع أسماء الآلهة المحلية تعامل فيها الآلهة المتشابهة معاملة واحدة وبذلك محاولات لترتيب هذه الآلهة على حسب أهميتها وعلى ذلك كانت الدولة والملكية تحت حماية مجموعة خاصة من الآلهة الشعبية العظمى التي كانت تقام لها طقوس خاصة بالعاصمة نفسها .

وقد وجدت نصوص بالتمائمات التي كانت تصدر إلى الكهنة وخدم المعابد ونصوص تبين ما كان يقوم به أعضاء البيت المالكة من مراسيم العبادة، وكلها تدل على أن الطقوس المتبعة كانت دقيقة للغاية - ومع أن بعض الأساطير التي وردت إلينا تشير إلى الأدوار التي كانت تقوم بها الآلهة إلا أن معظم هذه لم تكن من المعبودات الرئيسية للدولة ،

وحتى في حالة وجود بعض تلك الآلهة بين معبودات الدولة الرئيسية فإن أدوارها التي تنسب إليها كانت تختلف باختلاف النصوص - ومن المعبودات وخاصة الشعبية منها ما لا نعرف عنها أو عن مراكز عبادتها إلا القليل .

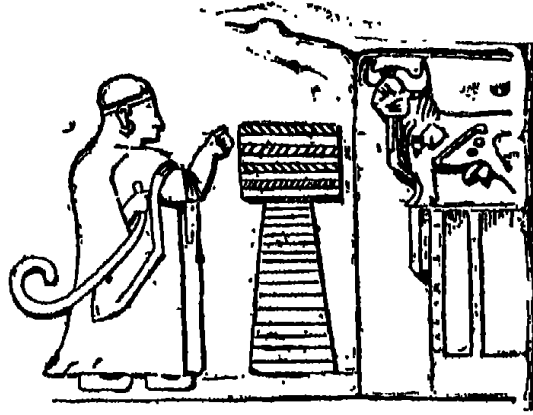
وتتميز معبودات الحثيين ببعض المظاهر حيث يحمل الإله سلاحا أو آلة أخرى في اليد اليسرى ورمز في اليد اليمنى وقد يزود بأجنحة أو زوائد أخرى أو يقف غالبا فوق حيوان مقدس (شكل ٣٢)



شكل ٣٢ - إله يقبض بيسراه على سلاح أو آلة
ويمناه على رمز وهو يقف على ظهر حيوان

وليس من الغريب في بيئة مثل آسيا الصغرى أن يكون إله الطقس إليها رئيسيا إذ انتشرت عبادته في عدد كبير من المدن وهو يمثل غالبا راكبا مركبة بدائية تجرها الثيران على رؤوس الجبال التي مثلت في هيئة البشر - وقد يرمز إليه بالثور الذي يصور واقفا وحيدا على مذبح (أنظر شكل ٣٣) ، وقد عبد في الجزء الجنوبي من آسيا الصغرى (أى في منطقة

طوروس والسهول الشمالية من سوريا) الذى كان يسوده الحوريون باسم « تيشوب ، وكانت له زوجة تعرف باسم « خيبات » ، وهذا كان لا تقل مكانة عن زوجها وقد مثلت في هيئة سيدة تقف على أسد أحيانا ، وكان



شكل ٣٣ - ملك يتعبد إلى إله في هيئة الثور

لها ولد يدعى « شاروما » - وإلى جانب هذه الآلهة وجدت آلهة أخرى في هذه المنطقة منها الإلهة « شاوشكا » أى عشتار الحورية ، وبعض هذه الآلهة لم يعترف بها بين الآلهة الحيثية .

وفي قلب المملكة الحيثية أى منطقة الحيشيين الأصليين كان المعبود الرئيسى فى أغلب الظن هو إلهة الشمس بينما كان إله الطقس زوجا لها ويأتى فى المرتبة الثانية، ولها ابنتان وحفيدة - أما إله الزراعة فقد اعتبر ابنا لإله الطقس وهو فى الأساطير الحيثية يشبه الإله أوزير فى الأساطير المصرية إذ بانسحابه تتوقف الحياة وبعودته تعود الحياة من جديد والمقصود من ذلك أن الشلل الذى يصيب الحياة الزراعية أثناء الشتاء

في آسيا الصغرى ترجمته الأساطير إلى انسحاب هذا الإله وعند عودته في الربيع تعود مظاهر الحياة من جديد .

وقد وجدت أسماء عدد كبير من الآلهة التي لانعرف عنها شيئا ، وربما كانت هذه أصلا من الآلهة المحلية عبدت في المجتمعات المحلية الأولى التي كانت منفصلة بعضها عن البعض .

أما الدين الرسمي للدولة فقد شمل مجموعة من الآلهة ، فكانت إلهة الشمس تعبد على أنها مالكة « بلاد حاتي والسماء والأرض » ، « سيدة ملوك وملكات بلاد حاتي ومرشدة الحكومة » ، أي أنها كانت الحامية الرئيسية للدولة والملكية . ومع هذا فقد صورت الأساطير إله الشمس على أنه ملك الآلهة ، وهو يأتي على رأس قوائم الآلهة التي تذكر في المعاهدات فهو يعد إله الحق والعدل - ومن الغريب أن موقف إلهة الشمس غير محدد بالنسبة لهذا الإله الذي يرى البعض بأنه لم يكن أصليا في الأناضول بل جلب إليها من الخارج حيث يصفه أحد النصوص بوجود أسماك على رأسه ، كما أن أحد آلهة الشمس ذكر على أنه « إله الشمس في الماء » - وقد اعتقد الحيثيون كما اعتقد المصريون بأن إله الشمس يمر في العالم السفلي من الغرب إلى الشرق أثناء الليل، وبما يشير الدهشة كذلك أن إله الشمس لم يكن زوجا لإلهة الشمس بل كان زوجها هو إله الطقس لأن هذا الأخير كانت عبادته واسعة الانتشار وقد اعتبر « ملك السماء ورب بلاد حاتي » ، أي أنه كان هو الآخر حاميا للمملكة وإليه يعزى النصر في المعارك .

وكانت أماكن العبادة الحيثية تتخذ أشكالا عديدة : فبها ما كان مكشوفاً

به هيكل حجري - ومنها ما كان مبنيًا بالأحجار الضخمة وتتكون من عدة غرف حول فناء مرصوف ، ويفصل قدس الأقداس عن هذا الفناء حجرة بها فتحة تسمح للذين في الفناء برؤية تمثال الإله في محرابه الذي يقع في الجدار البعيد لقدس الأقداس وإن كان الوصول إلى هذا الأخير عن طريق باب في أحد الجدران الجانبية - ومن المعابد ما لا يمكن رؤية تمثال المعبود فيها من الفناء حيث أن الهيكل كان يقوم في أحد جوانب المبنى ، ومعنى هذا أن التعبد لإله المعبد كان قاصراً على أقلية مختارة ، ولا يوجد أى نظام ثابت للاتجاهات في هذه المعابد - وكانت معابد بعض البلدان تعد مقر الحكومة المدنية في نفس الوقت ولذلك كانت تضم عدداً كبيراً من الموظفين المدنيين إلى جانب الموظفين الدينيين ، ومن جهة أخرى كانت هناك معابد صغيرة الحجم قليلة الأهمية بحيث يشرف كاهن واحد على عدد من هذه المعابد .

وكان المعبد هو بيت الإله والكهنة خدمه الذين يقومون يومياً بواجباتهم نحوه طبقاً لنظام ثابت يختص كل منهم بطقوس معينة ، وعلى العموم كان يفترض في كل منهم الطهارة التامة ولا يسمح لهم بقضاء الليل في المدينة وإلا تعرضوا إلى عقوبات تصل إلى الموت .

وبما أن الإله لم يكن مجرد رب للعبد بل رب الشعب وسيده كذلك كان لابد من تقديم قربان وهدايا مختلفة رمزاً لاحترامه يقدمها الجميع استعطافاً له ، ويجب أن تكرر بمتازة لا عيب بها - وهناك من الإشارات ما يدل على وجود عادة الضحايا البشرية .

وعندما يقوم الملك شخصياً بالاحتفال بعيد من الأعياد في أحد

المعابد تدون التعليمات التي تصف هذا الاحتفال وصفا دقيقا من بدء تزيين الملك واستعداده للخروج إلى هذا الاحتفال والسير في الموكب إلى المعبد ودخول زوجة الملك والحاشية إلى أماكنهم الخاصة وجلس الملك والمملكة على العرش وهكذا إلى أن تنتهي الطقوس .

ومن الطبيعي أن الظواهر الطبيعية وغيرها من الأمور التي تفوق طاقة البشر كانت في نظر المجتمعات البدائية تخضع لقوى عظمى (آلهة) تسيطر عليها ، وهي غير مرئية وخالدة - ومع هذا كان من الصعب تصورهما في هيئة تختلف عن البشر أو على الأقل لها مشاعر البشر . وكان الحيشيون بالذات ينسبون إلى آلهتهم من السلوك ما يشابه سلوك السيد بالنسبة لاتباعه ، فمع أنه يجب رعايته وترضيته ومدحه إلا أنه لا يمكن الاعتماد عليه دائما في رعاية مصالح أتباعه فقد يتضي بعض الوقت في التسوم أو التسلية أو الرحيل أو الانشغال بمسائل أخرى تجعل الإبتها إلى المساعدة عبثا ، بل وقد تكون له تصرفات خاطئة غير حكيمة ولذا تفسر المصائب التي تحل بالإنسان أحيانا لا على أنها عقاب عن ذنب جناه وإنما على اعتبار أنها نتجت عن إهمال الإله لأن الأرواح والشياطين الشريرة تعمل دائما على الإفادة من عدم تيقظ الإله الحامي للإنسان - ولذا كان من صلوات بعض الملوك للآلهة في مثل هذه الحالة ما ينهى باللائمة على الآلهة بل والتهديد بالعجز أو التقصير في خدمتها وتقديم القرابين لها - أما إذا كانت المصائب كعقاب عن ذنوب فلا بد من الاعتراف بها والتكفير عنها ، وفي هذه الحالة كانوا يلجأون إلى العرافة والتنجيم واستشارة الوحي في خير الطرق لإرضاء الآلهة .

وكانت العادة عند الدفن أن يحرق جسد المتوفى ثم تطفأ النار بالجمعة والنبيد ثم تحضر بعض النساء لجمع العظام ويغمسها في شراب خاص ثم يضعنها في زيت طيب في جرة فضية ، وبعد ذلك يخرجنها ثم تلف في السكتان وتوضع على كرسي ويقدم الطعام لمن جمع العظام كما يقدم الشراب لهم ولروح المتوفى ثلاث مرات وتصحب ذلك التضحية ببعض الماشية - ولاشك في أنه كان هناك فرق بين ما يتبع في دفن الملوك وما يتبع في دفن الأفراد كما أن من المرجح أن ملوك الدولة القديمة لم يمارسوا حرق الجثث .

أما الأساطير الحيثية فتنقسم إلى قسمين أحدهما يتعلق بالقضاء على قوى الشر ويتلخص في أسطورة تسمى « ذبح التين ، ومؤداها أن التين انتصر في أول الأمر على إله الطقس حسب رواية من الروايات وأنه لم يكتف بذلك بل أعجز إله الطقس بالاستيلاء على قلبه وعينه حسب رواية أخرى - ولكن بمعاونة آلهة أخرى وبالحيلة استطاع إله الطقس أن ينتصر في النهاية ، وربما كانت هذه الأسطورة تتلى في الاحتفال السنوي بالربيع وهي تشبه إلى حد كبير أساطير أخرى انتشرت في أجزاء أخرى من الشرق الأدنى القديم كانت تتلى أيضا في احتفالات موسمية - أما القسم الثاني فيتعلق بمودة الحياة إلى الأرض وهو يتمثل في أسطورة تعرف باسم « أسطورة الإله المفقود ، وهي تتلخص في أن الحياة تتوقف على الأرض بسبب اختفاء إله الخصب ثم البحث عنه وإعادةه إلى بيته تعود الحياة إلى الأرض ، وتمثل الأسطورة إله الخصب على

أنه ابن إله الطقس وأن هذا الأخير قد افتقده في وليمة دعا إليها إله الشمس العظيم الآلهة الأخرى ولكن هؤلاء لم يشبعوا ولم يشعروا بالارتواء ، فأرسل إله الشمس رسولا لكي يحضره ولكنه لم يجده ، وقد أمر إله الطقس بالذهاب بنفسه للبحث عنه وإحضاره ولكنه عجز عن ذلك وفشل في إخراج ابنه من مدينته وأخيراً عاد هذا الإله غاضباً ثائراً إلا أن أحد الآلهة هدأه بسلسلة من التعاويذ السحرية حتى عاد إلى مكانه في معبده وأبعد كل ما من شأنه إيقصاف الحصب .

ولدى جانب هذه الأساطير توجد أساطير أخرى ولكنها من أصل أجنبي غالباً وتقل أهمية عن تلك التي أشرنا إليها .

الحياة الاقتصادية

تنوع مظاهر البيئة في آسيا الصغرى ، فالهضبة الوسطى يصعب الإستقرار فيها إلا في أودية الأنهار ، أما على الجبال فالمجال للإستقرار محدود للغاية لخلوها من الأشجار وشدة البرودة وقسوة المناخ فيها، وعلى هذا فإن الموطن الذي استقر فيه الحيثيون كانت تكثر به القنوات والأودية اعتمد في حياته الاقتصادية على الزراعة قبل كل شيء - وما يؤيد ذلك أن القوانين الحيثية حفلت بالكثير من المواد المتعلقة بالزراعة وما يرتبط بها - غير أن سلاسل الجبال الضخمة سرعان ماظهرت مواردها وكان غناها بالمعادن سبباً في استغلالها ، فالتجار الآشوريون الذين عاشوا في

منظمة دكبدوشيا ، كانوا يصدرون النحاس ، كما أن الفضة كانت متوفرة إلى درجة سمحت باستخدامها كعملة - ومع أن الحديد كان متوفراً أيضاً إلا أن العجز عن صهره وتلقيته لم يجعله شائع الاستعمال فكان يستعاض عنه في صناعة الأسلحة بالنحاس والبرونز ولهذا عد الحديد من المعادن الثمينة ، ورغم أن النصوص تشير إلى سيوف وألواح كتابة وتماثيل حديدية إلا أن ما عثر عليه من هذه كان نادراً - ومن المحتمل أن تلك المصنوعات كانت تقدم كهدايا ملكية ولم يتقنها إلا عدد قليل من الصناع .

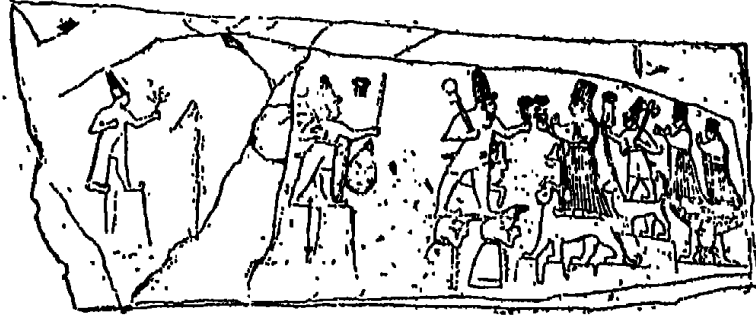
وكان وجود مثل هذه المعادن سبباً في نشاط التبادل التجارى بين آسيا الصغرى وغيرها من الأقطار ، فبعض النصوص تشير إلى انتقال التجار الحيثيين إلى خارج بلادهم كما أن بعض المعادن وخاصة النحاس كانت تصدر إلى بلاد النهرين في مقابل المنسوجات والصفائح .

العلوم والفنون .

بما لا شك فيه أن اللغة الحيثية كانت مثار جدل كثير ولم تعرف صلتها باللغات الهندو أوربية إلا بعد فترة طويلة من البحث ، وقد تبين أنها فعلا من اللغات الهندوأوربية بصفة مؤكدة منذ عهد قريب وإن كانت تحتوى على بعض الألفاظ الأجنبية - ويبدو أن هذه اللغة لم تستخدم في المكاتبات الرسمية إلا قليلا واستخدمت بدلا منها لغات أخرى ، ومع هذا فإن بعض السكتات وخاصة تلك التي تعرف باسم الهيروغليفية

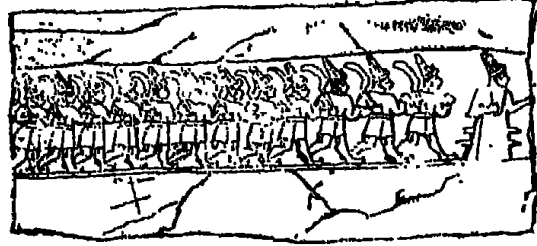
الحيشية لم يمكن تفسيرها تفسيراً مرضياً حتى الآن، بل وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن أمثال هذه الكتابات كانت عسيرة الفهم بالنسبة للحيشيين أنفسهم حتى أنهم أضافوا بعض الفقرات كترجمة حيشية بين السطور لمساعدة الموظفين على تفهم هذه الكتابات - وبالطبع فإن لغة هذا شأنها واختلافها الواضح عن لغة الكلام كانت لا تيسر رقى العلوم والمعارف . والظاهر أن قيام الدولة على أساس مجدها العسكري لم يتح الفرصة لوجود نهضة أدبية كبيرة فقد عثر على قصص بسيطة بدائية ، كما أن بعض الروايات والأساطير والقصص القصيرة أيضاً ترجع إلى أصول بابلية وحمورية - ولم يترك الحيشيون مع الأسف ما يعطينا فكرة عما توصلوا إليه في المعارف المختلفة كالهندسة والفلك والطب وغيرها .

أما في الفنون فإن أقدم ما عثر عاينه لا يستحق الذكر وبخاصة لأنه من إنتاج مستوطنين يرجح أنهم كانوا قبل مجيء الحيشيين - ولا يمكن أن نعتبر المنتجات الفنية حيشية إلا بابتداء عهد الامبراطورية تقريبا . ففن النحت لم يبدأ إلا مع الامبراطورية ومع ذلك فإنه لم ينته بزوالها ، ومن المرجح أن الحيشيين تأثروا في بعض أساليبهم الفنية بما كان متبعاً في شمال بلاد النهرين وسوريا . وقد بلغ فن النقش مرتبة عالية في التطور - ومع هذا فإن الاختتام الاسطوانية التي كانت تستخدم في حفر الرسوم على الألواح الطينية كانت من اختراع بلاد النهرين . وعند بداية المملكة الحديثة ظهرت نقوش غائرة على الحجر يصاحبها خط هيروغليفي . وبما يلاحظ أن الفنان كثيراً ما يلجأ إلى تمثيل الأشخاص متجهين سواء في موكب أو موكبين نحو نقطة واحدة (شكل ٣٤) ، وقد اتبع الفنان طريقة الرسم التي



شكل ٣٤ - اتجاه المواكب نحو مركز واحد

كانت سائدة لدى معظم الشعوب البدائية إذ كان يصور الأشخاص بحيث يبدو الجذع من الأمام والرأس والأقدام من الجانب ، وربما كان هذا الوضع أيسر طريقة للتعبير عن أقرب الأشكال تمثيلاً لصاحبه - وعند تصوير مجموعة من الأشكال كانت القاعدة التقليدية تظهرهم وكأنهم يسرون قدما إلى الأمام نحو مركز معين - وقد أخطأ الفنان الحيثي كما أخطأ الفنان المصري في تصوير حركة الأشخاص بأن جعل الذراع اليسرى تمتد مع القدم اليسرى في حالة جعل هذه الأخيرة تمتد إلى الأمام تمثيلاً للبدء بها في السير وهو وضع غير طبيعي (لاحظ حركة الأشخاص في الشكل السابق) ومن الملاحظ عموماً أن أشكال الأشخاص والحيوانات والكائنات الأخرى تبدو غالباً كأنها مضغوطة الأعضاء أو بعبارة أخرى تتميز بالقصر والامتلاء أو عدم التناسق (شكل ٣٥) ، وربما يوحي ذلك بأن الفنان الحيثي القديم كان خاضعاً لتقاليد لم يستطع التحرر منها ، ومن المرجح أن هذه التقاليد ترتبط ببعض النواحي



شكل ٣٥ - موكب يرى فيه أشخاص يغلب عليهم القصر
وعدم تناسق الاعضاء

الدينية - وبما يؤيد ذلك أن كثيراً من الأشكال التي صورها كانت تبين
أشكالاً خرافية ، ومن هذه تمثال كان يمثل قرصاً مغطى برسوم
هندسية تعلوه رقبة طويلة أو رقبتان أو ثلاثة تنتهي كل منها برأس



شكل ٣٦ - تمثال غريب اختصرت رأساه فلا تبدو منها سوى العينين

وقد تختزل الرأس فتصبح في هيئة عينين فقط (شكل رقم ٣٦) ، وربما كان الحثيثيون يتصورون أن نقوش وتماثيل الكائنات الحقيقية والخرافات التي خلفوها تهيء لهم تحقيق أغراض سحرية ، ومن هذه تماثيل في هيئة أسود وأخرى في هيئة أبو الهول بوجوه آدمية (شكل ٣٧) ، كذلك منها أشكال مجنحة



شكل ٣٧ - تماثيل مجنح لأبو الهول

قد يكون لها أكثر من رأس أحيانا (شكل ٣٨) وبعضها كان يفترض فيها أنها كانت قائمة عند مداخل المعابد أو القصور للحماية والبعض الآخر يفترض أنها تمثل بعض الآلهة .



شکل ۳۸ - نقش حیو من قرقیش

خاصسا - بلاد النهرين

مع أن بلاد النهرين حظيت باهتمام الاثريين والباحثين منذ قتره طويله نسيا إلا أن ماكتب عنها حتى عهد قريب لم يخرج عن كتابات بعض الرحالة الذين شاهدوا أطلالها ووصفوها ، وقد بدأ بعض هؤلاء الرحالة فضلا عن ذلك في نسخ بعض الكتابات التي شاهدوها على اللوحات في بعض الأماكن الأثرية - ومن أهم هؤلاء عالم النباتات « ميشو Michaud » الذي زار العراق وفارس في ١٨٧٢ م وسجل معه أثرا بابليا منقوشا عثر عليه جنوب بغداد حاول بعض الباحثين قراءته دون جدوى - وتوالى بعد ذلك الاهتمام بآثار بلاد النهرين وبذلت جهود كثيرة في دراسة أماكنها وجمع التحف منها ، وقد حاول بعضهم مقارنة ماكتبه هير ودوت وغيره من اليونان بما شاهدوه من أطلال بابل ، وفي عام ١٨٢٧ م قام أحد الانجليز بأول حفائر وعثر فيها على بعض اللوحات الفخارية والاختام الاسطوانية والنقود ، وبعدئذ تتابعت الجهود ولكنها كانت في أول الأمر لا تتم بطريقة علمية بل كان الهدف منها الحصول على مايمكن الحصول عليه من آثار وتحف ، وكان معظم المنقبين من قناصل الدول الأجنبية أو ممثلهم - ومن نهاية القرن التاسع عشر بدأت التنقيبات المنتظمة تأخذ دورها حتى عصرنا الحالي وقد بدأها الألمان في بابل حوالي عام ١٨٩٩ م والأمريكيون في نمر (نيبور) حوالي ١٨٨٨ .

وحسب ما وصل إلينا من معلومات حتى الآن عن الحضارات

التي انتشرت في العراق تبين لنا أنها في نشأتها تماثل الحضارة المصرية من حيث كونها حضارة زراعية في أساسها - غير أننا نلاحظ أنها لم تكن في كل أجزاء بلاد النهرين ذات طابع واحد فقد وجدت اختلافات ميزت بين تلك التي سادت في بقعة عن تلك التي سادت في بقعة أخرى، وذلك نظراً لأن بيئة بلاد النهرين ليست على وتيرة واحدة إذ تختلف في الشمال عنها في الوسط، عنها في الجنوب وهكذا - وبالطبع مادامت الحضارات تنتج عن تفاعل الإنسان ببيئته كما أشرنا في مقدمة الكتاب فإنه لا بد من حدوث اختلافات بين حضارات هذه الأجزاء المختلفة من بلاد النهرين وإن كانت جميعها تشترك في خصائص عامة كما أن بعض مظاهرها قد انتقلت من جهة لآخرى وانتشرت فيها .

ومع كل يمكننا أن نذكر بأن حضارة بلاد النهرين تمثل حضارة بيئة اتسمت بالعنف في مظاهرها الطبيعية وقد أثر ذلك في كل إنتاجها الحضارى - كما أن فترات النهوض والازدهار فيها لا تدل بالضرورة على وجود وحدة سياسية عامة انضوت تحت لوائها سائر أنحاء بلاد النهرين بل ولا حتى سائر أنحاء قسم من أقسامها الرئيسية، ففي أقدم العصور كان الجزء الجنوبي من العراق تسوده حكومات المدن المتنازعه ومع ذلك فقد انتشرت فيها حضارة راقية يكفى للدلالة عليها ما أثر عليه من آثار في مدينة اور وغيرها من المدن التي كانت قائمة في عهد السومريين .

ولا يمكننا أن نتناول بالتفصيل تلك الحضارات التي نشأت في الأجزاء المختلفة وأن ندرس مقوماتها ومظاهرها ، ومع ما أشرنا إليه من انتقال بعض المظاهر من قسم إلى آخر يمكننا مع التجاوز أن نتناول حضارات بلاد النهرين بصورة عامة ، وسنكتفي ببيان أهم ما تتميز به في نواحيها المختلفة .

الأسرة

كان الأساس في الزواج عند البابليين يقوم على مبدأ الزوجة الواحدة في معظم العصور وإن كان القانون يسمح للزوج أن يتزوج بزوجة أخرى في حالة مرض الزوجة الأولى أو إذا ما ثبت أنها عاقرة، ولم يكن ذلك قاصراً على العهد البابلي فحسب بل هناك من الدلائل ما يشير إلى أنه وجد في العصور السابقة واليهود المتأخرة أيضاً - ولم يكن الزواج يعد صحيحاً أو شرعياً إلا إذا ثبت أنه تم بعقد مدون مصدق عليه بالشهود وكذلك الحال بالنسبة للطلاق .

وكانت الخطبة تسبق الزواج وعلى الخاطب أن يقدم هدايا لخطيبته وفي حالة وفاته يحق لأحد أقاربه أن يحل محله في الزواج فإذا رفض والد الخطيبة كان عليه أن يعيد لعائلة المتوفى هدايا التي قدمت منه وفي حالة موت الخطيبة كان للخاطب أن يتزوج إحدى أخواتها وإن لم يتم ذلك كان يسترجع هداياه - وبالإضافة إلى ذلك كان على العريس عند الزواج أن يدفع لعائلة العروس مهراً يصبح ملكاً خاصاً للزوجة ، يرثه أبناؤها كما تقدم عائلة الزوجة . بلوغاً آخر يكون ملكاً للزوجة أيضاً ولكنه يحفظ وديعة عند الزوج يجوز له أن يتصرف فيه ولكنه يعيده لبيها في حالة الطلاق كذلك كان هذا المبلغ يورث إلى أبنائها أو أهلها إن لم يكن لها أبناء في حالة وفاتها - وهناك مبلغ ثالث يدفعه الزوج هدية لزوجته وهو هبة أو منحة منه .

وكان الزوج صاحب اليد العليا في العائلة ومن حقه أن يطلق زوجته

على أن يدفع لها تعريضا أما إذا رفضت المرأة زوجها فكانت تعاقب عقابا شديدا يصل إلى الموت أحيانا - ومن المسلم به أن الزواج لم يكن ليتم إلا برضاء عائلتي الطرفين ؛ وعندما يتم الإتفاق يرسل الخاطب مقدمة المهر إلى والد زوجته المنتظرة ثم يدفع بقية المهر بعد ذلك - وإذا عدل الخاطب عن الزواج لا يكون له الحق في استرجاع المهر أما إذا كان الرفض من جانب عائلة الزوجة فعليها أن تعيد جميع ما وصلها من الزوج .

وبما يلاحظ أنه بالرغم من حفظ كثير من حقوق المرأة وحريتها وخاصة في الشؤون الإقتصادية إلا أن الزوج كان يمكنه أن يتصرف حيالها كأنه المتصرف في حياتها إذ كان يمكنه أن يجعل منها رقيقا بيد دائه إلى أن يستوفى دينه ، كما أنه في حالة ضبطها متلبسة بخيانته يستطيع أن يعفو عنها فيحول دون إعدامها كما ينص القانون على ذلك .

وإذا مات زوج الرجل من أمة فإن هذه تصبح حرة بعد أن تنجب أطفالا كما أن المرأة إذا أصيبت أثناء زواجها بمرض أو عاهة تعوقها عن أدائها واجباتها فإن الزوج لا يحق له أن يطلقها ولكن يترك لها الخيار في البقاء في بيت الزوج أو أن تعود إلى بيت ذويها وتسترجع ما أحضرته من أموال عند الزواج ، كما أن الزوج كان يستطيع الزواج من زوجة أخرى - ومن جهة أخرى كان من حق الزوج أحيانا أن يطلق زوجته دون أن تقترف إثما وفي هذه الحالة تسترجع الزوجة كل أموالها كما يحكم لها بالانتفاع ببعض ممتلكات زوجها ويضم إليها أولادها أيضا . وقد نعتت القوانين البابلية على كثير من شؤون الأحوال الشخصية

ومنها يتضح أن مبادئ تدعيم الأسرة وحفظ حق الأبناء في أن ينشأوا في أسر مستقرة وكفالة حقوقهم في الميراث والهبات وغيرها قد بلغت مرتبة عالية من التنظيم، كما أن أبناء الإمام والأبناء بالتبني قد تمتعوا بحقوق - وإن لم تصل إلى درجة حقوق الأبناء الشرعيين - كانت تكفل لهم حياة لا بأس بها ، ولكن القانون كان من جهة أخرى قاسياً في عقوبة أبناء التبني الذين يتكبرون لمن يتبناهم .

ومن الغريب أن نجد أن بعض النساء كن يكرسن أنفسهن للدعارة في المعابد - والظاهر أن هذه الطائفة وجدت منذ أقدم العصور وكانت تعتبر من السكاهات ولكل منهن حقوق شرعية في أموال أبيها وفي استطاعتهم أن يتزوجن شرعاً ولهن حق التصرف في أملاكهن - وربما كانت وجهة نظر البابليين بصدده هذه العادة أن المرأة كانت تتعبد إلى الآلهة بتقديم جسدها كتنضحية حقيقية من جانبها .

وكان شأن الواج في آشور شأنه في بابل يقتصر في العادة على زوجة واحدة ولكن يلاحظ أن الرابطة العائلية كانت أقل تماسكاً ، ومع هذا فإن الفتاة تصبح مرتبطة ببنت حميها منذ إلتام الخطبة - وكان الواج يتم أحياناً بالشراء ، وفيما عدا هذا نجد تشابهاً كبيراً بين القوانين الآشورية وبين القوانين البابلية المتعلقة بالأحوال الشخصية ، وكانت الأسرة كما هو الحال في بابل تحت ولاية وسلطة الأب أو أكبر الأبناء .

الملك

من المرجح أن بلاد النهرين انتظمت في وحدات سياسية صغيرة منذ عصور سحيقة كانت كل منها تتمثل في مدينة من المدن تحيط بها ممتلكاتها الخاصة من المساحات الزراعية وغير الزراعية وكان حكام هذه الدويلات يلقبون أنفسهم بلقب يعنى «وكيل الإله» ، مما يشير إلى أن سلطة الحاكم كانت مستمدة من سلطة إله المدينة أو أنه يعتبر ممثلاً لهذا الإله حيث يبدو أن المعابد كانت أهم المباني التي وجدت في العصور قبل التاريخية وربما كانت حينئذ تمثل المراكز التي تدور حولها الحياة الاجتماعية في تلك المدن وربما كان كهناتها كذلك هم الذين يتومنون بالإدارة في مثل هذه المجتمعات وبما يؤيد هذا أن الملوك في العصور التاريخية كانوا يعتبرون كهنة الآلهة الرئيسية ونوابها في حكم البشر - وقد ظل نفوذ رجال الدين سائداً إلى أن أخذت هذه المدن أو المجتمعات تتصارع فيما بينها حتى ظهر فيها أفراد يمتازون بالقوة والدراية في الشؤون الحربية فاكسب هؤلاء صفات الزعامة وتولوا الحكم وبالتالي أصبحت لهم الزعامة الدينية أيضاً وصار كل منهم كاهناً أعلى لإله مدينته وأصبح رأس الدولة وصاحب السلطان المطلق فيها - ومع هذا يبدو أنهم لم يصلوا إلى هذه المكانة تلقائياً إذ كانت كل مدينة تختار زعيمها وكان ذلك يتطلب وجود مندوبين عن المدينة في عملية هذا الاختيار ، ولا شك أن المسنين والأعيان والرجال القادرين على حمل السلاح كانت لهم كلمتهم المسموعة في هذا الشأن فأصبح هؤلاء يشكلون مجلسين أحدهما من الشيوخ والأعيان والآخر

من رجال الحسرب - ثم تطور اختصاص هذين المجلسين فأصبعا يهيمنان على كل الشؤون الهامة في الدولة بل وكان من حقها التحكم في انتخاب الملك ، وعلى هذا يمكن اعتبار أن نظام الحكم في هذه المرحلة كان ديموقراطيا .

وما أن أخذت هذه الدويلات في الاتحاد تحت سلطان واحد حتى أصبح هذا النظام غير عملي للبت في الأمور وحسبها فتركزت السلطات جميعها بأيدي الملوك ومعاونيهم أو بمعنى آخر بيد الملك وحكومته أى أصبح نظاما أوتوقراطيا ، وقد استند هؤلاء إلى الحق الإلهي للملك إذ تشير الأساطير إلى أن شارات الملك كانت في السماء عند الإله « آنو » قبل أن تبدأ الملكية في الأرض ، ثم هبطت الملكية وشارات الملك من السماء إلى الأرض وانتخبت الآلهة حكام البشر - وعلى هذا أصبح لهؤلاء مكانة مقدسة بل ربما اتخذوا صفات الآلهة نفسها ولكنهم لم يعبدوا كألهة حقيقيين أثناء حياتهم وإنما عبدوا بعد وفاتهم .

وكان على الملوك بصفتهم مفوضين من الآلهة في حكم الناس أعباء كثيرة إذ كان عليهم حماية الناس والبلاد وقيادة الجيش ونشر العدل وتوفير أسباب الرفاهية لرعاياهم بإقامة المشاريع العامة كما أنهم كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم (شكل ٣٩) ويحيون الشعائر فيها ومع هذا لم تحل قدسيته دون الاعتداء عليهم والثورة ضدهم واغتصاب عروشهم .

وكان البلاط يسير على قواعد صارمة حيث يحظى بشرف المثل بين يدي الملك ورجال الدولة على حسب مناصبهم ومراكزهم ، وكان هؤلاء جسيما يتخلون عن القابهم ومناصبهم وأوصيتهم عند اعتلاء ملك جديد



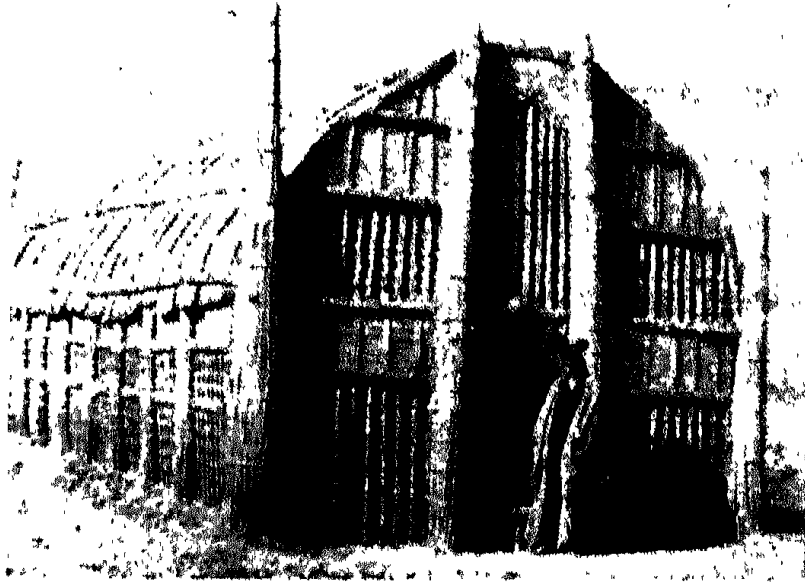
شكل (٣٩) : الملك أورنمو يحمل سلة البناء
لإقامة معبد .

على العرش ولا يحق لهم استعادتها إلا بعد أن يأذن لهم هذا الملك بذلك .
وكان بلاط الملك بالطبع يضم الزوجة التي كانت تشترك في تصريف
شئون الدولة ولها قصرها الخاص وأملاكها التي تديرها بنفسها كما كان
لأولادها بيتهم الذي يختص بخدمه وسقائه وزراعته ونساجه وغير ذلك
من أصحاب الحرف المختلفة - وكان أهم موظفي البلاط ناظر القصر
وأمين خزانة الملك ، وإلى جانب هذين يوجد عدد من الكهنة والموظفين

والحرفيين الذين يقومون بالأعمال المختلفة - وقد أحاط ملوك الآشوريين أنفسهم بحاشية ضخمة من الأخصاء والمترجمين كحامل الختم وأمين القصر ورئيس الحرس وحامل السيف ومدير الموسيقى ورئيس النساخين وغيرهم، فضلا عن عدد كبير من الكتبة ورؤساء الكتبة - كذلك كان لكل من الملكة الوالدة والملكة وولى العهد هيئة من الموظفين على نسق حاشية الملك واسكنها أصغر منها كثيراً بالطبع .

المنازل

كانت المساكن في أول أمرها عبارة عن أكواخ من البوص الذي كان متوافراً كما هو الحال في المناطق الجنوبية من العراق حتى الآن وكانت سيقانها تربط في حزم وتثنى بحيث يصبح شكل السقف مقوساً (شكل ٤٠) ، وكانت هذه المنازل تغطي بطبقة من الطين - وبمعدن استخدم اللبن في بناء منازل صغيرة الحجم ستقفها من البوص المغطى بالطين وقد يدعم هذه ركائز أو تعريشات من أخشاب النخيل - وبعد ذلك عرف الآجر ولكنه لم يتخذ شكلاً موحداً بل كان مختلف الأحجام والأشكال فمنه المستطيل والمربع والمقوس والمثلث الأركان ، ولم يستعمل الحجر إلا في إطارات الأبواب في المعابد والمنشآت العامة ثم استخدم بعد ذلك على نطاق أوسع في عصور متأخرة كما أن القاشاني الذي عرف أيام الآشوريين وشاع استعماله بعد ذلك استخدم في تكسية جدران القصور .



شكل (٤٠) : منزل من منازل جنوب العراق

ومن المعتاد أن المباني كانت تبنى فوق مرتفع يمد لها حتى تكون
بمناى عن الفيضان، وهذا المرتفع كان عبارة عن أربعة جدران غالباً
ما تكون من الآجر يملأ ما بينها الوديم وتتخلله ميازيب لتصريف المياه -
وكان من النادر أن تبنى فوق الدور الأرضى غرف علوية وكانت
البيوت متجاورة لا تترك بينها ممرات أو حارات - ومع هذا كانت
المدن تخضع لتصميم معين يحدد شوارعها الطولية والعرضية . وبالرغم
من عدم العثور على سقوف للمباني التي كشف عنها إلا أنه لا بد وأنها كانت
من أفلاق النخيل أو جذوع الأرز التي يؤتى بها من لبنان ، وكان

من التادر وجود نوافذ بالنازل غير الابواب سوى بعض الفتحات الصغيرة في أعلى الجدران.

وفي آشور لم تكن المرتفعات التي تمتد لإقامة المباني عليها ضرورية لأن البيئة هنا غير ممرضة لخطر الفيضانات كما هو الحال في الجنوب ، ومع ذلك كانت تستخدم لكن تزيد من روعة المبنى - وكان اللبن يستعمل في بناء الجدران قبل أن يجف حتى تماسك طبقاته دون استعمال المونة ، أما بالنسبة للقباب فإن اللبن التام الجفاف كان يستعمل في بنائها وكانت الفجرات فيها تملأ بالطين .

والتصميم العام للنازل كان لا يخرج عن فناء أو ساحة مكشوفة يحيط بها عدد من الحجرات تستمد الضوء والهواء منها كما كان يستعان في تهوية هذه الحجرات كذلك بأنايب فخارية مشقوبة ، وكانت جدران البيوت تطل عادة من الخارج والداخل .

وقد عثر على نماذج مختلفة لاثاث المنازل وخاصة من الاواني الفخارية والمعدنية والمسارج - وتذكر النصوص كثيراً من أنواع الاسرة والكراسي وآلات الموسيقى وغيرها - وفي عصر الاشوريين خاصة ازدادت فخامة الاثاث وتنوعت أشكاله ، وكثيراً ما كان يصنع من أخشاب ثمينة كما كان يحلى بمنحوتات تمثل كائنات مختلفة .

الملبس والزينة

يبدو أن أول زى عرقة السومريون والآكديون كان يشبه إلى حد بعيد ماساد في مصر في أقدم العصور إذ أنه كان عبارة عن نقبة من لون واحد تمتد إلى الركبتين ، ولكنها كانت تحلى بخيوط أو شبكة تنتهى بأهداب في صفوف منتظمة - وهذا الزى هو الذى يظهر به الآلهة والملوك في أقدم النقوش والتماثيل (شكل ٤١) ، وقد ظل الأفراد

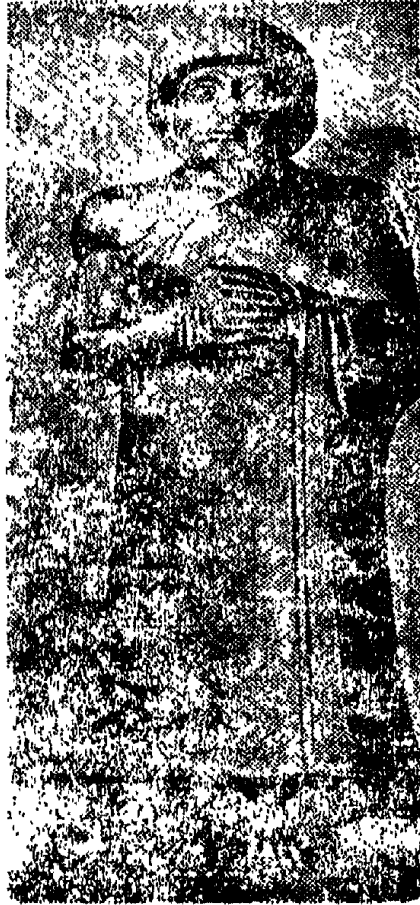


شكل (٤١) : نقبة يلبسها الرجال وتنتهى بصفوف
منتظمة من الأهداب

العاديون يستعملون زيا مماثلا له (وإن كان أبسط منه) - وهو أيضا من لون واحد وله أهداب عادة .

وقد أضيفت إلى هذه النقبة قطعة أخرى تدور حول الكتف اليسرى - وبمرور الزمن زاد حجم النقبة حتى أصبحت تصل إلى قرب القدمين وتجمع بين النقبة والقطعة التي تغطي الكتف اليسرى القديمتين ، إذ أنها كانت تمتد إلى أعلى بحيث تربط تحت الإبطين وتدور حول الذراع اليسرى بينما تظل الذراع اليمنى عارية (شكل ٤٢) - وقد أضيف إلى هذا الزي شال (ملفعة) مزركشة أو منسوجة بألوان متعددة متناسقة ثم أخذت تظهر فيها زخارف متأثرة بالفن الحيثي وهذه تمثل الزهور والأشجار والحيوانات والمردة وغيرها - وكانت تلك الملفعة تثبت بحزام أو خيوط مجدولة وحمالة ولها أهداب في نواحيها الأربعة ، وقد تختلف أشكالها تبعا لاختلاف مكانة صاحبها .

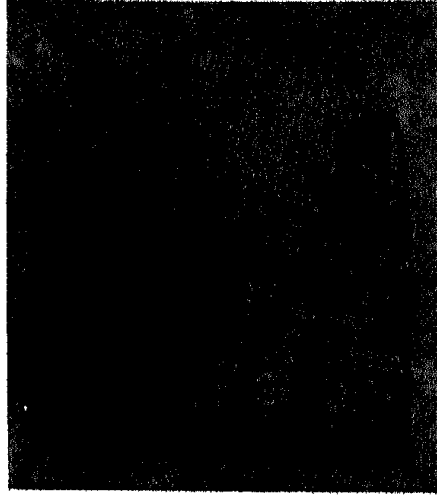
أما غطاء الرأس فلا يظهر إلا في نقوش الآلهة والملوك حيث كان الآلهة يميزون بقلنسوه مزينة بقرون تتقابل أطرافها الأمامية كل اثنين معا (شكل ٤٣) ، كما أنهم كانوا يميزون أحيانا برموز أخرى كالأسلحة التي يمسكون بها أو برموز أخرى - أما الملوك فقد يلبسون تاجا أو عمامة ، وهذا التاج كان على شكل قمع مخروطي أضاف إليه الأشوريون سن مدبب كما كان يحيط به إكليل مدبب في أعلاه أحيانا (شكل ٤٤) - وقد يظهر الملوك أحيانا عراة الرؤوس حيث تكون حلقة غالبا وأحيانا يكون الشعر طويلا معقودا على القفا - ولم يستعمل عامة الناس غطاء للرأس عادة ولسكنهم كانوا يربطون شعرهم أحيانا بمصابة بينما



شكل (٤٢) : تمثال يرى فيه الزى السابع
الذى يكشف أحد الذراعين

يستعمل الكهنة شعراً مستعاراً يثبتة لإكليل - أما النساء فكانت عنايتهم
بشعورهن ملحوظة حيث يصفقن في أشكال مختلفة ويربطونها بشرائط
وشباك كما يستعملن عصا ذات أهداب أيضا .

وكان الرجال والنساء يضعون عقوداً أو توائم حول رقابهم من



شكل (٤٣) : حورابى أمام الإله الذى يلبس تاجا
به قرون يتلاقى كل اثنين منها معا

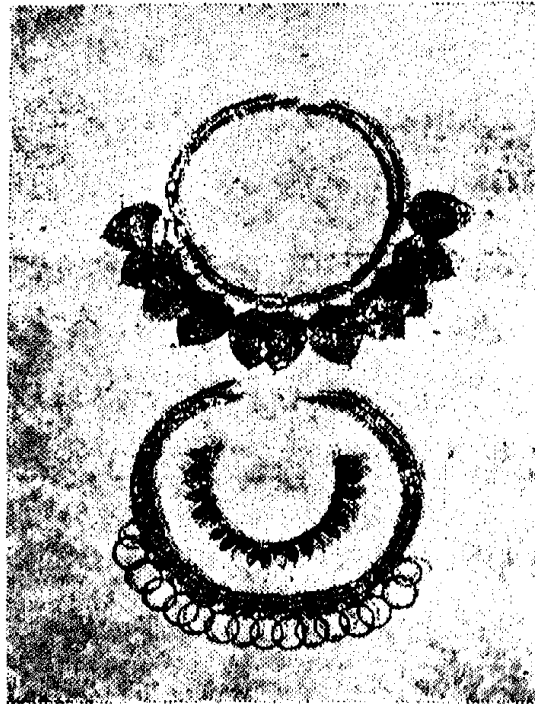
الأصداف أو الأحجار شبه الكريمة ، وفى عصر الآشوريين انتشر استعمال الذهب والفضة والنحاس المذهب وكانت الخرزات كبيرة الحجم نسبيا وهى إما بيضاوية أو اسطوانية الشكل تصنع أحيانا من رقائق الذهب وتحليها بمض الوغارف وأحيانا أخرى تصنع من أحجار ثمينة أو من البلور الصخرى التى تحليها حلقات أو خيوط من الذهب (شكل ٤٥) .

كذلك استعمل أهل بلاد النهرين الخواتم والحلقات والأساور التى تلبس حول المعصم أو فى أعلى الساعد ، وهذه الأخيرة كانت غالبا



شكل ٤٤ - شلنصر الثالث يضافح ملك بابل
وهو يلبس تاجا مخروطى يعلوه سن مدبب

مفتوحة وثقيلة ينتهى كل من طرفيها بشكل رأس حيوان ، وهذه كانت
تصنع غالبا من البرونز - وكان عامة الشعب بالطبع يكتفون بعقود



شكل ٤٥ : عقود من الذهب

وأساور تصنع غالبا من مواد أقل قيمة ولكنهم اجتهدوا في أن يجعلوا منها محاكاة لنظائرها الثمينة - هذا وقد استعمل أهل بلاد النهرين الزيوت والدهون العطرية بصفة دائمة .

الإدارة

أشرنا فيما سبق إلى أن الماسكية في دولة المدينة (كما تمثل في أقدم عصور بلاد النهرين) كانت تسير وفق نظام ديموقراطي ، ثم أصبحت - بعد أن تطورت هذه إلى دولة الماسكية - تسير وفق نظام أوتوقراطي (أنظر أعلاه ص ٢٠٠) فصارت السلطات جميعها بيد الملك وحكومته إستناداً إلى ما أشارت إليه الأساطير من حق إلهي للملك والحكام ، ولايسرى هذا بالطبع إلا على من يتولى الحكم فلا تشير هذه الأساطير إلى ألوهية الملوك والحكام بخلاف ما اصطلاح عليه المصريون من أن فراعنتهم كانوا من نسل الآلهة أو من الآلهة نفسها - غير أننا نلاحظ بأن التعاليم الدينية في بلاد النهرين كانت توحي بأن الآلهة هي التي تنتخب الحكام الذين يمثلون وكلاءهم في الأرض ، وقد تطور الحال بعد ذلك فأصبح هؤلاء يتمتعون بقدسية جعلتهم ينتحلون بعض صفات الآلهة نفسها وسبقوا أسماءهم بعلامة التأليه ولكنهم لم يصلوا إلى مرتبة الآلهة الحقيقيين .

ومع أن بعض الملوك ادعوا أنهم أبناء بالتبني للآلهة فإن كل ملك جديد يدعى أن الآلهة قد اختارته لكي يكون ملكا على البلاد^(١) . وكان على الملك

(١) طه باقر « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » (بغداد ١٩٥٥) ج ١ ص ٣٨٥

بصفته مفوضاً من الآلهة واجبات متعددة ، ولذا كان بالطبع يحتاج إلى جمهور كبير من المجاونين إذ كان له جملة وزراء يرأسهم وزير وهذا الرئيس يختص غالباً بشئون السياسة الخارجية - ومن أخطر الوزراء منصباً وزير المالية إذ أنه كان مسئولاً عن الشؤون الاقتصادية المختلفة ، وبلى هؤلاء الوزراء أهمية قواد الجيش الذين علت مكاتهم بعد أن زادت جيوش الملوك قوة وعداداً .

وكان الملك يعين حكماً وولاً للأقاليم، وكان هؤلاء في أقدم العصور أشبه بأمرأه الاقطاع إذ كانوا يرثون مناصبهم ولكن زال عنهم هذا الحق فيما بعد حيث أصبح الحكم المركزي قويا - كما أن الملوك كانوا يعينون قضاة مدنيين بدرجات متفاوتة إلى جانب قيام الكهنة بتطبيق أحكام الشرائع وتفسير نصوصها في المعابد .

ويمكننا أن نعتبر طائفة من موظفي الخاصة أو البلاط كموظفين عموميين في نفس الوقت حيث كان هؤلاء يقومون بهم رسمياً إلى جانب مراكزهم في البلاط ومن هؤلاء مندوبين للملك يرسلهم كسفراء خصوصيين ليمثلوه لدى الدول الأجنبية ويصححهم عادة مترجمون وكتابة وقضاة .

ومع وجود هذه الطوائف من الموظفين كان نشاط الملوك في الاضطلاع بهمام الدولة المختلفة غير محدود وتبين في آثارهم مدى تنوع الاعمال التي قاموا بها كما تبين مدى وقوفهم على مختلف شئون الدولة حتى في بعض الامور التافهة ، فكثيراً ما نجد أنهم كانوا ينظرون في بعض شكاوى الافراد ويعيدون الدعاوى إلى المحاكم لإعادة النظر فيها استيفاء لبعض الاصول المتبعة ، كذلك كانت بعض القضايا لا يبت فيها إلا بقرار من

الملك شخصيا - وكان على الملوك أيضا أن يقوموا بمشروعات عمرانية مختلفة مثل تطهير الأنهار وشق القنوات وبناء المعابد ، وهم الذين يفسرون ما تريده الآلهة وفي نفس الوقت يمثلون الرعية لدى الآلهة وهم الذين يرأسون الطائفة الدينية ويعينون رؤساء الكهنة - وإلى جانب هؤلاء الآخرين كانوا يعينون بعض الكهنة والعرافين الذين كانوا يرسلون إلى جهات مختلفة لرصد النجوم ويرسلون إلى الملك بتقاريرهم ؛

العسكريه

تدل النقوش الأثرية من مختلف العصور على أن الملوك كانوا دائما على رأس جيوشهم ، وهذه الجيوش لم تبدأ كهيئات نظامية في أغلب الظن إلا من أواخر العصور قبل التاريخية إذ ربما كانت حاجة المدن إلى الدفاع عن نفسها هي التي أدت إلى ظهور الجيوش المدربة المستديرة - وكانت الخدمة العسكرية تعتبر د خدمة الملك ، فكانت بعض الأراضي تخصص للداخلين فيها ولكن - مع جواز إعطاء هذه الأراضي إلى الأبناء على شرط القيام بخدمة الملك فإن مثل هذه الأراضي - لم يكن من الجائز بيئها أو رهنها ، والظاهر أن ضباط الجيش كانوا يعتبرون من ضرورات الأمن في المدينة حيث كان المعبد يقوم بدفع الفدية عنهم في حالة أسرهم إذا لم يتمكنوا من دفعها بأنفسهم بل كانت المدينة كذلك ملزمة بدفعها إذا لم يوجد في المعبد المال اللازم لذلك .

وكان الملك يسير إلى الحرب على رأس جيشه ويلبس خوذة شبه مخروطية يتدل منها ما يستر العنق من الخلف ويتساح بحرية وسلاح آخر

عبارة عن مقبض خشبي ربط لإليه نصل مقوس بسيور من الجلد أو حلقات -
ومن الأسلحة التي شاع استخدامها منذ أقدم العصور فأس القتال ،
وتبين لنا أقدم النقوش أن الجيش كان ينقسم إلى فريقين من المحاربين :
أحدهما مسلح بأسلحة ثقيلة يحمل أفرادها حرايا كبيرة ويتمض كل منهم
حربته بكلتا يديه ، وهؤلاء يتقدمهم صف من حملة الدروع والثاني مسلح
بأسلحة خفيفة عبارة عن فأس ورمح - ويبدو أن مهمة الفريق الأول
هي الهجوم عند الالتحام مع الأعداء أما مهمة الفريق الثاني فكانت المطاردة .

وفي العصر البابلي القديم كان الملوك يتسلحون ببلاطة سلاحها ضيق
وقوس مزدوج وسهام ، أما قواده فقد يتسلح الواحد منهم بحربة وبلاطة
ذات نصل محدب أو بلاطة فقط بينما يحمل فريق المحاربين حرايا أو قسيا
أبسط من قوس الملك أو أن يحمل الواحد منهم بلاطة وحربة أو بلاطة
وعلم - ويغلب على الظن أن الخوذات التي كان يلبسها الجنود كانت تصنع
من الجلد أو البرونز ، أما الجعاب فكانت تصنع من الجلد والصوف .
وقد وجدت عربات حربية تجرها الحمير والخيول الوحشية ، ولم تستعمل
الخيول المستأنسة إلا من عصر متأخر نسبيا - وكانت هذه العربات ثقيلة
عجلاتها صماء ولم تظهر العجلات الخفيفة إلا في حوالي الألف الثاني ق . م
وكان رؤساء الجيش إلى جانب قيادتهم للجنود مسؤولين عن الإشراف
على السخرة التي تتطلبها المشاريع العامة ويبدو أن طائفة من الناس كانوا
ملزمين بمثل هذه الاعمال وبالخدمة العسكرية الإجبارية ، وكان لهؤلاء
قوادهم ورؤسائهم ولايستطيع أحد الملزمين التهرب من أداء الالتزام
(خدمة الملك) وإن كان الأمر قد تطور فيما بعد فأصبح في الإمكان
أن يحصل على الإعفاء في نظير دفع ضريبة سنوية .

ومن المرجح أن طائفتين من القواد أو المشرفين كان أفرادها يكلفون باستدعاء الرجال للخدمة ، فبعضهم يختص بجمع المجندين لوظائف الجيش والبعض الآخر كانوا مكلفين بأعمال البوليس - ويمنح المكلفون للجيش أملاكاً من أموال الدولة في هيئة معاش مدى الحياة كما أن المكلفين بأعمال البوليس كانت لهم امتيازات شخصية وامتيازات بالنسبة لأملآكهم لا يمكن للحاكم أن يتعرض لها وإلا كان مصيره الإعدام - وإذا ما تغيب أحد هؤلاء المكلفين سواء من الجيش أو البوليس فإن أبناءه يديرون أملاكه ، وإذا كان هؤلاء صغاراً فإن الزوجة تدير هذه الأملاك في نظير تلك الإيراد - ومن جهة أخرى كان من الواجب أن تحفظ هذه الأملاك في حالة جيدة وإن تعمد مالكها الذي منحت له في نظير التكليف إهمالها أو احتياها آخر لمدة ثلاث سنوات فلا يجوز إعادة تملكها ويصبح واضح اليد عليها هو المنتفع الشرعى .

وكان ملوك آشور قواد حرب أكثر منهم رجال دولة ولكنهم كانوا لا يخرجون في حملاتهم دون استشارة الآلهة عن طريق العرافين والمنجمين وبعد أن يتلقوا تقارير عن الجهات التي يرمعون مهاجمتها ومدى النجاح المتوقع للحملاتهم ، كما أنهم كثيراً ما قاموا بحملاتهم بناء على أمر إلهي يترأى لهم في أحلامهم - وحينما لا يكون الملك على رأس جيشه كان أكبر موظفي البلاط هو الذى ينوب عنه في قيادة الجيش .

ومن الملاحظ أن الجيوش الآشورية أدخلت نظام الفرسان الذين كانوا يركبون الخيل دون سرج في أول الأمر ويصحب كل منهم خادم راكب أيضاً ثم تقدمت الفروسية فوضعت السروج فوق الخيل واستغنى

عن الخدم - وفضلا عن ذلك وجدت عربات حربية يجر كل منها زوج من الخيل ويركبها ثلاثة رجال (كالعربات الحثية) أحدهم للقيادة والثاني مسلح بحربة أو قوس والثالث يحميها بدرع - أما مشاة الجيش فمنهم من يتسلح بالاقواس ومنهم من يحمل الرماح والدروع ويلبسون خوذات مخروطية ذات زوائد جانبية لحماية الأذنين ، كما أنهم يتدثرون بزرد يغطي الصدر والجزء العلوي من الساعدين ويلبسون أحذية طويلة وكل منهم مزود بسيف قصير لاستخدامه عند الالتحام مع العدو عن قرب - وإلى جانب هؤلاء كان الجيش يضم عمالا من الجنود يحمل كل منهم بلطة وممول لكي يقوموا بمهام الهدم .

هذا ويلاحظ أن بعض النقوش المتعلقة بحصار بعض المدن تبين أن الآشوريين استخدموا آلات للهدم تسمى سقوف من أغصان متشابكة كما استعملوا أبراج عالية تسير على عجلات إلى أن تصل إلى قرب السور المحاصر ، ويعتلى هذه الأبراج رماة السهام الذين يرمون بسهامهم الجنود الذين يعتلون الأسوار للدفاع عن المدينة المحاصرة .

وقد اشتهر الآشوريون بالقسوة في حروبهم وفي معاملة أعدائهم والمدن التي تسقط في أيديهم ، وكانوا بعد انتصاراتهم يبيحون لجنودهم البلاد المفتوحة فيعملون فيها النهب والتدمير كما أنهم كانوا يبشون الإرهاب بين الجهات التي يريدون إخضاعها لسيطرتهم ، وكثيرا ما كانوا يقومون بتخريب المحاصيل وخرق القرى - وهم أول من استن سنة نفي سكان البلاد التي تخضع لهم وإحلال سكان آخرين في مكانهم ليزجوا بين الشعوب الخاضعة لهم حتى تفقد صفاتها القومية ، فهم الذين نفوا سكان إسرائيل إلى ميديا وأحلوا في مكانهم مواطنين آخرين من جهات مختلفة .

الديانة

ليس من السهل أن تعدد العناصر الأصلية في ديانات بلاد النهرين القديمة ، إلا أنه لا شك في أن عناصر الكون كانت تشكل معبودات رئيسية في اللاهوت - وقد نسب أهل بلاد النهرين القديمى إلى معبوداتهم بعض الصناعات والعواطف الإنسانية ولكنهم ميزوهم عن البشر بالخلود وبأنهم كانوا خيرين دائما ، ولم يكن الشر من عملهم بل من أرواح خبيثة تفوق البشر ولسكنها دون الآلهة .

وقد تخيل هؤلاء القوم أن العالم قبل نشأته كان يمثل فراغا تميز بمصرين مختلفين من الرطوبة : أحدهما الماء العذب والآخر يمثل الماء المالح وقد ولدت منهما كل الكائنات التي بدأت بمعبودين لم يلعبا دوراً ملحوظاً ، ثم بعد فترة أنجبا كذلك معبودين آخرين يمثلان السماء والأرض ومن هذين الأخيرين جاء ثلاثة آلهة آخرون هم الثالث الأعظم لمجموعة الآلهة البابلية « أنو - إنليل - إيا » وقد اعتبر الإله « أنو » الإله الأعظم منذ أقدم العصور ، وكان يحكم في السماء ولكنه لم يحتفظ بسلطته العليا كاسمى الآلهة حينما انتقلت السيادة من سومر إلى بابل إذ أصبح إله هذه الأخيرة « مردوك » على رأس الآلهة فحل محل الإله أنو - وقد اعتبر الإله « إنليل » سيد الأرض الذى استطاع أن يصل إلى مكانة أنو بل وأصبح أيضا أباً للآلهة ، وهو مستشارها الذى أحدث الطوفان كما كان يعد سيد الكائنات الإنسانية الذى عهد بهم إلى أمراء يقودونهم ويحكمونهم - أما الإله الثالث وهو « إيا » فكان يعد سيد الأرض يحكم في مسكن المعرفة ، أى المياه التى تحمل الأرض وتجبط

بها ، كما كان إلهما للحكمة خلق الإنسان من كتلة من الطمي نفخ فيها نسمة الحياة ، وهو الذى أنقذ البشر من الفناء فى زمن الطوفان وعلمهم مختلف الصناعات ومنح الذكاء للملوك.

ويلى هذا الثلاث الثلاث آخر يتألف من إله القمر وإله الشمس وإلهة هى الزهرة « عشتر » - وكان إله القمر يقيس الزمن ويعاقب المذنبين من الملوك بقضاء حياتهم فى التأوهات والدموع ، وكان إله الشمس هو القاضى الأعظم الذى أملى قوانين العدالة على الملوك ، أما « عشتر » فكانت إلهة الحرب وإلهة اللذة تسعى لغواية البشر كما أنها كانت تعد أخت إله الشمس وفى نفس الوقت أخت إلهة العالم السفلى .

ولإى جانب هؤلاء جميعا كانت كل قوى الطبيعة وكل قوى الخير تؤله عند السومريين والبابليين كما كان لكل مدينة معبودها حتى أصبح عدد المعبودات كبيراً جداً - وبالطبع كان تفوق معبود على الآخرين يجعل من هذه المعبودات الأخرى معبودات مظاهر له وينسبون إليه قدرة لا توجد لدى الآخرين كما أنه يصبح المتحكم فى تقرير المصير كذلك عبد السومريون والبابليون عدداً من الأبطال الخرافيين تظهر، أسماء بعضهم فى التوائم الماسكية كملوك فى العصور السابقة للتاريخ ، كما أن بعض الأمراء انتحلوا الصفات الإلهية أثناء حياتهم ولم يختلف الدين الآشوري عن البابلي فى روحه ولكنه تأثر بعض الشيء بالمظاهر الحربية التى سادت عهد الآشوريين ، وبالطبع احتل إلههم آشور (شكل ٤٦) مكانة أعظم إله فى بلاد النهرين ونسب إليه الخلق ، وهو من جهة أخرى كان يعد إلهاً حربياً أخضع الناس جميعاً لسلطانه وكانت زوجته عشتر الآشورية تحتل المكانة التالية لمكانته كما أنها كانت تعد بطلة المعارك وحامية آشور .



شكل ٤٦ : الإله آشور

ومن الجدير بالذكر أن بعض الطقوس كانت تحوى أناشيد تنص على الاعتراف بكثرة الذنوب كما تنص على أن هذه الذنوب ربما كانت غير مقصودة بالنسبة لآلهة قد لا يعرفها من يتلو هذه الأناشيد وكانت التقوى الدينية تكافأ بالعمر الطويل في الحياة الدنيا - ومن الغريب أن الجزاء في الآخرة لم يكن واضحاً بل كان يظهر في النصوص الدينية ما يشير إلى أن المرء يلقى جزاءه من ثواب وعقاب في حياته الدنيا ، ومع هذا فقد كان الاعتقاد سائداً بأن ظل الميت يفترق عن جسده عقب الموت مباشرة ويتحول إلى روح شريرة مالم تدفن الجثة - وعلى هذا فإن الحرمان من الدفن كان يعد عقوبة قاسية ، وبالرغم من ذلك فإن مصير الموتى لم يكن واحداً وكان أقصى ما يطعمون فيه أن يُستريحوا في العالم السفلى فوق أسرة ويشربون ماءً نقياً أو أن ينالوا عون آبائهم وأزواجهم إن كانوا ممن سقطوا في المعارك - أما ما عداهم فإن مصيرهم

كان محزننا تأكلهم الديدان ويملاؤهم الغبار، وهذا بخلاف ما اعتقده المصريون من أن الأبرار كانوا ينعمون بصحبه الآلهة ويعيشون في حقول ديارو، أما سواهم فإنهم يلقون جزاءهم من العذاب (أنظر أعلاه ص ٨٥، ٨٦).

وقد أدى التفكير في نشأة الوجود إلى ظهور أساطير مختلفة وصلت إلينا منها بعض النماذج - وتعد الأسطورة البابلية أقدم نموذج وصل إلينا كأسطورة طويلة، وهي مدونة على سبعة ألواح طينية تعرف لدى علماء الآشوريات باسم «الواح الخليقة السبعة» وهي تحتوى على نحو ألف بيت تقريبا وتشير إلى أنه لم يكن في البدء سوى الماء العذب «الإله ابسو» والماء المالح «الإله تيامه»، وكانا مختلطين ثم ولدت منها الآلهة الآخرين متعاقبين - وفي ذلك ما يشير إلى أن المادة (المياه) أزلية وهي في نفس الوقت الإلهين اللذين جاءت منها الآلهة ومن أعقابهما أعظم الآلهة لدى البابليين وهو «مردوخ»، وقد أشرنا إلى ما تضمنته هذه الأسطورة عند الكلام على ما تخيله القوم عن نشأة الآلهة (أنظر أعلاه ص ٢١٦).

ويرى بعض المؤرخين أن هناك تشابه واضح بين هذه الأسطورة وبين ما جاء في سفر التكوين من أنه في البداية لم يكن يوجد سوى هيولى مظلم من الماء، ولكن الأسطورة تختلف عن الكتب السماوية عموما في أنها جعلت المادة أزلية سبقت أى شيء آخر، ومع كل فإن الأسطورة تمكس صورة لما يدور في بيئة بلاد النهرين من صراع بين عناصر الطبيعة وبين الإنسان وبيئته.

ومن الأساطير التي اشتهرت في تاريخ العراق القديم الاسطورة المسمروفة باسم « ملحمة جلجامش ، أو « الطوفان » - ومع أن جلجامش قد ورد ذكره كأحد ملوك الأسرة الأولى في الوركاء إلا أنه صار موضوعاً لعدة ملاحم وقصص كلها تصف أعماله ومغامراته وبطلته الخارقة، وأشهر هذه القصص تلك التي تتصل بالطوفان وهي أطول ملحمة في الشعر البابلي حيث كتبت على ١٢ لوحاً من الطين تحوى نحواً من ٣٥٠٠ سطراً وهي تتلخص في وصف جلجامش بالحكمة ومعرفة أخبار الأئمنة السابقة للطوفان وأنه سافر أسفارا بعيدة ، وهو بطل الآلهة الذي خلقتة في أحسن صورة وقوة ، ثلاثه إله والثلاث الباقي بشر - وقد تمسف مع أهل الوركاء الذين أستغاثوا بالآلهة وهذه خلقت بطـلا قويا هو « أنكيدو » ليكون منافسا لجلجامش ، وتحدث بين الاثنين معركة ينتصر فيها جلجامش ثم يصبجان بعد ذلك صديقين - ثم يذهبان معا في سفر طويل للحصول على الشهرة والمجد وينجحان في ذلك أولا ثم يعودان إلى الوركاء ، وهنا تحاول الإلهة عشتار إغواء جلجامش ولكنه يجيد عنها فطابت إلى والدها « أنو » إله السماء عقاب جلجامش فخلق هذا « ثور السماء » الذي أخذ يفتك بأهل الوركاء - وانبرى له الصديقان « جلجامش وأنكيدو » يصارعانه حتى قضيا عليه واحتفلا بنصرهما .

ثم تدور الدوائر عليها وقد غضب عليها الآلهة فيمرض « أنكيدو » ويموت وهو في ريمان الشباب ويحزن عليه جلجامش ثم يتماسكه الخوف من الموت ويفكر في التخلص منه لكي ينال حياة خالدة - وهنا يذكر جده الخالد « أوتونبشتم » فيذهب إلية ليسأله عن سر الخلود ، ويصل

إليه بعد أهوال وبعد أن تنصحه إحدى الإلهات بالانصراف عن فكرة الخلود لأنه من البشر وأن نصيبه الموت - وما أن يصل إلى جده حتى يسرد له هذا الأخير قصة الطوفان ويشير فيها إلى أن الآلهة عزمت على إحداث الطوفان ، وقد حابه الإله « إيا » ، فأخبره بذلك قبل حدوثه ونصحه بعمل سفينة من سبع طبقات قسم كلا منها إلى تسعة أقسام وجعلها بما تحتاج من مؤن .، الخ وبعد أن نجا من الطوفان قدم قربانا إلى الآلهة ، وصعد الإله « أنليل » إلى السفينة وأخذ بيد « أوتو - نبشتم » وأخرجه من السفينة هو وزوجته ثم أمر بأن يصبحا إلهين - وبعد أن يصل « أوتو - نبشتم » إلى هذا الحد من قصته يوجه كلامه إلى جلجامش قائلا « من ذا الذى سيجمع الآلهة من أجلك حتى تحصل على نعمة الخلود وبعد أن يفشل جلجامش فى الاختبار الذى أخبره به « أوتو - نبشتم » تشفق زوجة هذا الأخير على جلجامش وتشفع له فيصف له زوجها نبات الخلود ومكان وجوده - وبعد أن يحصل جلجامش فعلا على هذا النبات ويسر به يتخذ طريقه للعودة به إلى مدينته لينميه ويستفيد به الناس - إلا أنه يصادف فى طريق عودته بركة ماء نزل إليها للاستحمام وإزالة غناء السفر ، وفى أثناء ذلك اجتذبت رائحة النبات الحية فاخطفتسه وبذلك حصلت على قوة تجديد الشباب لأنها كلما شاخت تنزع جلدها فيعود إليها الشباب .

وتذكر رواية أخرى من هذه الأسطورة أن جلجامش قام بأسفار بعيدة ليخلد له اسما مع أسماء الآلهة فى « أرض الحياة » - كما أن جزءا من نصوص هذه الأسطورة يبدو أن لاعلاقة له بسياق المغامرة التى قام بها

جلجامش حيث أنه يأمر « أنكيدو » بأن ينزل إلى العالم السفلى كي يحضر له آلتين من الخشب كان قد صنعها وسقطتا منه فيه - وبعد أن ينزل « أنكيدو » يتضرع جلجامش إلى الآلهة كي تبعثه من عالم الأرواح لينبئه عن أحوال العالم السفلى ، فتصعد روح « أنكيدو » وتمطيه صورة قائمة عن حالة أرواح الموتى إذ أن غالبيتها سجيئة ، طعامها التراب والطين بينما تتمتع القلة منها وخاصة من مات أصحابها في الحرب ميتة الأبطال ومن تركوا ذرية لهم - بمعاملة خاصة حيث يجدون الماء والقوت .

ومن الأساطير ما يعكس صورة عن أفكار القوم فيما يتعلق بأصل الشر وطبيعة الانسان وعجزه عن إدراك الخلود ، ومن هذه أسطورة « آدابا » الذي يرى بعض المؤرخين أنه يشبه « آدم » (١) وإن كان لا يبدو من هذا التشابه إلا مخالفة « آدابا » لأمر الإله « آنو » بأن يأكل من الطعام (طعام الخلود) الذي قدمه إليه بناء على نصيحة الإله « إيا » له - أما فيما عدا هذا فهي تبين ميل الإنسان إلى الانتقام وأن نصيبه الموت .

وهناك أسطورة أخرى تعرف بأسم أسطورة « إيتانا » ، وهي تتلخص في أن الملكة نزلت من السماء وبعد أن استقرت فيها لم يكن لأحد الملوك ولدا فتضرع إلى الآلهة كي تهبه ولدا يرثه - وتمضى الأسطورة في وصف تكليفه بعمل خير لقاء حصوله على بغيته وكيف أنه طار إلى السماء للحصول على « نبات الولادة » بمساعدة نسر كان قد سبق أن أنقذه

(١) طه باقر المرجع السابق ص ٤٧٢

من مآزق كاد أن يموت فيه ، وفيها وصف لما شاهده «إيتانا» عند طيرانه من معالم الأرض - ومع أن بقية الأسطورة مفقودة إلا أنه يبدو أنه نال بغيته وعاد إلى الأرض سالماً

القضاء

اشتهرت بلاد النهرين بما عثر عليه فيها من قوانين تعد أقدم ما عرف حتى الآن إذ لم تصلنا أية مجموعة قانونية تسبقها في التاريخ ، ومع أن بعض الإشارات والمواد القانونية وردت إلينا في بعض النصوص المصرية وهي توحى بوجود قوانين كانت متبعة إلا أن هذه القوانين لم تصلنا نصوصها في أى مجموعة تشريعية حتى الآن - وتدلل الدلائل الأثرية على أن بلاد النهرين ظهرت بها شرائع مدونة منذ أقدم عصورها ، وربما يرجع بعضها إلى أصول كانت موجودة في عصور ما قبل الأسرات - ويتبين ذلك من الأصول القانونية التي كانت متبعة منذ النصف الثاني لعصر الوركاء على الأرجح حيث نجد أن بعض الألواح الطينية التي تلتقى لتلك الفترة تحتوي على كثير من المعاملات التجارية والإدارية، كما أن من بينها ما يدل على سجلات الأراضي الزراعية وتثبيت ملكية الأراضي ومنها ما يتعلق بمستندات تجارية وغيرها .

ومن الجائز - حسب ما وصلنا حتى الآن - أن نعتبر «أوركاجينا» ، ملك «لجش» أول مشرع في تاريخ البشر حيث وردت بعض الإشارات من عصر فجر الأسرات ومن العهد الأكدي تشير إلى إصلاحاته الاجتماعية وتنظيمه للإدارة وإزالته للظلم عن الطبقات الفقيرة ، كما وجدت بعض النماذج لوثائقه القانونية .

وفي عهد الأكديين بالذات يمكننا أن نتبع وجود طبقة خاصة من القضاة المدنيين وكان هؤلاء يتمتعون بمكانة سامية ، كما نقيبن أن «سرجون» الأكدي أدخل نظام القسم باسم الملك بين المتعاقدين عند تثبيت نصوص العقود .

ومن عهد أسرة « أور » الثالثة وجدت وتأتق قانونية متنوعة كما عثر على مجموعة قانونية من عهد مؤسسها « أورنمو » وهي وان كانت غير كاملة من الناحية التشريعية إذ لم يرد منها إلا المقدمة وبعض المواد القانونية إلا أنها تسبق شريعة « حورابي » بنحو ٣٠٠ سنة كما أنها تختلف عنها من حيث أنها تأخذ بمبدأ التعويض لا بمبدأ القصاص أو الجزاء الذي يتبين في شريعة حورابي - وهي تنقسم كأي شريعة أخرى إلى مقدمة ومواد تنص على الأحكام وغاية ، وتتألف المقدمة في أنها تفويض من الآلهة بمزاولة السلطة ونشر الشريعة .

ومن العهد البابلي القديم عثر على لوحين من الطين كتبنا باللغة البابلية وتدل نصوصها على أنها جزء من مجموعة لم يعثر على بقيتها ، وهذه النصوص تحوى ٦١ مادة وتبدأ بمقدمة قصيرة غير واضحة تليها ١٢ مادة عن الأسمار والأجور ، وبالإضافة إلى ذلك نجد بعض المواد التي تنص على الأحكام المختلفة المتعلقة بالسرقات والاعتداءات والأضرار والديون والبيع والشراء والأحوال الشخصية وغيرها .

ولمى « ايت عشتار » خامس ملوك « آيسين » ينسب قانون يشبه قانون حورابي في تأليفه وفي بعض مواده وقد عثر عليه مدونا على كسر من الألواح الطينية فيها من الإشارات ما يدل على أن هذا القانون

كان منقوشا على نصب أو مسلة من الحجر مثل مسلة قانون حمورابي ، ومع أن هذا القانون كان يشمل أكثر من مائة مادة على الأرجح إلا أن وصانا منه يباغ نحو ٣٥ مادة فقط .

وقانون حمورابي الشهير يبدو أن مواده جمعت في السنوات الاخيرة من حكم هذا الملك وقد رتب ترتيبا فنيا ونقش على مسلة من الديوريت الاسود يبلغ ارتفاعها نحو ثمانية أقدام نقشت في أعلاها بنحت بارز يمثل الإله « شمش » (إله العدل) على عرشه وأمامه حمورابي يتسلم منه مجموعة القوانين - وقد عثر على هذه المسلة سنة ١٩٠١ في مدينة « سوسة » ويحتمل أنها نقلت هناك في أواخر عهد الكاشيين إذ ربما كان العيلاميون قد نقلوها إلى هناك ضمن ما استولوا عليه من غنائم كثيرة بعد قضائهم على الكاشيين - ونقوش القانون تتمثل في ٤٤ عموداً من الكتابة تبدأ بمقدمة دينية كتبت بلغة شعرية ثم تليها المواد القانونية وعددها ٢٨٢ مادة ربما كانت في الاصل ٣٠٠ مادة ، وتنتهي بخاتمة يبين فيها حمورابي أنه أصدر هذه الأحكام العادلة فازدهر العدل والحكم الصالح في البلاد ويختتم ذلك بسرد ألقابه وحب الآلهة له ويحض من أصابه ظلم على المشول أمام صورته وقراءة قانونه كما أنه يصب اللعنة على كل من يحرف في هذا القانون - ويمكن تبويب موضوعات هذا القانون في :

١ - القضاء والتقاضى (أى أصول المرافعات) وهو يشمل المواد

من ١ إلى ١٠ •

٢ - قانون الاموال (أى المعاملات) ويشمل المواد من ٦ إلى ١٢٦

٣ - الأحوال الشخصية (قانون الأسرة) ويشمل المواد من

١٢٧ إلى ٢٨٢

أما عن القوانين الآشورية فلم ترد منها مجموعة كاملة ، فن العهد الآشوري القديم وجدت بعض المواد التي رباها كانت تمثل أجزاء من قانون لا يتعلق بأشور نفسها بل بمستعمرة آشورية تجارية تكونت في آسيا الصغرى ، ومع أن ترجمتها لم تستقر تماما حتى الآن إلا أنه من الواضح أن أكثرها يتعلق بنظام المحاكم وأصول المرافعات وتنظيم المعاملات التجارية .

ومن العصر الآشوري الوسيط أثر على مجموعته قانونية مدونة على جملة الواح طينيه ولكنها لا تؤلف تشريعا كاملا ولا تظهر فيها الوحدة القانونية ويختص جزء كبير منها بالأحوال الشخصية وبالجنائيات وعقوباتها - ويبدو منها أن القوانين الآشورية عموما امتازت بقسوة عقوباتها .

أما عن نظام التقاضي فإن المحاكم الابتدائية كانت إما مدنية أو كهنوتية إذ كان من حق المعبد أن يكون مقراً للعدالة وبالتالي كان الكهنة يستطيعون إصدار الأحكام ، وكان القضاة في المحاكم المدنية لا يقلون عادة عن ستة أعضاء يحمل كل منهم لقب « قاض » - وكان من المعتاد تدوين الأحكام القضائية بمعرفة كاتب مختص بصورة موجزة تلخص في إثبات وقائع القضية باختصار والشهود والتاريخ كما يضاف عادة اسم الكاتب وبعده تختتم وتودع النسخة الأصلية داخل غلاف تكتب عليه تفصيلات الوثيقة ، وكان من حق المتقاضين الحصول على نسخ منها .

وفي عصر الكلدانيين كانت القضية تبدأ بشكوى تقدم إلى المحكمة

ويستدعى المدعى عليه للإدلاء بأقواله ثم ينطق بالحكم وإذا تعذر وجود نسخة منه كان يكتفى عند الضرورة بالقسم الذى يقسمه محرر القضية أو أحد الشهود فيها .

ومنذ أقدم العصور كان شيوخ المدينة يمثلون محكمة لاتعرف اختصاصاتها ولكن من الواضح أن اختيار أعضائها يتم بإرادة ملكية وقد تكون بعض النساء وخاصة الكاهنات من بين أعضائها ولكن هذه المحاكم لم تكن دائمة بل كانت لفترات معينة فقط .

وكان الشهود ضروريين عند تحرير عقود غير رسمية وإلا يسقط حق المتخاصمين فى الاحتكام إلى القضاء ، وإذا لم يمكن فض النزاع بطريق ودى فإن أحد الطرفين يقدم شكواه فيستدعى المشكو فى حقه أمام المحكمة وتفحص المستندات المقدمة وتسمع شهادة الشهود.. وإذا لم تكن المستندات وافية أو لم توجد على الإطلاق كان القاضى يطلب إلى الطرفين وإلى الشهود أحيانا أداء اليمين ، وكان اليمين يتم فى المعبد عادة حتى وإن كانت القضية منظورة أمام محكمة مدنية لأن القسم فى أقدم العصور كان يؤدى باسم الآلهة ثم أصبح فيما بعد يؤدى باسم الملك باعتباره أصبح مؤلها هو الآخر - كذلك كان القسم ضروريا بعد النطق بالحكم حيث يتمد الخصوم أمام الآلهة باحترام الحكم وإعتباره أمرا نهائيا لا يقبل التعديل ، وقد تضاف فقرة إلى الحكم تنص على عدم استئناف الدعوى من جديد وعلى عقاب من يخالف هذا الحكم .

ولم يكن هناك اختصاص معين لمثل هذه المحاكم بل كانت تحكم فى كل شىء ويعتبر بعض أعضائها شهوداً وإن كانوا فى واقع الأمر من

المخالفين فأسماؤهم تتردد في الأحكام المختلفة ولكنهم مع ذلك هم الذين يحضرون تنفيذ العقوبات ويصدقون عليها ،

ولم تصاننا حتى الآن من آثار الأشوريين. مجموعة من القوانين يمكن مقارنتها بقانون حمورابي من حيث التنوع في الموضوعات والأحكام ولكن عثر على لوحات تتصل كل منها بقوانين تتعاق بموضوعات معينة ومن بين الوثائق التي عثر عاها وثيقة تنص على نحو .ه مادة تتعلق بالعقوبات التي تطبق في بعض الجرائم ، كما وجدت وثيقة أخرى تختص بالقانون الذي يطبق في الريف ولكنها لم تصل سليمة لسوء الحظ ، كذلك وجدت وثيقة في حالة سيئة أيضا ولكن يفهم منها أنها كانت تتعلق بالمعاملات التجارية - هذا إلى جانب عدد من الوثائق الأخرى التي تعطينا فكرة عن التقاضي في عهد الأشوريين ، ويتبين من هذه أن الحكم كان يصدره قاض واحد يقيم في المحكمة وفي بعض الحالات كان صاحب الحق يتولى تطبيق القانون بنفسه أو يتجاوز عنه أو يخففه دون الحاجة إلى اللجوء إلى القضاء - وكان القانون الجنائي يتطلب لإثبات الذنب ويحدد العقوبة ولكن بعض الحالات الأخرى لم ترد فيها أحكام قضائية ، مثال ذلك أن وثيقة تشير إلى أن الجاني قد منح مهلة لاستحضار شهود لتبرئة نفسه وإلا يعد مذنبا ، كما أن وثيقة أخرى تدل على أن المختصين قد وصلوا إلى اتفاق فلم يعد هناك مجال للنزاع .

الحياة الاقتصادية

أدرك سكان بلاد النهرين منذ أقدم العصور ما تمتاز به طبيعة بلادهم من خصب ، فالسهول الفيضية لنهرى الدجلة والفرات تجود فيها الزراعة متى بذلت فيها العناية بشئون الري والصرف ، ولذا نجد أن عمليات شق القنوات والجداول وصيانتها كانت من أهم المشاريع التى عنى بها الملوك منذ عصور ما قبل الأسرات ، فهى إلى جانب إمدادها الأراضى البعيدة بالمياه أو استخدامها للصرف بقصد إصلاح الأرض كانت ممرات مائية تيسر المواصلات وعمليات النقل ، ولذا كان من المحتم صيانتها والعناية بها ونظراً لأن الأراضى التى كانت تسير فيها رخوة فى كثير من الأماكن وجوانبها هشة فإن المحافظة عليها كانت تتطلب مجهودات كبيرة ، وقد نصت القوانين على معاقبة كل من يهمل أمر هذه المحافظة ويعد مسؤولاً عن الأضرار التى تحدث لغيره بسبب ذلك الإهمال - هذا وقد استعان المزارعون عند انخفاض منسوب المياه فى المجارى المائية بالشادوف أو أدوات رافعة (سواقي) تديرها الثيران .

وكانت المحاريث المستخدمة تجرها الثيران وهى شبيهة بالمحاريث الحالية وبعضها كان يزود بما يشبه القمع لبذر البذور أثناء الحرث ، وكان لإيجار ثيران الحراثة محدد ، كما حدد القانون أيضاً مقدار التعويضات عن الحوادث التى تصيب هذه الماشية وعن ما تسببه من أضرار أيضاً وبعد تمام الحصاد يؤخذ المحصول إلى أماكن الدرس حيث تقوم بهذه المهمة الثيران أو الخير أو عربات تجرها الحيوانات ، وقد حددت أجور كل منها كما حدد أجر

العامل الزراعى وإن كانت أجرة هذا الأخير تختلف باختلاف الفصول .
وقد نظمت القوانين العلاقة بين ملاك الأرض والمستأجرين لها ، كما
نظمت العلاقة بين المنتفعين بهذه الأراضى وبين من يستأجرونهم من
مزارعين ورعاة ، وفى غالب الأحيان كان القانون يحمى صغار المزارعين
وإذا أخرج مستأجر من الأرض قبل انتهاء مدة العقد كان المالك ملزماً
بدفع تعويض له .

ويبدو أنه لم تحدث تغييرات كبيرة فى الحياة النباتية أو الحيوانية
التي عرفت فى بلاد النهرين منذ أقدم العصور حيث أن القمح والشعير قد
وجدنا بها كما وجدت بها بعض الحبوب الأخرى مثل الدخن والسمسم
وما زالت هذه من المحاصيل المعروفة فى بلاد النهرين حتى الآن ، أما
الأرز فيبدو أنه لم يعرف إلا من أواخر العصر الأشورى ، ومع هذا
فما زال الأرز يستورد إلى العراق من بلاد عديدة .

وقد عرفت بلاد النهرين نوعين من الأراضى أحدهما يتمثل فى أراضى
الحقول التي كانت تزرع الحبوب وما شابهها والثانى أراضى البساتين التي
اشتهرت بزراعة الأشجار وقد نشأ فن زراعة البساتين منذ عصور سحيقة
وكانت هذه تزرع بالخضروات فيما بين الأشجار التي كان من أهمها التين
والرمان والتفاح والكمثرى وغيرها . وقد جلب الأشوريون إلى العراق
الزيتون كما جلبوا الفطن ، على أن أقدم شجرة وأهم شجرة عرفت هى
النخلة وما زالت النخيل تحتل المكانة الأولى بين أشجار العراق ويمد البلح
محصولها الرئيسى - والظاهر أن هذه النخيل كانت تنتشر فى مساحات
أوسع من المساحات التي تنتشر فيها الآن .

ومن الجدير بالذكر أن الأرض البور كانت حقا لأول من يشغلها وتصبح ملكا لمن يصلحها ولسكنها كانت في الواقع تخضع لحقوق الجيران فيما يختص بالرى، أى أنه كان لا يجوز للسكنها أن يمنع وصول المياه إلى جيرانه أو أن يتسبب في الإضرار بمصلحتهم حتى ولو كان في ذلك مصلحته الشخصية وكان للحاكم الحق في المرعى وباكورة الحصاد والحشم واستخدام الرجال والحيوانات والمجلات في أعمال السخرة وخاصة في صيانة القنوات والطرق، كما أن المالك كان ملزما بأداء واجبه نحو المنافع العامة التي لا يعنى منها إلا بقرار يصدره الملك - كذلك كان الملك أحيانا يمنح بعض الملاك بعض الامتيازات مثل عدم تحصيل الضريبة عن الأرض وعدم استدعاء رجال الاقطاعية للسخرة ، ومن جهة أخرى كان الحاكم لا يستطيع أن يخرج من إقطاعيته مزارعا أو أن يستولى على أخشاب أو حشائش أو محاصيل أو حيوانات أو عمال مالك آخر، كما لا يجوز أن يسحب ماء من قناة الرى إذا كانت مياهها غير كافية.

وكانت القبائل التي حلت في مناطق مختلفة قد استقرت فيها وأقامت لها مدنا وقرى ، وبالطبع امتلكت جزءا من الأراضى التي كانت مقسمة إلى قطع يستغلها الأفراد - وقد أمكن بالطبع لبعض الأفراد والهيئات أن يكونوا ملكيات كبيرة كما أن المعابد كانت تمتلك حقولا وأراضى واسعة ، وكثيراً ما كان الفقير عرضه لجشع الغنى الذي كان يطمع في زيادة رقعة أملاكه وغالبا ما كان الأغنياء يتمكنون من ذلك عن طريق الشراء - وحينما أصبحت المقاطعات خاضعة للمملكة انتقلت ملكيتها إلى الملوك وكان رؤساؤها هم الذين يوافقون على البيع وتدفع لهم التمويضات - وهذه

الإقطاعات التي كونها الملوك كانت تمنح للفقيرين من رجاله بصفة نهائية ويمكن توارثها .

ومن المعروف أن بلاد النهرين لم تقتصر على الزراعة وحدها بل وجدت بها مراعى كثيرة ، وهذه لم تكن في حاجة إلى عناية أكثر من إمدادها بالماء وقطع كلتها أحيانا - وكان الملاك يستأجرون رعاة لرعى حيواناتهم وهؤلاء كانوا يحصلون على أجور ثابتة وإن ضاعت من أحدهم بعض تلك الحيوانات كان لزاما عليه أن يأتي بغيرها على حسابه ، وكثيرا ما نصت الاتفاقيات على أن يزيد الراعى عدد الحيوانات ، وإن باع منها لمصلحته أو سرق شيئا منها كان مكلفا بدفع تعويض قد تصل قيمته إلى عشرة أمثال ما تصرف فيه ، أما إذا حلت بالانطباع كارثة خارجة عن إرادته فعليه أن يثبت ذلك وإلا كان عليه أن يعرض الخسارة على حسابه .

وكانت الإقطاعات لا تقتصر على الأرض الصالحة للزراعة والمراعى فحسب بل كانت تشمل كذلك ما فيها من حدائق ومباني وعبيد أيضا فكانت ملكيتها تنتقل بما حوت من مالك إلى آخر كما أنها أيضا كانت تقدم بأكلها كرهن لضمان القروض - ولم يكن غريبا أن يملك المزرعة أحيانا عدة أشخاص على المشاع - وكان من الممكن أن يعارض بعض الأشخاص في حيازة مالك من الملاك وفي هذه الحالة كان لا بد من أن يحتمك أمام هيئة مكونة من ممثل للملك وكاتب المدينة وبعض الحكام والشيوخ والاعيان ، وكان لا بد أيضا لسلك فريق من المتنازعين أن يدلى بحججه ويقدم الإثباتات أو المستندات الدالة على صحة دعواه - وكان تخلف المدعى عن حضور هذه الجلسات يفقده حقوقه فيعرض منادى المدينة المقار في المزاد .

وكان توسيع رقعة الاقطاعية على حساب الجار يعرض القائم بذلك لعموبة شديدة كما أن تعديل الحدود الصغيرة كان يعرض للعموبات أيضا ، وكذلك كان الحال بالنسبة لحفر جدول في أرض الغير أو استغلالها أو بدء البناء عليها .

الصناعة

أمدت البيئة بلاد النهرين ببعض المواد الاولية التي استغلت في الصناعة ، وأول هذه المواد بالطبع كان الطمي الذي صنعت منه الأواني وكانت هذه في أول أمرها تصنع باليد ثم أصبحت تصنع بعد ذلك بالجملة وقد تنوعت أشكالها على حسب الأغراض التي استخدمت فيها فمنها أواني الشرب وكانت مخروطية الشكل ، والصحاف لوضع الطعام ، والأوعية المخصصة لحفظ ونقل السوائل - ونظراً لصعوبة الحصول على الأحجار وصعوبة حفرها كانت الأواني الحجرية رمزا للترف وكانت تحفظ عادة في المعابد وكثيراً ما كانت تزين بنقوش دينية .

وقد استخدم الطمي كذلك في عمل لوحات الكتابة حيث كان يكتب عليها قبل أن تجف ، وفي بعض الأحيان كانوا يجمعون لكل لوح غلافاً من الطمي أيضا - وكثيراً ما كانوا يقومون بحرقها لتصبح أشد صلابة بتحولها إلى فخار .

ومن الجدير بالذكر أن معرفة الحفر على الحجر منذ أقدم العصور قد أدى إلى نشاط صناعة الاختام الاسطوانية وقد ظلت هذه تستخدم في معظم العصور القديمة وتنوعت موضوعاتها والأساليب الفنية فيها حتى أمكن

التمييز بين الانواع السائدة في الفترات التاريخية المختلفة .

ونظراً لعدم وجود الاحجار الثمينة من جهة والصلابة من جهة أخرى لجأ أهل بلاد النهرين إلى استعمال الخزف في كثير من الأغراض حتى أنهم استعملوا الطوب الخزفي في تسكسية جدران بعض المباني العامة وتزيينها، كذلك نجد أنهم كانوا يستعملون أحياناً بعض الأواني المعدنية وخاصة من النحاس والفضة - وقد برعوا في الصياغة واستخدموا في ذلك الذهب والفضة والاحجار الثمينة كما امتازت بعض مصنوعاتهم الخشبية بما كان فيها من تطعيم بالذهب والفضة والبرونز والاحجار الكريمة ، كما أنها كانت تسكس أحياناً في بعض المواضع بصفائح من الذهب .

والظاهر أن خام البترول (الأسولت) قد عرف من أقدم العصور وكان يستخدم مختلطاً بالطين أو القش كنوع من الملاط ، وكان أحياناً يستعمل وحده دون أن يكون مخلوطاً - وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا سواه بل توصلوا إلى ملاط من الجير أيضاً

وكانت الحرف والصناعات المختلفة تخضع لنظم معينة وبعضها على الأقل كانت تحت رقابة دقيقة ، فعملية النسيج كانت تتم تحت رقابة رؤساء عمال يمينهم الملك - وقد حدد قانون حرابي الأجر اليومي للعمال كما حدد أتعاب عامل المعمار والمبيض ونص على العقوبات التي تفرض على من يخطيء في تنفيذ المطلوب منه .

ويفهم من قانون حرابي أيضاً أن تعليم الصناعات كان يخضع لنظم معينة ، فإذا ما أخذ رجل صبياً إلى بيته لتربيته وتعليمه حرفة

ليجمل منه صنما جيدا فإنه لا يجوز لوالدى الصبي أن يطالبا برده إلا إذا كان الصبي لم يتعلم شيئا - وكان من الممكن كذلك أن يمسد لإنسان بعبدته إلى رجل آخر ليتعلم منه حرفته ، وإن أهمل المعلم تعاليم صبي حرفته على الوجه المرضى فإنه يلزم بدفع تعويض ولايستحق أجرا على ما بذله في تعليمه من جهد على اعتبار أنه أفاد من عمل الصبي - وكثيرا ما كانت النتيجة أن يجد المعلم نفسه مضطراً لدفع التعويض ، وكان يفعل ذلك عن رضى لأنه كان ينتفع بخدمات الصبي .

المواصلات والتجارة

اشتهر أهل بلاد النهرين منذ القدم بنشاطهم التجارى مع الشعوب المجاورة وقد أثروا بطرقهم ومعاملاتهم التجارية فى تلك الشعوب حتى أخذت عنهم كثيراً من أساليب التجارة ومصطلحاتها وبعض أسماء المكاييل والموازين التى استخدموها .

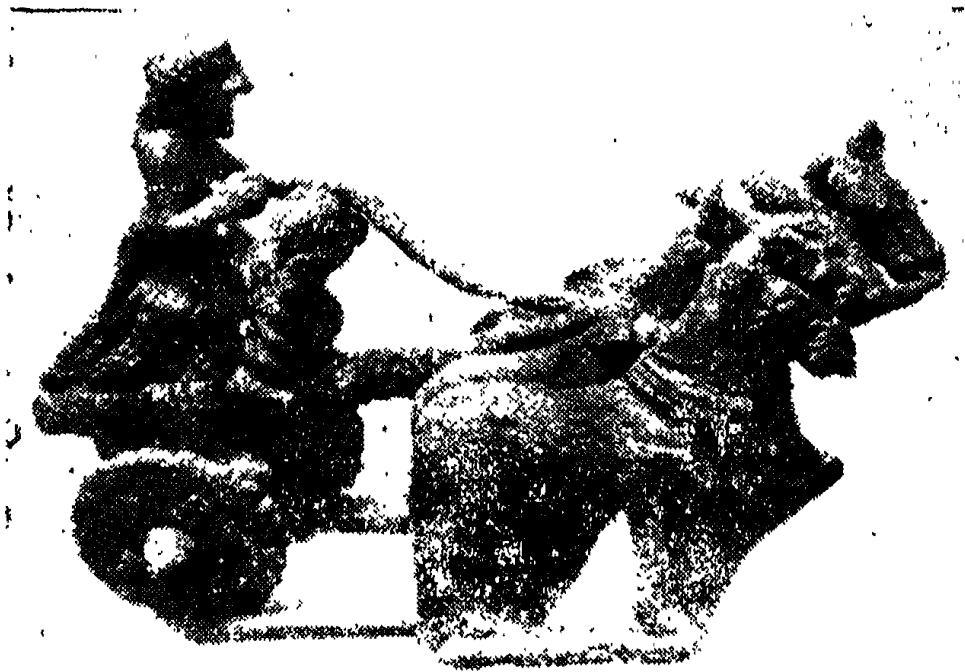
وربما كانت الحاجة إلى المواد الخام الضرورية وتصريف الفائض من منتجات الزراعة والصناعة هى التى دعت الى هذا النشاط . خصوصا بعد أن نشطت الفتوح الخارجية وحاول الملوك تكوين إمبراطوريات لهم - ويمكننا أن نتتبع بعض الشئون المتعلقة بالتجارة من دراستنا للقوانين والشرائع المتعلقة بها حيث يظهر أن جزءا كبيرا من المواد القانونية قد خصص لتنظيم التجارة وأنواع المعاملات المختلفة ، فى قانون حمورابى نجد ١٢٠ مادة تتعلق بالمعاملات والشئون التجارية من مجموع مواد هذا القانون التى يبلغ عددها ٢٨٢ مادة ، ومثل ذلك يقال أيضا عن شرائع أخرى غير

قانون جمورابي - وما نلاحظه في هذا الصدد أن تلك المواد عيّنت بتحديد الاسعار وأجور المهنيين وأجور السفن والأجور التي تستحق على الاعمال المختلفة - ومن الغريب أن هذه المواد لم تهمل شأن الشركات بل تناول بعضها كل ما يتعلق بتلك الشركات من نقل البضائع وإيداع الاموال والعمولة والمتاجرة لحساب الغير التي لم تكن قاصرة على المتاجرة لأصحاب رؤوس أموال في داخلية البلاد فحسب بل كثيرا ما كان العملاء يقومون بهذه المتاجرة لأصحاب رؤوس أموال من الخارج - ولم تكن التجارة قاصرة على الرجال وحدهم بل كان للمرأة نصيب فيها حيث نصت القوانين على تمتعها بحرية التجارة .

ومن البديهي أن طرق المواصلات ووسائلها أهم دعائم التجارة وهي خير وسيلة لإزدهارها ، وقد اهتم ملوك بلاد النهرين بتأمين هذه الطرق وخاصة في المناطق التي تقطنها قبائل مثيرة للتعاب حيث أنهم كانوا يشنون الحملات الحربية لإخضاع تلك القبائل ويشيدون الحصون والقلاع لضمان المحافظة على الأمن فيها وأنشأوا نظاما للبريد - وأقدم ما وصلنا عن هذه المواصلات نموذج لقارب يرجع إلى عهد ما قبل الاسرات ، وبالطبع كان وجود البحر بالقرب من سكان جنوب بلاد النهرين سببا في مهارتهم في الملاحة ، ولو أن وجود النهرين والقنوات العديدة التي شقت لتسهيل الري والصرف كان سببا كذلك في استخدام أنواع مختلفة من المراكب ، ومنها أنواع ما زالت تستخدم إلى الآن - ويجدر بنا هنا أن نذكر بأن المواد التي استخدمت في صنع هذه المراكب كانت مما تجود به البيئة ، فالجلود

المنفوخة والقنفة (١) كانتا تستخدمان لعبور النهر والمجاري المائية الداخلية -
وتشير بعض النصوص إلى طريقة صنع السفن كما تشير إلى أنواعها وحولتها
وسميتها وأسمائها المختلفة .

أما عن النقل بالبر فقد عرفت العربات من عصور ما قبل التاريخ
(شكل ٤٧) وكانت هذه تستخدم في نقل المواد الأولية التي كانت تأتي من
جهات بعيدة حيث أننا نجد أن الكثير من منخلفات حضارة بلاد النهرين



(شكل ٤٧) : نموذج من البرونز لمركبة تجرها أربعة حمير

(١) أسطوانة من البردي أو سفن النخيل المجدول من الخارج بالقار ما زالت تستعمل
إلى الآن في بعض أنحاء العراق .

تتضمن مصنوعات من أحجار ومعادن ثمينة لا توجد في بلاد النهرين نفسها، فقد استورد النحاس من جزيرة العرب (عمان والبحرين) التي جلب منها كذلك بعض الأحجار المستخدمة في المباني وصناعة التماثيل - وكان القصدير المستخدم في صناعة البرونز يجلب من شرق إيران ومن سورية ومن آسيا الصغرى ، كما كانت الفضة والرصاص تجلب من طوروس والأخشاب من سورية وبعض الأحجار الكريمة من أفغانستان والأصداف من الخليج العربي .

ومما يدل على أن أهل بلاد النهرين وصلوا في تجارتهم إلى أماكن بعيدة ما عثر عليه من آثار في آسيا الصغرى تدل على وجود جالية آشورية في منطقة كبادوكيا حيث عثر على عدد كبير من الألواح الطينية والاختام الاسطوانية التي استعملت في المعاملات التجارية ، ويتبين منها أن مراكز أخرى في الأناضول كانت تتبع هذه الجالية التي كانت ترتبط بمدينة آشور - وقسم كبير من هذه اللوحات عبارة عن الرسائل المتبادلة بين تجار هذه الجالية وبين آشور، ومنها ما يعطينا بعض المعلومات عن تنظيم القوافل التجارية وتحويلها وتسليم البضائع وطرق السفر وخطابات الإعتماد للتدوين - ومن المرجح أن هذه الجالية الآشورية قد خلفت مستعمرة تجارية أكديّة قديمة ، وقد استمرت بعض الشركات التجارية في أماكن أخرى خارج العراق بضعة أجيال متعاقبة - ومن المحتمل جداً أن سرجون الأكدي قد قام بحملة حربية إلى الأناضول لحماية المستعمرة التجارية الأكديّة التي نشأت هناك للتجارة في الصوف والفضة .

وربما كان أول قانون تجارى صرف هو الذى ظهر فى المستعمرة

التجارية التي أسسها الآشوريون في وسط الأناضول وقد سبق أن أشرنا إلى هذا القانون عند الكلام على القوانين الآشورية (أنظر أعلاه ص ٢٢٦) ، هذا إلى جانب العديد من العقود والوثائق والمستندات التجارية التي عثر عليها في مختلف الأماكن الآثرية ببلاد النهرين وهي تدل على أن المعاملات التجارية لم تكن لتعد قانونية ملزمة إلا إذا كتبت بأسلوب قانوني - والظاهر أن العناية بضبط الأوزان والمكاييل كانت سائدة إلى درجة أن دائرة خاصة كانت تشرف عليها لأن نماذج من هذه الأوزان عثر عليها وقد سجل على كل منها بكتابة رسمية مقدار وزنها .

ومن المرجح أن وحدة للقيمة كانت تتخذ أساسا للتبادل وقد حددت هذه الوحدة بوزن معين من الفضة ولكن لم يغير على مثل هذه الوحدة إلى الآن ، وكان تقسيم المقاييس والموازين مبنيا على أساس ستيني (أى أجزاء من العدد ستين ومضاعفاته) - وفي عصر متأخر نسيا وجدت بعض القطع المعدنية من النحاس والفضة والذهب في هيئة صفائح صغيرة أو حلقات أو أقراص مثقوبة لها أوزان معلومة سجلت عليها هذه الأوزان وربما كان ذلك هو بدء فكرة النقود التي يحتمل أنها أخذت تسود العالم القديم في نفس الوقت تقريبا (١) .

وكان التبادل هو الأصل السائد في التجارة وبمقتضاه تنتقل ملكية سلعة من شخص إلى آخر مقابل سلعة أخرى يتسلمها الطرف الأول من الطرف الثاني، وكثيراً ما كانت قيم الأشياء المستبدلة غير متكافئة وفي هذه الحالة كان على صاحب الكفة الراجحة أن يدفع ما يعادل تعويض الفرق - وفي حالة

(١) من المرجح أن فكرة النقود نشأت عند قيام الإمبراطورية الفارسية

نقض الاتفاق كان المتسبب فيه يدفع تعويضاً عن ذلك - وبعد أن اتخذت وحدة للقيمة كأساس للتعامل أصبح من الممكن إتمام عمليات البيع والشراء بمقتضاها دون الحاجة إلى تبادل سلعة بأخرى - وفي حالة التعامل التجارى فكما سبق أن قلنا أنه لا يصبح ملزماً إلا إذا كتب بأسلوب قانوني، وكان المعتاد في هذه الحالة أن يحرر عقد ثبت فيه ثلاثة عناصر رئيسية هي بيان بالشئ المباع وأسماء الطرفين والثمن الذى يدفع أو إيصال بالدفع الفورى - وكثيراً ما كان المشتري يأخذ ضماناً من البائع على عدم وجود عيب فيما اشتراه من شأنه إلغاء العقد وخاصة فيما يتعلق بالعيب وكانت مدة الضمان تحدد برضى الطرفين - كذلك كان من المألوف أن يحرر العقد بحضور شهود من أسرة البائع أو من أهرة الطرفين معا ومن الخبراء والكتاب ورجال الأعمال والموظفين المختلفين وهؤلاء كانوا عادة يتسلمون بعض الهدايا بعد إتمام الصفقة التى كانت توثق بعقد يختم بخاتم يعمل لهذا الغرض - وإذا كان المباع عقاراً كان على البائع أن يسلم مستند ملكية العقار إلى المشتري وأن يبين ما أدخل عليه من تعديلات منعا لحدوث الخطأ .

ولم تهمل القوانين ما يرتبط بالتجارة من نواح اقتصادية أخرى فقد نظمت عمليات استئجار العقارات والحيوانات والعربات والقوارب والعمال الزراعيين والقروض والرهن والضمانات والودائع وغيرها .

وفي العهد الاشورى كانت الاتفاقيات الخاصة تبدأ ببيان أختام المتعاقدين، ولم يكن من المعتاد وضع أختام الشهود على هذه الاختام، وإذا لم يكن لدى المتعاقد ختم كان يصمم بإبهامه ويغرس ظفره فى الطمى - وكان نص

الوثيقة يحرر في أسلوب غير شخصي ثم تنتهي بقائمة الشهود والتاريخ، وإذا ما أراد الكاتب أن يذكر اسمه فإنه يضعه في نهاية قائمة الشهود - وكان البيع يتم مقابل فضة أو رصاص أو برونز ويدفع الثمن فوراً وإن لم يتسلمه المشتري فإنه كان يأخذ صكا يعترف فيه البائع بالدين وكانت الجزاءات تحدد على من يقيم أى نزاع بشأن هذا التعاقد ، وقد ينص على أجر مقابل توثيق العقد (ختمه) إلى جانب المبلغ الاصلى للبيع .

ولم تكن قيمة الاراضى الزراعية تقدر حسب مساحتها وإنما حسب كمية الحبوب اللازمة لزراعتها وكانت القيمة تتضمن أيضا كل ما يرتبط بالارض من عبيد وطيور ومبان وحدائق - ومن الطريف أن تلك القوى العقلية كان أساسا فى عملية البيع حيث نص القانون على أن الصرع عيب يلغى البيع وكان على المشتري أن يتبين وجوده لدى اليافع خلال مائة يوم (عصر حورابى يعطى شهرا فقط) ، وفى هذه الحالة يحق له أن يلغى العقد ، أما إذا تبينت الإصابة بهذا المرض عقب تلك الفترة فإنها تعد حديثة ولا يترتب عليها إلغاء العقد .. وقد وجدت عقوبات محددة على البائع عند رجوعه عن الصفقة لأن ذلك كان يعد خطيئة فى نظر الآلهة حيث أن العقد كان يتضمن نوعا من القسم ولو ضمنا على الاقل . وقد جرت التقاليد فى كثير من الاحيان أن يذيل الكاتب عقود البيع بعبارات تقاليدية هى دفع المبلغ بالتام .

ولاتختلف القوانين الاشورية فيما يتعلق بالشئون الاخرى المتعلقة بالتجارة عن القوانين البابلية حيث أنها كانت تنص على إجراءات مماثلة فيما يتعلق بالتبادل والقروض والرهن والضمانات .

العلوم والآداب

بدأت الكتابة في بلاد النهرين كما بدأت في جهات أخرى من الشرق الأدنى بالتعبير عن الشيء بصورته ، وقد استمرت هذه المرحلة التصويرية في الكتابة فترة ثم أخذت بعد ذلك أشكالها تختصر ويقل عدد المستعمل منها تدريجياً إذ أصبحت الصورة تعبر لا عن الشكل المرسوم فحسب بل وعن كل ما يرتبط به من معاني أيضاً ، إلا أن ذلك قد أدى إلى صعوبة تأويل ما تدل عليه هذه العلامات - وقد أمكن تذليل هذه الصعوبة بالاصطلاح على معاني محددة لتلك الصور ، ثم استعملت هذه الصور في كتابة ما تدل عليه من أصوات للتعبير عن الأفعال والامور المعنوية فأصبحت كل منها ترمز إلى نطاق معين يدل على كلمة - ومن هذه المرحلة الرمزية أمكن التوصل إلى جعل معظم الرموز تعبر عن مقاطع لفظية ، أى أن التعبير بالكتابة في بلاد النهرين سار في نفس الطريق الذي سار فيه التعبير بالكتابة لدى المصريين ، إلا أن هؤلاء الأخيرين توصلوا فضلاً عن ذلك إلى استخدام حروف هجائية بينما لم تصل الكتابة في بلاد النهرين إلى مثل هذه المرحلة .

ونظراً لأن أهل بلاد النهرين قد استعملوا ألواحاً من العظم للكتابة عليها بقلم مئآت فإنه كان من العسير رسم الخطوط المنحنية واستيعاب عنها بما يقاربها من خطوط مستقيمة كما أن الخطوط التي كانت ترسم بذلك القلم تتخذ في نهايتها شكلاً يشبه رؤوس المسامير ولذا أصبح يطلق على كتابة بلاد النهرين اسم « الكتابة المسمارية » - وقد انتشرت هذه الكتابة في أنحاء كثيرة من بلاد الشرق الأدنى القديم ، فقد استعملها الحيثيون والعيلاميون والهوريون

والميتايشون في كتابة لغاتهم وظلت هذه الكتابة مستعملة إلى العصر المسيحي .

وقد ظلت العلامات المستخدمة كرموز تدل على كلمات جنبا إلى جنب مع العلامات المستخدمة كقطوع صوتية فكان عدد العلامات المستخدمة لا يقل عن ٦٠٠ علامة تقريبا ، منها نحو ١٥٠ علامة فقط هي التي كانت تستخدم استخداما صوتيا بحتا ، وعلى ذلك لم يكن من السهل معرفة هذه الكتابة إلا بدراستها وتحديد المقصود من علاماتها المختلفة - وقد بدئت محاولات في ذلك منذ أقدم العصور حيث عثر على قوائم ترجع إلى عصر فجر الأسرات بها العلامات المسماة بقيمتها الصوتية ومعانيها ، وربما كانت هذه أقدم المعاجم التي عملها الإنسان .

وكان لنجاح هذه الخطوة أثره إذ تنوعت المعاجم فيما بعد حيث وصلتنا معاجم لغوية تتناول مفردات ومصطاحات وجمل سومرية ومايقابلها في البابلية ، كذلك وجدت معاجم تتناول أسماء الحيوان والنبات والأدوات المصنوعة من مواد مختلفة وأسماء الأشجار وأجزائها وثمارها وأسماء المنشآت المعمارية وغيرها .

وتدل شواهد الأحوال على أنه - إلى جانب المدارس الخاصة بالمعابد - كانت هناك مدارس خاصة للتعليم ، وأول ما كان يتعلم الطالب فيها هو الخط أو الكتابة المسماة بالمشارة ثم يتدرج بعد ذلك إلى تعلم اللغة وقواعدها ، وفي العهد البابلي وما بعده كان على الطالب أن يتعلم لغتين السومرية والبابلية ولذا كان التعليم يستغرق وقتا طويلا وخاصة إذا أراد الطالب أن يكون

كاتباً ممتازاً وإلى جانب هذا التعليم العام كان البعض يتخصص في مختلف فروع الثقافة العليا كالطب والفلك والقانون والموسيقى والعلوم الرياضية في معاهد خاصة .

وفضلاً عن ذلك كانت هناك مؤسسات خاصة أشبه بالمكتبات ودور السجلات لحفظ الكتب والوثائق ، وبمضها كانت تلحق بالمعابد الشهيرة والقصور الملكية - ومثل هذه عشر عايتها في أنقاض قصر الملك « آشور بانيبال » وكانت تحوى مئات الألوف من ألواح الطين المدونة بمختلف نواحي المعرفة والعديد من السجلات والوثائق التاريخية وهي تلتقى ضوءاً كبيراً على حضارة بلاد النهرين وتاريخها ، والظاهر أن هذا الملك كان قد جمعها من مختلف المدن إلى جانب ما نسخه عن أصول قديمة .. كذلك عشر في « تل حرميل » بالقرب من بغداد على أكثر من ٣٠٠ لوح كتبت في مختلف أنواع المعرفة ويظهر أنها كانت موضعاً لحفظ السجلات والوثائق أو مكان مدرسة .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن مادة الكتابة في بلاد النهرين (ألواح الطين) لم تكن مادة يسيرة الحفظ بل كانت سريعة التعرض للتلف ولذا كان من المعتاد وضع الألواح بعد كتابتها في أغلفة من الطين ، كما أنه لم يكن من الميسور أيضاً عمل ألواح كبيرة الحجم منه ولذا كانت معظمها صغيرة الحجم وكثيراً ما كانت تتعرض للكسر عند إخراجها من أغلفتها ولذا تبعثرت هذه الألواح وتشتتت أجزاؤها فقد يعثر على جزء من لوح في مكان بينما يوجد ما يكمله في أماكن أخرى حتى أنه أصبح من المألوف أن توجد أجزاء من هذه الوثائق في بعض المتاحف ويوجد ما يكملها متاحف أخرى .

وبما يسترعى النظر أن الخط المسامري مر بمراحل تشبه إلى حد ما المراحل التي مر بها الخط الهيروغليفي إذ أنه إلى جانب هذا الخط وجد الخط الآرامي الذي كتب بحروف هجائية قبل الميلاد ببضعة قرون ، ونظراً لسهولة هذا الخط الأخير نسيباً ولانتشار الآرامية بسبب نشاط الآراميين التجاري ، فإن هذا الخط أخذ يحل محل الكتابة المسامرية ومع هذا فقد ظلت هذه الكتابة منتشرة إلى بداية التاريخ الميلادي ولكنها هجرت بعد ذلك ولم يعد أحد يعرفها وظل الحال كذلك إلى القرن التاسع عشر ، فقبل بداية هذا القرن بدأ كثير من السياح يفسدون إلى الشرق ونقل بعضهم عدداً من ألواح حجرية مكتوبة وبعض الألواح الطينية ، وعكف بعض الباحثين على محاولة تفهيمها وحل رموزها - وكما أمكن حل الهيروغليفي من حجر رشيد إذ كان مكتوباً بثلاث لغات كذلك وجدت آثار في برسيبوليس ، عاصمة الفرس الإخمينيين بثلاث لغات هي الفارسية القديمة والعميلية والبابلية مع فارق واحد هو أن اليونانية التي كتبت على حجر رشيد كانت معروفة للباحثين بينما لم تكن أى من اللغات المدونة في برسيبوليس معروفة في ذلك الوقت ، ولكن نظراً لأن الكتابة الفارسية كانت أقل الكتابات عدداً في علاماتها وأقل تعقيداً في شكلها فقد ركزت الجهود على حلها وأمكن التوصل فيها إلى اسمى ملكين من ملوك فارس ثم عرفت مفردات أخرى من هذه اللغة وبعد ذلك تمكن العلماء بالاستعانة بما أمكن معرفته من هذه اللغة في حل رموز اللغة البابلية وأمكن التوصل فعلاً إلى معرفة مفردات منها وجزء من علاماتها - ثم تناهت جهود العلماء فازدادت المعرفة باللغة البابلية ، وبلغ من دقة ما توصلوا إليه أنه أجرى للعلماء في مختلف الأقطار شبه امتحان حيث قدمت لكل منهم نسخة من نص

لم يكن معروفا من قبل وعندما فحصت ترجماتهم له وجدت متطابقة في معناها بما بعث الإطمئنان إلى صحة المعلومات التي عرفت عن هذه اللغة ومن ثم أخذ علم الآشوريات يزداد توسعاً وانتشاراً - وبما ساعد على سرعة فهمها أنها كلغة سامية تشابهه في نحوها وفي بعض مفرداتها مع اللغات السامية الأخرى المعروفة مثل العربية والعبرية - وعن طريق حل رموز اللغة البابلية أمكن التعرف على اللانة السومرية إذ وجدت بعض الكتابات المسماة التي كانت أشبه بمهاجم لشرح الكتابات السومرية باللغة البابلية كما سبق أن أشرنا .

وقد ساعد حل رموز اللغة على التعرف على تاريخ بلاد النهرين من مصادره الأصلية ، ولكن صادفت المؤرخين صعوبات كثيرة في هذا السبيل لعل من أهمها عدم وجود حادث أساسى تؤرخ الحوادث بالنسبة إليه كما هو الحال بالنسبة للتواريخ المعمول بها الآن مثل ميلاد المسيح والهجرة ، إلا أن ملوك بلاد النهرين كانوا يعمدون إلى اتخاذ حادثة معينة شهيرة أساسا لتأريخ الحوادث فى سنة وقوع هذه الحادثة الشهيرة ، وظل الحال كذلك إلى نهاية عهد الأسرة البابلية الأولى تقريباً ثم عدلوا عن ذلك إلى تأريخ الحوادث بالنسبة إلى عهد الملوك - وظل الحال كذلك إلى العهد السلوقى وإن كان الآشوريون قد استخدموا طريقة أخرى فى التأريخ حيث كانوا ينسبون السنين إلى عظماء رجال الدولة الذين عاشوا فيها ابتداء من الملك نفسه فكانوا يجمعون حوادث كل ملك فى ثبوت خاص متسلسل ابتداء من اعتلائه على العرش ، وقد أضافوا إلى ذلك بعض الملاحظات التاريخية والتعليقات الخاصة بها فى نظام أشبه بنظام الحوليات - ومن ذلك

مثلا أنهم ذكروا كسوف الشمس يمكن بالحساب الفلكي تحديد وقت حدوثه بالدقة في ١٥ يونيو ٧٦٣ قبل الميلاد وكان هذا من الأمثلة التي ساعدت على ضبط تاريخ الآشوريين بالنسبة للتاريخ الميلادي كما ساعد على ضبط تاريخ بلاد النهرين عامة - وما ساعد على التعرف على تاريخ بلاد النهرين أن بعض الكتاب والمؤرخين القدامى تركوا قوائم بأسماء الملوك السابقين وتتابعتهم وقسموها إلى أسرات حاكمة (١) - وإلى جانب هذه ترك البابليون والأكديون كتابات أخرى تاريخية تشيد بأعمال الملوك والامراء ، كما أن ملوك الآشوريين اعتادوا أن يدونوا أخبار حروبهم بهيئة رسائل يرسلونها إلى كبير الآلهة ، فمثلا يبدأ الملك « سرجون الثاني » رسالة إلى الإله آشور بتحيةة هذا الإله وتحيةة الآلهة الآخرين كما يحيى المدينة وسكانها ثم يسرد أخبار حملته بالتفصيل كذلك التي قام فيها بغزو « أرمينيا » وهكذا .

وقد عني مؤرخو الآشوريين بتدوين الحوليات الخاصة بالملوك مرتبة حسب سني حكمهم أو على حسب العهود الدورية التي كانت تنسب إلى عظماء رجال الدولة ، ومن هذه الحوليات يمكن جمع تاريخ واف لآشور - ولم تقتصر المصادر التاريخية على ذلك بل نجد أن البابليين في عهد الدولة البابلية الجديدة قد عتوا بكتابة تاريخ العصور السابقة حتى تناولوا حوادث سبقت زمنهم بنحو ألى عام ، وهكذا نجد أن التدوين التاريخي في بلاد النهرين كان موضع عناية في مختلف عصورها .

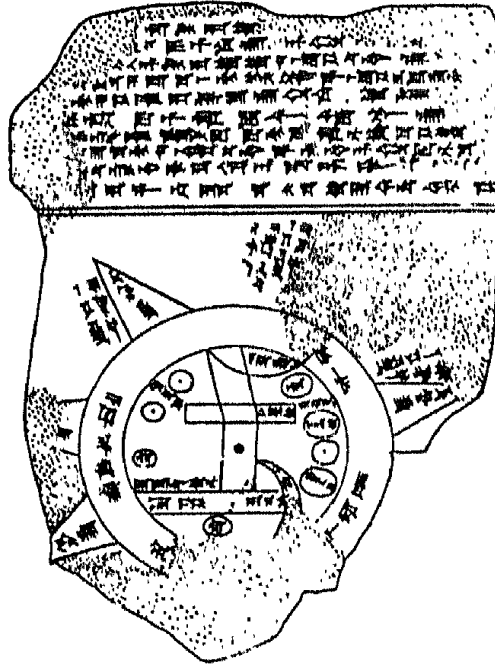
ولم يقتصر اهتمام أهل البلاد على المعارف التاريخية وحدها بل

(١) أنظر كتاب معالم الشرق الأدنى القديم المؤلف من ٣٤٧ وما بعدها .

فكروا فى مختلف النواحي العلية ، ومن أهم ما عنوا به محاولة التعرف على الكون ومكان بلادهم منة وما حواه من بلاد أخرى - وقد اعتقدوا أن الأرض شبيهة بالسماء فهى كمنصف كرة مقلوبة تعلوها السماء التى تتكون من ثلاث طبقات أو سبع طبقات ويحيط بالسماء البحر والمحيط السماوى كذلك قسموا الأرض إلى ثلاث طبقات أو سبع أهمها الطبقة العليا التى يسكن فيها البشر والطبقة الوسطى وهى منطقة المياه والطبقة السفلى وتسكنها أرواح الموتى ، كما جعلوا لها أربعة أركان فى الجهات الأربعة الأصلية .

وبازدياد النشاط التجارى والفتوح الخارجية تعرفوا إلى مناطق مختلفة ووصلوا إلى أماكن بعيدة فوضعوا قوائم مطولة بأسماء المدن والبلدان والأنهار وغيرها من المعالم الجغرافية فى بلادهم وفى الأقطار المجاورة بل وتحوى بعض مؤلفاتهم فى هذا المضمار إضافات لتفسير أسماء بعض الأقاليم والمدن وأسماء المعابد كما تحوى بعضها كذلك معلومات أخرى مفيدة مثل تعداد المدن وتعريف المسافات فيما بينها ، وما يدل على تقدمهم فى النواحي الجغرافية ما عثر عليه من نصوص تبين طرق مسح الأراضى وتخطيطها ورسم الخرائط لبعض المدن - وتعد الخريطة التى عثر عليها لمدينة « نهر » من أقدم الخرائط المعروفة وهى من الدقة بحيث ساعدت المنقبين على التعرف على الأماكن المهمة التى كانت فى تلك المدينة . وقد وجدت كذلك خرائط لمدينة أخرى - كذلك عثر على محاولة لرسم خريطة للعالم المعروف لديهم وهى تصور الأرض فى هيئة دائرة يخرقها نهر الفرات فى الوسط وهو يأتى من الجبال الشمالية ويصب فى

منطقة الأهوار في الجنوب ، وقد حدد مكان بابل بالقرب من مركز هذه الدائرة كما عينت أماكن بعض البلدان الأخرى في هيئة دوائر صغيرة بالنسبة لبلاد النهرين وفي هيئة مثلثات خارج الدائرة بالنسبة للأقطار الأجنبية ، ويحيط باليابسة في هذه الخريطة البحر الملح الذي تخرج منه ثمانية جزر بينت المسافات فيما بينها بالساعات البابلية (أنظر شكل ٤٨).

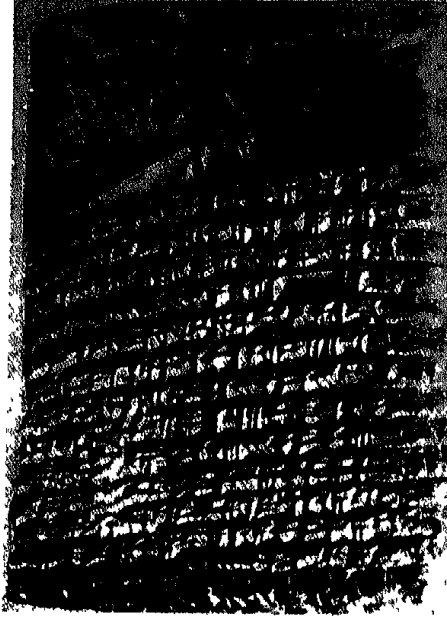


(شكل ٤٨) : خريطة للعالم يبين بها موقع بابل كمنطقة قريبة من مركز الدائرة

ولا بد أن العلوم والمعارف قد نشأت في بلاد النهرين كما نشأت في غيرها من بلاد العالم القديم لتحقيق أغراض عملية ، ولعل الحاجة لضبط حسابات المعابد وغيرها من الأمور الاقتصادية هي التي حتمت معرفة

الأعداد ثم تدوينها ومن ذلك نشأت الرياضيات - وقد بدأت بالعمليات الحسابية البسيطة دون شك - وبما ساعد على تقدم الرياضيات في بلاد النهرين نشاطها التجارى مع البلدان المجاورة من جهة ومن جهة أخرى حاجتها للأعمال المتعلقة بتنظيم شئون الري وشق الطرق لتيسير التجارة إذ أن هذه الأمور دعت إلى ظهور الموازين والمكاييل والمقاييس المختلفة وحساب المعاملات التجارية وأرباحها والتعرف على خواص الأشكال الهندسية ، وقد وجدت بعض المصنفات الرياضية كجداول الضرب وجداول معكوس الأعداد ورفعها إلى قوى مختلفة (الأُس) وجذورهما كما وجدت بعض المسائل والقواعد الرياضية التي تحمل على أساسها ، كذلك عرفوا بعض النظريات الهندسية التي تتعلق بتشابه المثلثات ومساحتها (شكل ٤٩) ، وعرفوا الكسور وإن كانوا قد استخدموا الطريقة الستينية بدلا من الطريقة العشرية - وتوصلوا إلى حساب مساحات وحجوم بعض الأشكال وعرفوا خواص الدوائر وغير ذلك من الرياضيات الراقية .

ومن الأمور التي اهتم بها أهل الحضارات القديمة عامة وأهل بلاد النهرين بصفة خاصة علم الفلك وقد بلغ من شهرتهم فيه أن كثيراً من المؤرخين أصبحوا يعتقدون بأن البابليين هم الذين أسسوا هذا العلم ، وقد حظى علم الفلك بين البابليين بشهرة عظيمة لدى الإغريق حتى أخذوا عنه ، إذ أن أهل بلاد النهرين عنوا منذ أقدم العصور بتدوين ملاحظاتهم عن الأجرام السماوية - وربما كانت حاجتهم إلى ضبط الفصول والتقسيم هي السبب في نشأة هذا العلم لديهم وإن كان البعض يظن بأنه نشأ من التنجيم الذي بدأ بمعرفة تأثير النجوم في طبائع البشر والتكهن بمصائرهم،



(شكل ٤٩) : لوح عليه نظرية هندسية

ومهما كان الامر فقد تطور علم الفلك وأصبح يبني على أسس رياضية وأمكن التوصل فيه إلى نتائج هامة ، ومن ذلك اعتبار الشمس مركز الكون وأن المد والجزر يرجعان إلى تأثير القمر - وقد استخدموا في أرصادهم بعض الآلات كما يظن أن الواقورات كانت تستخدم لرصد الأجرام السماوية إلى جانب وظيفتها الدينية .

وقد قسم البابليون اليوم الفلكي إلى ١٢ قسما كل منها يتكون من ٣٠ جزء وقسموا السنة إلى ١٢ شهراً قريبا يضاف إليها شهر آخر كلما دعت الحاجة لضبط فصول السنة ، كما قسموا دائرة السماء بواسطة النجوم الثوابت إلى ١٢ قسما ورصدوا بعض الكواكب مثل الزهرة وحسبوا

أبعادها بالدرجات وغير ذلك من الامور الفلكية الدقيقة - ولقياس الزمن استعملوا ساعات مائة لقياس أجزاء الليل وساعات شمسية أو مزاويل لقياس أجزاء النهار .

هذا وقد سبق أن أشرنا إلى أن أهل بلاد النهرين وضعوا قوائم عن الحيوانات والنباتات التي عرفوها ، وهذه وإن كانت قد وضعت لخدمة أغراض لغوية إلا أنها في الواقع كانت تحوى معلومات قيمة عن الحيوانات والنباتات التي ألفوها وقد قسموها إلى أنواع أو أجناس متشابهة أى أنهم أتبعوا نظام التصنيف العلى ولكنهم أخطأوا في ذلك أحيانا حيث نجد أنهم وضعوا تحت جنس الكلب الذئب والضبع والأسد كما جعلوا كل ما يعيش في الماء تحت صنف السمك بما ذلك الاصداف والسلاحف ، وربما كانت مصنفاتهم في النبات أكثر دقة حيث أنهم جعلوها في مجاميع متشابهة من حيث أشكالها وثمارها وميزوا في بعض أنواع الاشجار بين الذكر والانثى .

ونظراً لأنهم عرفوا صناعة الفخار منذ أقدم العصور فإنهم عرفوا الكثير من خواص الطين وتأثره بالحرارة والأصبغ المختلفة كما توصلوا إلى طريقة التزجيج وعرفوا العجائن واللدائن الكيماوية - ومن إقبالهم على بعض المصنوعات المعدنية آتقنوا التعدين وصهر المعادن ومزجها وتوصلوا إلى معرفة أنواع مختلفة من السبائك كما حاولوا التوصل إلى تحويل بعض المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة وقلدوا الاشياء المصنوعة من مواد ثمينة بالاستعانة ببعض الاصبغ والعقاقير واستخدموا الادوية والصابون والعطور أى أنهم تقدموا في الصناعات الكيماوية وخاصة تلك التي تخدم أغراضهم

العملية .. وقد عثر على بعض مؤلفاتهم في هذا المضمار وإن كنا نجعل أسماء بعض المواد التي ذكروها ، كما أن بعض عملياتهم الكيماوية كانت تتضمن بعض الرقى السحرية والدينية ومع ذلك فقد تمكنوا من استخلاص الكثير من المواد المنميدة مثل الزئبق وعرفوا الماء المالحى الذى يذيب الذهب ونجحوا فى استخراج عدد كبير من الادوية المعدنية وصلنا منها أسماء ما لا يقل عن ١٢٠ نوعا .

وفى مجال الطب توصلوا إلى الكثير من المعلومات الهامة عن الامراض وتشخيصها وعن تشريح الجسم والعقاقير النافعة ، وإن كان العلاج قد ظل مختلطا بالسحر لأنهم كانوا يعتقدون أن الامراض كانت تسببها ارواح وشياطين شريرة وأن الآلهة هى التى تساعد على التخلص منها - وقد اعتبروا أن الإله « ايا ، إله الماء هو إله الطب أيضا ، ونظرا لاستخدام المياه كثيرا فى العلاج فإن الطبيب كان يطاق عليه كلمة معناها « العارف بالماء » - كذلك كان من آلهة الطب عندهم الإله « نازو ، أى « سيد الاطباء » وكان ابنه « ننجشريدا ، أيضا من آلهة الطب ، ومن رموزه المقدسة عصا تلتف عليها حية أو حيتان وهذه هى التى يتخذها الاطباء حديثاشارة لهم حيث تعتبر الحية قادرة على تجديد شبابها لأنها تنخلع جلدها فيعود اليها الشباب - ونظرا لأن العلاج كان كثيرا ما يتضمن الرقى والتعاويذ لاسترضاء الآلهة والحصول على مساعدتها فى شفاء المرضى فإن الاطباء كانوا غالبا من الكهنة ، ومع هذا لم يهمل هؤلاء فى علاجهم فن تشخيص الامراض ووصف العلاج إلى جانب ما يلجأون اليه من العرافة والسحر . ويستدل من النصوص التى خلفها أهل بلاد النهرين على أن عدد

الاطباء لم يكن قليلا ، ومنهم من كانوا يؤدون عملهم كوظفين رسميين وخاصة لدى الملوك ومنهم من كانوا يعملون لحسابهم - وقد يرسل بعض الاطباء الرسميين إلى ملوك بعض الأقطار الأخرى لعلاجهم - كذلك كان الاطباء ينقسمون حسب تخصصاتهم إلى جراحين ومعالجين بالعقاقير ، وقد عرفوا كثيرا من الأمراض وصنفوها ووصفوا أعراضها وعلاجها وكيفية استعمال الادوية المختلفة التي قسموها حسب مصادرها إلى أدوية نباتية وأخرى حيوانية وثالثة معدنية ، كما قسموها من حيث استعمالها إلى أدوية تستعمل من الظاهر (أى دهون) وأخرى للتناول - واستعانوا ببعض الأدوات لوضع الادوية في أماكن دقيقة من الجسم مثل العين والأذن إلى جانب استعمال بعض الأدوات الجراحية - ورغم كثرة ما خلفه أهل بلاد النهرين من النصوص لا نجد تنوعا كبيرا في آدابهم إذ أن معظم ما تناولته كان متعلقا بالاساطير الدينية إلى جانب التدوين التاريخي وبعض الرسائل وكما تتضمن بعض الأمثال والحكم - وبالطبع ليس من السهل فهم كل هذه الأمثال لأن البعض منها يتناول ما كان سائداً من عادات. وتقاليد وظروف مختلفة مازلنا نجمل الكثير منها .

الفنون (١)

ظهرت أقدم محاولات الإنسان في الرسم والنقش في العصور قبل التاريخية حيث بدأها على الفخار بتزيينها بزخارف هندسية وأشكال حيوانية ونباتية انتشرت بعض طرزها إلى إيران شرقاً وإلى البحر المتوسط غرباً - ومن فترة التمهد للكتابة ظهر النقش البارز وشاع استخدام الاختام الأسطوانية ، ويبدو تأثر الفنان في هذه المرحلة بمظاهر البيئة التي عاش فيها إذ تغلب على الأشكال والزخارف التي رسمها ظاهرة التداخل حتى أنه تصرف في أشكال الحيوانات فجعل رقابها أو ذيلها تتداخل. أو تتقاطع بحيث تبدو كأنها كائنات خيالية .

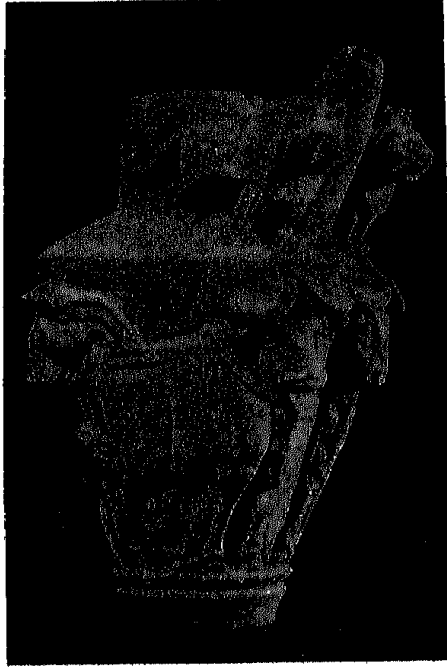
وفي عصر فجر الاسرات استبدل هذا الطراز الزخرفي بأسلوب تصويري وتعددت الموضوعات التي تناولها الفنان وتنوعت وسائله للتعبير عنها فقد يلجأ إلى تمثيل المناظر التي يبدعها بقطع مختلفة الألوان من الاصداف المسطحة تكملها خطوط محفورة في ألواح أردوازية تثبت في الجدران - وقد وجدت نماذج جميلة للنحت منذ أقدم العصور ، ومن خير الامثلة على ذلك القيثارة الممثل بها رأس ثور (شكل ٥٠) ، وفي حالة النحت البارز على السطوح كانت الحيوانات تمثل من الجانب بينما تبرز رؤوسها إلى مواجهة الناظر (شكل ٥١) ، أما الاشخاص فكانوا يثلون

(١) أنظر مقال المؤلف « بين النون والبيئة » في مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية سنة



(شكل ٥٠) : قيثارة مثل بها رأس ثور
وهي من القطع الفنية الممتازة

من الجانب في معظم الأحيان مع إظهار الشخص الرئيسي - كما هو الحال
في المناظر التي تركها الفراعنة - في حجم أكبر من بقيمة الأشخاص الممثلين
معه كذلك كانت ملامح الأشخاص قوية التعبير ثم ما لبثت هذه الملامح



(شكل ٥١) : لإبريق من الحجر نحتت عليه حيوانات
تواجه الناظر

أن لطفت في عهد البابليين وزاد تنوع موضوعات النحت ، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً حيث تدهورت الفنون بصفة عامة أثناء حكم الكاشيين بعد أن تخلى الفنانون عن كثير من تقاليدهم القديمة .

أما في عصر الآشوريين فإن التقاليد القديمة قد عادت إلى الظهور كما ظهرت تأثيرات خارجية لم تكن معتادة في بلاد النهرين ، فمثلاً شاع تمثيل الإله بهيئة آدمية داخل قرص الشمس وهو يسحب قوسه ليعاون الملك ضد أعدائه (شكل ٤٦ أعلاه) كما شاع تزجيج قطع كبيرة من المنحوتات وهذه مظاهر كانت مألوفة من قبل في مصر ، وقد تقيّد الفنان بتقاليد فنية - ربما كانت ترجع إلى تأثير ديني - التزم بها ولم يخرج عنها إلا نادراً .

وعلى العموم يمكن القول إجمالاً بأن الفنان في بلاد النهرين كان كزميله المصرى يعرف قواعد المنظور وفن الكاريكاتير وقد ترك كل منها أمثلة قليلة تدل على ذلك وانسكتها آثاراً أن يكون فيها تأثيراً أكثر منه إخبارياً .

وسار نحت كتل الاجسام (التماثيل) هو الآخر وفق تقاليد معينة هو الآخر ، ويبدو في تلك التماثيل ما تعكسه البيئة من أثر إذ أن بيئة بلاد النهرين يغلب عليها طابع الانفصال في وحدات صغيرة تتمثل في أماكن متناثرة تعلو في مستواها عن منسوب الجارى والمسطحات المائية كأنها مخاريط أو أساطين قائمة بذاتها ، وقد استوحى الفنان هذه الأشكال في نحت تماثيله فجاءت في هيئة كتل مخروطية أو أسطوانية (شكل ٥٢) -



(شكل ٥٢) : تماثيل مغنية يبدو كأنه من مخاريط وأسطوانات



شكل (٥٣) : تمثالين تبدو فيها ضخامة الساقين

ونظراً لأن التماثيل كانت تقام من أجل غرض ديني فقد غالى الفنان في إبراز الاهتمام الشديد في ملامح التمثال وبالغ في حجم العيون ولذا اضطر إلى جعل نسبة الوجه إلى الرأس أكبر مما ينبغي ولم يلجأ فنان بلاد النهرين إلى ما لجأ إليه الفنان المصرى من عمل دعامة يستند إليها التمثال أو عدم تفريغ ما بين الساقين حتى تحتملان ثقله ولا تتعرض للكسر بل لجأ إلى جعل هذين الساقين على درجة من الضخامة لا تتناسب مع حجم التمثال وخاصة عند العقبيين (شكل ٥٣) - كذلك لم يوفق في إبراز تقاطيع الجسم كما وفق زميله المصرى في ذلك بل ويبدو أيضاً أنه لم يهتم كثيراً بالزى الذى يلبسه لتمثاله ، غير أنه بلغ مرتبة عالية في إتقان تماثيل الحيوانات وأبدع فيها غاية الإبداع .

وفي مجال العمارة سبق أن أشرنا إلى ما كانت عليه مساكن أهل بلاد النهرين (أنظر أعلاه ص ٢٠٢-٢٠٤) وبيننا أهم ما تميزت به .

أما المباني العامة مثل المعابد فكانت تقام في أول الأمر من الطين ، وبعد أن عرف اللبن استخدم هذا في بنائها وظل الحال كذلك فترة طويلة حتى بعد أن عرف الآجر (اللبن المحروق) - وقد حرمت البيئة في جنوب العراق من موارد كافية للاحجار الصالحة للبناء فاستمعض عن ذلك بجعل الجدران سميكة ضخمة حتى تكون لها متانة الجدران الحجرية ، كما كان من الضروري تعريج هذه الجدران بجعلها ذات نتوءات وتجاويف (كجدران الحصون) على أبعاد متساوية وربما كان هذا الشكل قد نشأ عن ضرورة حريرية وليس لمجرد تقوية الجدران أو للزينة إذ أن المعبد كان يعد أقدس مكان للجماعة وهو مقر معبودها ، ونظراً لأن الأسلحة البعيدة المدى لم تكن معروفة عند نشأة هذه المعابد فمن المرجح أن التجاويف التي كانت بالجدران كانت تتيح للدفاعيين فرصة الاحتماء فيها ومباغثة العدو^(١) - ثم ظهر طراز آخر للمعابد يتمثل في بناء من طبقات في هيئة مصاطب تتدرج في صغرها إلى أعلى وهو الأصل الذي تطور إلى الواقورة أو البرج المدرج^(٢) - ويعتقد المؤرخون بأن أهل بلاد النهرين قاموا ببناء هذه المعابد المرتفعة لاعتقادهم بأن الإله يهبط إليها ويشرف منها على شئون البشر ، والسكن من جهة أخرى يمكن تفسير ظهور هذا

(١) أنظر مقال المؤلف « بين النون والبيئة في كل العراق ومصر ، مجلة كلية الآداب

١٩٦٧ ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٢) أنظر نفس المقال السابق ، شكل (٢ ب) .

الطراز لما له من ميزة دفاعية إزاء ما استحدثت من أسلحة أبعد مدى من أسلحة العصور السابقة، وبما يؤيد ذلك أنه على الرغم من بناء معابد أرضية إلى جوار هذه المعابد المرتفعة فإن كلا من هذه المعابد كان يحاط بسور خاص إلى جانب السور العام الذى كان يحيط بمجموعة المعابد .

وكانت المعابد عموماً تخضع فى تصميمها لتقاليد موروثة إلا أن المعماريين كثيراً ما كانوا يتصرفون فى ترتيب أجزائها المختلفة - والتصميم الغالب فيها أن يكون بجدارها الخارجى مدخل أو أكثر لها بوابات مزدوجة وتؤدى إلى فناء أوسط وهو بدوره يؤدى إلى بهو عن طريق بوابة رئيسية ، وهذا البهو ينتهى فى طرفه البعيد بالهيكل الذى تقع أمامه غرفة يلحق بها كما يلحق بالهيكل مخازن للأمتعة المقدسة ، وكان من المعتاد أن يوضع فى أساس كل معبد رمز للوقاية يكون أحياناً عند البوابة فى إحدى المشكاوات وأحياناً تحت أرضية قدس الأقداس وقد يوجد مذبح أمام قدس الأقداس إلا أن الغرض منه يكون رمزياً فحسب لأن مذابح أخرى كانت تقام فى أماكن أخرى من المعبد، ومنها ما كان كبير الحجم بحيث يصلح لذبح الماشية .

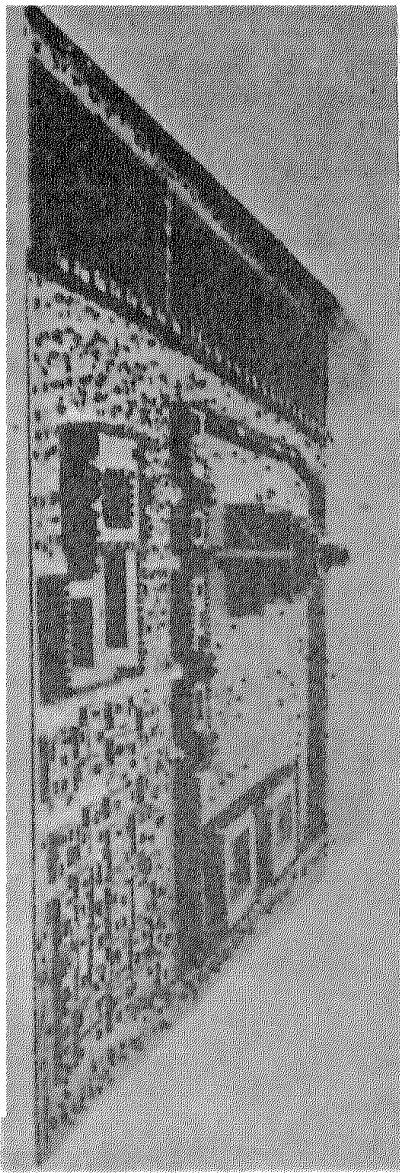
ومن الجدير بالذكر أن قدس الأقداس فى المعابد المرتفعة (الزاقورات) كان يتمثل فى أعلى طبقة منه حيث يوجد هيكل كبير روى هيرودوت أنه كان يحوى سريراً مزخرفاً زخرفة فخمة وتقوم إلى جانبه مائدة من الذهب ، كما يروى هيرودوت أن الإله كان يختار لإمرأة من الريف

لتمضى الليل فى هذا الهيكل (١).

وفى العهد البابلى ظهر طراز جديد من المعابد يبدو أنه كان مشيئدا لعبادة الملك الحاكم وهو مربع الشكل أضيفت إليه ركائز أو دعائم، وفى مدخله برجان مزينان بالتجاويف - وهذا المدخل يؤدي إلى ممر ضيق فى يساره غرفة للتخزين وفى نهايته بناء مربع يؤدي إلى صومعة بها كوة لتمثال الإله أمامها مجرى من الفخار لتصريف سوائل القرابين وإلى يسار الصومعة غرفة للإجتماعات أو للصلاة - وإلى يسار المعبد قصر الحاكم الذى يقع إلى غربه معبد آخر بنفس نظام المعبد السابق ولكنه يتميز بما ألحق به من مبان خصصت للكهنة - ومن هذا يبدو واضحا أن قصر الملك كان يحتوى بهذين المعبدين حيث كان من المحتمل أن يمر من يذهب إلى القصر بأحد المعبدين وكان عليه بعد ذلك أن يمر فى غرفتين طويلتين ضيقتين شددت عليهما الحراسة - وبين الغرفة الأخيرة والقصر ساحة مربعة تؤدي إلى الديوان، وهو عبارة عن حجرة كبيرة للأعمال الإدارية والاحتفالات تحيط بها دوائر - وبلى هذه الحجرة قاعة للعرش تفصل الديوان عن الغرفة الخاصة للملك.

ولم يحدث تطور يذكر فى طرز المعابد أو القصور الملكية إلا فى زيادة عدد الأبنية والحجرات وإضافة أبراج قوية عند الزوايا كما زينت الفجوات التى بجدران المعابد بمنحوتات بارزة من الآجر - وفى عهد الآشوريين استعملت ألواح حجرية لحماية الأجزاء السفلى من جدران

المعابد والقصور كما أن المناظر المنقوشة على الجدران كانت تزجج - أما أسوار المدن فسكان في كل ضلع لها مدخلان ، وهذه المداخل تحميها أبراج قوية ، وعلى أبواب القصور وضعت تماثيل لثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية ربما كان القصد منها أن تكون رمزاً للحماية - أما في العصر البابلي الحديث فقد اختفت هذه التماثيل وحلت محلها نقوش لحيوانات وأزهار على آجر أزرق مزجج ، وكان قصر الملك يقع في إحدى نهايتي الشارع الرئيسي للمدينة وفي النهاية الأخرى يوجد المعبد الرئيسي وإلى جواره برج بابل أو زاقورة الإله مردوخ (شكل ٥٤).



شكل (٥٤) : منظر عام لمدينة بابل وقصورها وزيقورة الإله مردوخ

سادسا - ايران

تدل الابحاث الجيولوجية على أن إيران كانت أثناء العصور الجليدية في أوروبا تكثر بها السطوح المائية لتعرضها لكمية وفيرة من التساقط حتى أن كثيراً من جهاتها بما في ذلك بعض الوديان العليا كانت تحت سطح الماء ، وأن صحراء الملح التي تتوسط الهضبة كانت بحيرة عظيمة أو بحراً داخليا ، وفيما بين الالفين الخامس عشر ولعاشر قبل الميلاد أخذ المناخ يتدرج نحو الجفاف وحدثت بعض التطورات التي أدت إلى تراكم رواسب الأنهار عند مصباتها مكونة مدرجات مرتفعة تمثل منطقة انتقال بين الجبال وبين السهول الفيضية التي كانت في سبيل التكوين .

ولا بد أن إنسان العصور قبل التاريخية الذي عاش في الهضبة^(١) كان ينتقل إلى حافة السطوح المائية كلما أخذت هذه في الانكماش والتراجع ، وكان حينئذ يعيش في جماعات متفرقة متباعدة في معظم الأحيان - وقد تعرضت هذه الجماعات إلى مؤثرات خارجية لقربها من مناطق حضارية مثل بلاد النهرين من جهة ولوقوعها في طريق الهجرات البشرية الآتية من المناطق الرعوية والجبلية من جهة أخرى - وفضلا عن ذلك فإن وقوع الهضبة الإيرانية بين بلاد النهرين وبين أرمينيا ورجبة ملوك (الاولى في الحصول على بعض الموارد من الأخيرة مثل الرصاص قد أدى إلى أن

(١) عن حضارات العصور قبل التاريخية في إيران أنظر كتاب المؤلف «عالم تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم» ص ٣٩٨ وما بعدها .

تصبح إيران أو جزء منها على الأقل منطقة عبور لمثل هذه الموارد .
ولا يعرف على وجه التحديد متى وصل الإيرانيون الذين ينتمون إلى
العناصر الهندو أوروبية التي كونت امبراطوريات عظيمة فيما بعد - ولكن
من المرجح أنه في خلال الألف الثانية قبل الميلاد قامت هجرة عظيمة
من الشعوب الهندو أوروبية من مواطنها التي كانت على الأرجح في السهول
الأوراسية جنوب روسيا - وقد تفرعت هذه الهجرة إلى شعبتين : غربية
دارت حول البحر الأسود وعبرت البسفور ثم وصلت إلى آسيا الصغرى
(وفي أثناء دورانها تقدمت بعض جماعاتها إلى شبه جزيرة البلقان) ويطلق
على هؤلاء اسم الهندو أوريين ، وشرقية دارت حول بحر قزوين وعبرت
القوقاز ثم وصلت إلى منحى الفرات واختلطت بالخوريين الأصليين الذين
كانوا أيضا من أصل آسيوى ، ونشأ عن ذلك الاختلاط قيام مملكة
ميتاني ، وقد خرجت من هذه الجماعات بعض العناصر المحاربة التي تستخدم
الجياد إلى امتداد جبال زاغروس واخترقتها جنوبا إلى منطقة اشترت
فيها بعد كركز لتربية الخيول ، وقد بدأت هذه الجماعة في تلك المنطقة
كأقلية نشيطة سرعان ما طغى نفوذها على سكانها الأصليين الذين كانوا
يعرفون باسم الكاشيين وامتصتهم - وهذه المجموعة الشرقية كلها عرفت
باسم الهندو إيرانيين .

ويمكننا أن نتخيل بأن الإيرانيين وصلوا إلى الهضبة بزوجاتهم
وأولادهم وحيواناتهم ، وقد انتهزوا فرصة انقسامها إلى عدد من الدويلات
فدخلوا في خدمة أمراءها كمحاربين مرتزقة وتمسكوا في النهاية من أن
يستأثروا بالسلطة وأجبروا السكان الأصليين على الخضوع لهم .

ومن العسير أن نتتبع هذه التطورات إذ لا توجد وثائق تدل عليها ولكن يمكننا أن نستنتج بعض مظاهر حضارتهم من الآثار التي خلفوها إلى جانب الآثار الدالة على حضارة السكان الأصليين ، وتدل البقايا البشرية التي عثر عليها لهؤلاء القادمين الجدد على أن معظمهم كانوا من ذوى الرؤوس العريضة أى أنهم كانوا يشبهون العناصر التي انتشرت في إيطاليا وغرب أوروبا ، وكانوا ينقسمون إلى جماعات قبلية حلت كل منها في جزء من أجزاء الهضبة - وكان الميديون والفرس (الآخمينيون) أهم هذه الجماعات وقد نزل الميديون في غرب الهضبة ثم كونوا دولة صغيرة الأجل عرفت باسم الدولة الميدية ، ونزل الفرس في الجزء الجنوبي الغربي وأصبح اسمهم يطلق عن هذه المنطقة التي استثمروا فيها ثم صار عليا على الدولة التي شملت الهضبة كلها وبلغت من الاتساع في وقت ما درجة جعلتها أعظم الامبراطوريات في الشرق الأدنى .

والمختلصة أن ظهور هذه الشعوب في هضبة إيران واندماجها مع سكانها الأصليين قد بعث فيها حيوية فائتمة ونهضة حضارية عظيمة إذ بعد أن كانت الهضبة تسودها دويلات مدن أو دويلات حول المعابد سرعان ما تحولت هذه إلى اتحادات قوية ما لبثت أن كونت إمبراطوريات من أقوى الامبراطوريات التي ظهرت في التاريخ وأبعدها أثراً في ميدان الحضارة .

ومها قيل عن اختلاف هذه الجماعات عن السكان الأصليين من جهة واختلاف قبائلهم ومكان استقرارهم من جهة أخرى فإنه من الممكن مع التفاضى عن قصر أجل دولة الميديين - أن نعتبر أن الحضارة التي

وصلت إليها هذه الجماعات - مع شيء من التجاوز - كانت استمراراً لمظاهر حضارية كانت قائمة في الهضبة وتطوراً لها ، سواء كانت هذه أصيالة أو متأثرة بمؤثرات خارجية .

الحياة الاجتماعية

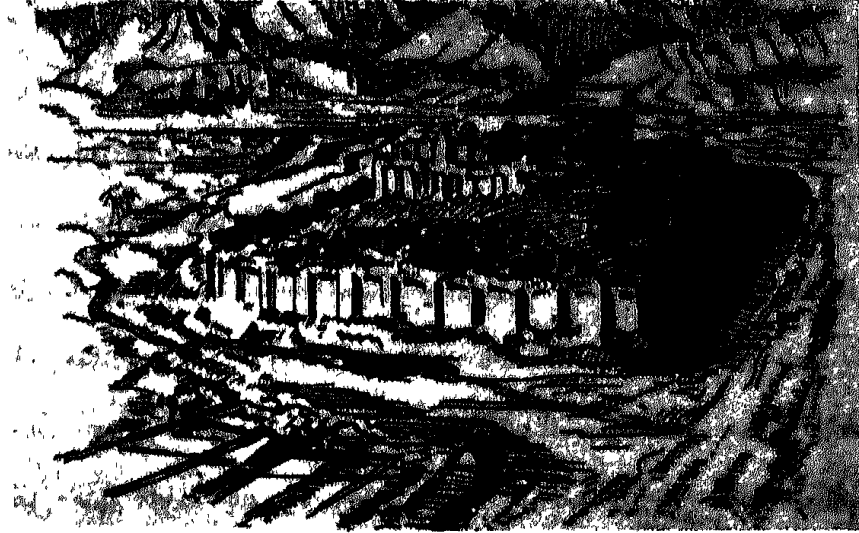
بالرغم من أن حضارة الإيرانيين كانت مثل حضارة الهيتيين مبنية على مجدها العسكري إلا أنها تميزت ببعض المظاهر التي تدل على رقيهم في مضمار الحياة المدنية وإن كان الكثير من أصول هذه المظاهر قد اقتبس من غيرهم ، ومع هذا فقد فاقوا كثيراً من الأمم في تطوير هذه المظاهر الحضارية واستحداث مظاهر أخرى .

ولاشك في أن المرأة في العصور السحيقة قامت بدور حاسم في الحياة الاجتماعية وتعرفت على الكثير من الأشياء التي كان لها أكبر الأثر في حياة الإنسان ، فإليها يعزى التعرف على بعض الثمار الصالحة للطعام وملاحظة بعض النباتات في نموها - وقد تكون جهودها هي التي أسفرت عن معرفة الزراعة واختراع الأواني الفخارية . وربما كانت ضخامة الدور الذي قامت به بالقياس إلى دور الرجل هي السبب في اتباع النظام الأموي في كثير من المجتمعات البدائية ، ولا بد أن هذا النظام كان سائداً بين سكان الهضبة القدامى ثم انتقل منهم إلى الآريين فيما بعد - ومن المرجح أن المرأة استطاعت أن تتحكم في شؤون الجماعة وتمتعت بمكانة جعلتها تصل إلى أقوى المراكز فتأمت في بعض القبائل بقيادة

الجيش^(١) كذلك كانت تصل إلى الكهانة . وكانت الوراثة تنتقل في فرع المرأة باعتبارها بمثابة لنقاوة العنصر إذ يغلب على الظن أن تعدد أزواج المرأة كان شائعا كما كان زواج الأخ من أخته مألوفا - وقد ظل هذا النظام الأخير إلى عصور متأخرة وكان منتشرا في مختلف أقطار الشرق الأدنى ، ومن الغريب أن زواج الأم بالإبن كان معروفا في الحضبة ولكنه كان نادراً .

وكان المجتمع الإيراني ينقسم إلى طبقات : الأمير والنسلاء ويليهم الرجال الأحرار الذين يملكون ضياعا ثم الأحرار المعدمين ، وأخيرا العبيد - وكان الملك على رأس الدولة ويلقب بلقب « خشائرا » أى « المحارب » مما يبين الصفة العسكرية للملكية الفارسية ، وكان سلطان الملك مطلقا يملك ويحكم وأوامره مطاعة نافذة ، غير أنه كان يتقيد بتقاليد وعادات موروثية إذ أنه كان يهب الأعيان والنبلاء بعض الاقطاعات ويجعل منهم مجالسا للشورى يصدر أوامره بعد الرجوع إليه ، وكان أعضاء هذا المجلس هم الوسطاء بينه وبين الشعب - وكان الناس يعتقدون بأن الملك ملهم يستمد أحكامه من إله الخير « أهورا مزدا » أى أن المشيئة الإلهية كانت أساس الحكم في الدولة . ومن يخالف أوامر الملك كان يعد آثما في حق الإله الأعظم ، وبمرور الزمن انصرف الملوك عن بعض شئون الحكم وعهدوا بها إلى أشرفهم ورجال قصورهم وتفرغوا للملازم مما أدى إلى ضعفهم في النهاية - وكان من المؤلف أن يبنى الأمير مقره فوق تل

صناعى بينما تكون مساكن المدينة عند أسفل هذا التل ويحيط بالجميع سور ضخيم يدعم على الجوانب بأبراج قوية (انظر شكل ٥٥) وكانت بيوت هؤلاء الامراء والسادة العظام تضم عدداً من الخدم والرقيق من النساء والرجال كما تضم عدداً من ذوى المهن المختلفة ينتجون لسادتهم كل شىء ، ولم يكن الفنانون الاحرار يستخدمون إلا قليلا .



(شكل ٥٥) : مدينة إيرانية قديمة

وكان الاعيان والتبلاء أصحاب سلطة تكاد تكون مطلقة في عواصمهم .
يسنون القوانين وينفذون الاحكام القضائية ويجبون الضرائب ولهم قواتهم
المسلحة الخاصة بهم ، وفي مقابل هذا كان عليهم أن يمدوا الملك بالمال
والعتاد وقت القتال .

وكان القرويون يتمتعون بقسط أوفر من الحرية مما كان يتمتع به

أقرانهم في بلاد النهرين أو مصر إذ كانت الملكيات الصغيرة توجد إلى جانب الاقطاعيات الكبيرة ، وقد أخذ نظام الملكيات الصغيرة في الانتشار إذ كان يشجعه الميل الفريرى نحو الانفرادية .

ومع أن الميدين كانوا يعيشون حياة زراعية في قرى إلا أن الحكومات المركزية لم تكن موجودة في أول الامر ؛ وكان كل أمير يعتمد إلى جانب مزارعه ومراعية على مناجمه وغنائه في الحروب وما يتقاضاه نظير حمايته للتجار الذين كانوا في بداية الامر من غير الإيرانيين ، وبالطبع كان الامراء يشجعون النشاط التجارى للعمل على زيادة دخلهم .

وكان الفرس يميلون إلى التزين فأكثروا من استعمال أدوات التجميل والمساحيق والزيوت العطرية والاصباغ حتى أن الملوك كانوا لا يخرجون إلى الحرب دون أن يحملوا معهم زيوتهم العطرية ، واستخدموا أنواعا مختلفة من الحلى مثل الاقراط والحلاخيل والتائم والاساور وغيرها كما كانوا يستعملون التيجان والاحذية .

الدولة

سبق أن أشرنا إلى الدويلات التي كانت منتشرة في الهضبة ، كما أشرنا إلى اعتماد كل أمير في موارده على منتجات أراضيه ومراعيه إلى جانب الغنائم التي كان يحصل عليها من حروبه والمكوس التي كان يفرضها على التجار - وحينما اتسعت رقعة الامبراطورية نجح ملوكها في تنظيم إدارتها نجاحا كبيرا وقد وضعوا أسسا ثابتة لتنظيمها إذ أنهم قسموها إلى عشرين ولاية تشمل مختلف الاقطار والجهات التي أخضعوها - وكان الملك يعين لكل ولاية حاكما هو الوالى الذي كان بمثابة الملك فيها لأن الولاية كان لها كيائها السياسى الخاص بها ، ولذا كان الملك الفارسى يلقب بملك الملوك .

ومع أن الولاة كانوا أعوان الملك في إدارته لامبراطوريته إلا أنهم كانوا أحيانا مصدر خطر على الامبراطورية وخاصة إذا ما أرادوا الاستقلال أو أصبحت وظائفهم وراثية ، ولتجنب هذا الخطر عمد الملك إلى تعيين قائد لجيوش الولاية مستقل فى اختصاصه عن الوالى ويتبع الملك مباشرة كما كان يعين سكرتيرا للولاية ورئيسا لموظفيها الماليين ويرسل إليها عددا من المفتشين الذين يحملون ألقابا مختلفة توحى بمهامهم مثل « عين الملك » ، « رسول الملك » ، « أذن الملك » وهؤلاء جميعا كانوا يتبعون الملك مباشرة ومعظمهم كان من الأسر النبيلة .

وبما ساعد على نجاح الامبراطورية فى إدارة ممتلكاتها أن الاباطرة أنشأوا بها كثيرا من الطرق ونظموا البريد لتيسير الاتصال بينهم وبين

مختلف أنحاء إمبراطوريتهم ، ومن أهم هذه الطرق طريقان كبيران أنشأهما دارا : أحدهما يصل بين ليديا والعواصم الفارسية ، والثاني يبدأ من مصر إلى فارس ويمتد شرقا حتى حدود الصين - كما أنشأوا المراكز التجارية والخانات لتأمين المسافرين ومدعم بها يحتاجون إليه من زاد ومؤون فكانت هذه الطرق والوسائل سببا في تثبيت الحكم المركزي وعاملا من عوامل نقل المظاهر الحضارية بين مختلف أنحاء الشرق الأدنى القديم - ولم تقف عقبة في سبيل الانتقال من مكان إلى آخر إذ اشتهر الفرس بإقامة القناطر على الأنهار بحيث تتحمل عبور مئات الأفيال فوقها .

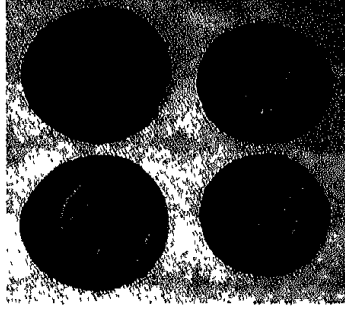
وقد تمتعت الولايات التابعة للإمبراطورية بشيء من الحرية إذ سمح لها باستعمال لغتها الخاصة وعاداتها وتقاليدها وديانتها وعملتها ، بل وبقاء أسرتها الحاكمة أحيانا مما جعل بعض الولايات تحس بأنها أحسن حالا في تبعيتها لفارس من خضوعها لقادتها أنفسهم لأن هؤلاء الأخيرين كانوا يرمقونها بالضرائب بينما كان ملوك فارس وخاصة دارا الأول يحدد الضرائب التي تجبى من كل ولاية على حسب إمكانياتها الطبيعية .

وقد اهتم معظم الملوك بتحسين إنتاج الأراضي الزراعية فلجأوا إلى حفر القنوات كما نقلوا بعض النباتات والأشجار والحيوانات والطيور من بيئة إلى أخرى بقصد تميمها وتنميتها في غير مواطنها التي جلبت منها كما حاولوا استنبات أنواع جديدة من النباتات في مختلف أنحاء الإمبراطورية، ومع أن الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض في الملكيات الكبيرة بحيث يسكونون ما يشبه الرقيق إلا أن بعض الفلاحين كانت لهم ملكياتهم

الصغيرة التي يتمتعون فيها بقسط من الحرية .

وكان اتساع رقعة الامبراطورية وانضواء كثير من الولايات الغنية المختلفة الموارد تحت لوائها سببا في جمعها قدرة على الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية إذ لم تعوزها الموارد التي تحتاج اليها ، فالأخشاب الجيدة التي تستخدم في البناء وصنع السفن والعربات والاسلحة والمعدات الحربية وغيرها كانت موجودة على الساحل الفينيقي وآسيا الصغرى وكريت وقبرص ، والفضة والنحاس والحديد كانت تأتي من قبرص كذلك ، ومن آسيا الصغرى يأتي النحاس والفضة ، ومن إقليم كرمان كان يأتي الذهب والفضة - وإلى جانب هذه المعادن كانت أحجار البناء الجيدة تجلب من عيلام وتجلب الاحجار الكريمة وشبه الكريمة من جهات أخرى مختلفة، وبما زاد الحالة الاقتصادية لإنعاشا أن موارد الثروة السمكية في دجلة والفرات والخليج العربي كانت من الوفرة بحيث كان من الممكن تصدير الفائض منها بعد أن تملح وتقدد .

وقد عمدت الدولة إلى تيسير التعامل فاستخدمت النقود المسكوكة ابتداء من عهد دارا الاول (شكل ٥٦) - وربما كان استعمالها مقتبسا عن الليديين ولو أن أوزانها وأقسامها مأخوذة عن النظام البابلي في تقسيم الوحدات القياسية - كذلك شجعت مصارف المعابد والمصارف الخاصة التي كانت تقوم بإقراض المحتاجين كما أن مبدأ الإئتمان أو أوراق الاعتماد والسندات كانت معروفة وإن كان من الممكن أن نرجع هذه النظم جميعها إلى أصول بابلية - ومع أن الفرس استحدثوا كتابة مسارية اقتبسوها من الخط البابلي إلا أن اتساع رقعة الامبراطورية ومحافضة الشعوب التي



(شكل ٥٦) : نماذج من العملة الفارسية

دخلت تحت سلطانها على تراثها القديم لم ييسر انتشار هذه الكتابة، وعلى ذلك ظلت هذه الامم تستعمل لغاتها وكتابتها الخاصة - إلا أن الفرس استعملوا في معاملاتهم التجارية والمعاملات المشتركة الاخرى الكتابة الآرامية في كتابة مدوناتهم إلى جانب الخط الفارسي المسماري، كما استعملوا اللغة الآرامية ذاتها أحيانا مما ساعد على نشاط التعامل التجارى إذ أن الخط الآرامى كان واسع الانتشار في الشرق الاذن القديم (أنظر أعلاه ص ١٦٧ - ١٦٨) .

وقد استتب النظام في أنحاء المملكة في أوقات نهضتها بفضل سيادة القانون وعدم التهاون في تطبيقه ، ويبدو أن القضاء في فارس كان يشبه القضاء في بابل إلى حد بعيد ، وكان الاهتمام منصبا على تطبيق العدالة في مختلف النواحي - ومن المرجح أن القضاة كانوا يستبقون في مراكزهم مدى الحياه ما لم ينسب إليهم ما يدعو إلى فصلهم بسبب عدمهم عن العدالة - وكان الملك هو مصدر القوانين والشرائع وأحكامه تعتبر مستوحاة من الإله نفسه ولذا اشتهر الفرس بالتمسك بالقانون ، وكان الملك نفسه

يعتبر المحكمة العليا التي تستأنف إليها الأحكام وإن كانت تليه محكمة عليا خاصة مكونة من سبعة قضاة ويلى هذه المحكمة المحاكم الأخرى التي تنتشر في أنحاء المملكة - وقد نشأت جماعة خاصة متضامنة في الشؤون القضائية كانت أشبه بالمحلفين ، وكانت الرشوة من الجرائم الكبرى ولم يتهاون الملوك إطلاقا في معاقبة القضاة الذين لا يلتزمون العدالة حتى أنه ينسب إلى قبيز بأنه سلب أحد القضاة وهو حى وجعل من جلده منصة في مكان القاضي وعين ابنه في مكانه - هذا ويلاحظ أن العقوبات كانت في معظمها قاسية تشمل الجلد والتشويه وقطع الأعضاء وسمل العيون إلى جانب الإعدام بوسائل مختلفة .

العسكرية

تدل أقدم النقوش على أن المحاربين كانوا ينقسمون إلى مشاة وفرسان يركبون الجياد وفرسان يستخدمون العربات التي يجر كل منها زوج من الخيل ، ويتميز الخيالة بما يلبسونه من أحذية تنحني في مقدمتها إلى أعلى - وقد عثر في بعض المقابر على أسلحة مختلفة منها السيوف والخناجر والدروع ورؤوس السهام وكلها كانت من البرونز أو الحديد ، كذلك عثر على أعنة للخيول وحلى لرؤوسها وصدورها .

وكانت الخدمة العسكرية إجبارية لكل ذكر سليم بين سن الخامسة عشرة والخمسين ، ويبدو أن الجندية كانت محبوبة إذ كان الجند يخرجون إلى القتال بموسيقاهم بين تهليل الأهالي - وكان الجيش يخضع لإشراف الحرس الملكي الذي يضم عدداً من النبلاء والإشراف ومهمته حراسة

الملك والمحافظة على حياته وكان غالبا يتألف من ألفين من الفرسان ومثلهم من المشاة - أما الجيش نفسه فكان يتألف من وحدات أساسية نظامية ووحدات أخرى عامة ، وكانت الوحدات الأساسية تتكون من الفرس فحسب وهى التى يعتمد عليها فى صيانة الأمن فى أنحاء الامبراطورية أما الوحدات العامة فتضم فرقا من شعوب مختلفة ترسل إلى الأقطار الخاضعة للإمبراطورية وكل فرقة منها كانت تتبع أساليبها الحربية وتحفظ بتقاليدها وأسلحتها ولغتها القومية ، ولهذا فإنه على الرغم من الضخامة التى كان يصل إليها عدد الجيش فإن نقطة الضعف فيه كانت تتلخص فى انعدام الوحدة والتناسق بين مجموعاته المختلفة لاختلاف عتادها وتنظيمها .

أما عن الأسطول فلا شك أن تجربة الفرس فى ركوب البحر كانت فى بداية الأمر أقل منها لدى غيرهم ولذا كانوا يستعينون بالفينيقيين ، ومع هذا لم يدخر الفرس وسعا فى إنشاء أسطول قوى كان يضم سفنا فينيقية ويونانية ، واستخدموا فيه المصريين والقبارصة والسوريين وغيرهم إلى جانب الفينيقيين ويونان آسيا الصغرى - واستطاعوا أن يسيطروا على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى وكانت سفنهم التى صنعها الفينيقيون بأمر ملوك فارس على ثلاثة أنواع : سفن الهجوم وناقلات الجنود والخيول وناقلات الأمتعة والذخائر ، وكانت هذه الأخيرة صغيرة الحجم نسبيا - وقد أدى هذا التفوق البحرى إلى عنايتهم بالتجارة البحرية والعمل على حمايتها ونشاطها وقد أرسلوا بعثات استكشافية من الهند إلى البحر الأحمر ومن الجزائر إلى اليونان وإيطاليا كما شقوا القناة التى توصل بين النيل والبحر الأحمر .

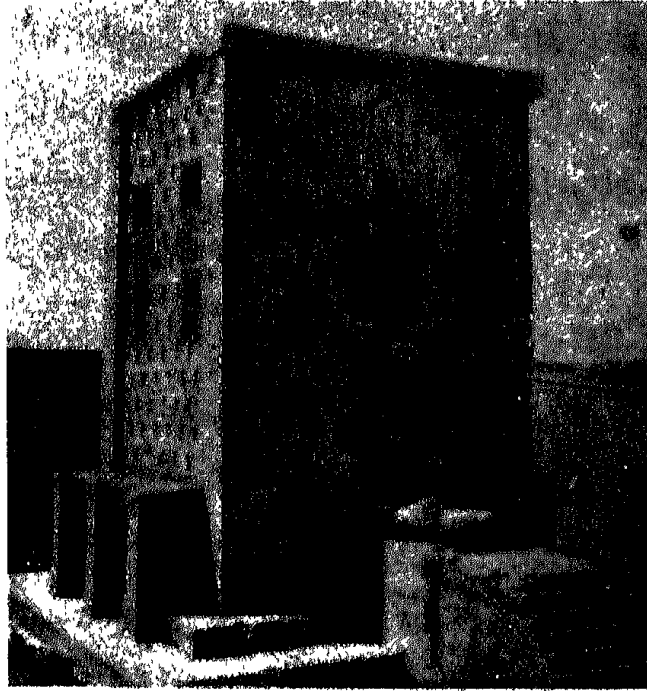
الديانة

كان الآريون كغيرهم من شعوب العالم القديم يعبدون معبودات ترتبط بظروف بيئتهم ، ونظراً لأنهم كانوا يعيشون في مناطق جبلية فإن أهم معبوداتهم كان زوجا من الآلهة أحدهما إله العواصف والمطر والثاني إلهة الشمس أحيانا والأرض أحيانا أخرى ، إلى جانب ما عبده من الحيوانات والأجداد . وكان الفرس كغيرهم من الشعوب الأخرى يعبدون قوى الطبيعة المختلفة فعبدوا الشمس كإله باسم « ميثرا » والأرض باسم « زام » والرياح باسم « وهيو » كما عبدوا الماء والنار أيضا ، وكانوا يقسمون الموجودات إلى قسمين : موجودات خيرة تصدر عن قوى الخير وتبعث على السعادة ومن مظاهرها النهار والخضيب والصحة والجمال والاستقامة وما شابهها ، وموجودات شريرة تصدر عن قوى الشر وتبعث على البؤس والشقاء ومن مظاهرها الليل والقحط والقمح والجداع وغيرها ، كما أنهم كانوا يعتقدون بأن قوى الخير والشر في صراع دائم وربما كان هذا هو السبب في عبادتهم لآلهة مختلفة - ويبدو أن عدداً من الآلهة كانت تتطلب تضحيات دموية ربما كانت ترجع طقوسها إلى أصول سحرية ، وهذه الطقوس كان يقوم بها طائفة من رجال الدين يطلق عليهم اسم « ماجي » ، أي « المجرس » - وكانت هذه الطائفة تلعب دوراً كبيراً في الحياة الدينية والاجتماعية رغم أنها كانت تعيش في عزلة ويتزاجون داخليا فيما بينهم فهم الذين يقومون بتفسير الأحلام ، ويلعبون دوراً في تنويع الملك الجديد كما كانوا يصحبون الجيش للقيام بطقوس التضحية ، وكانوا مسئولين

عن تعليم الشبان حراسة المقابر الملكية وكان يعهد لهم بصنع الشراب المسكر الذى يستخدم أثناء الطقوس الدينية . وكان يبعه قاصراً عليهم كذلك ، ومع أن أصلهم وأصل ديانتهم غير معروفين إلا أنه يبدو أن هذه الديانة لم تكن فارسية الذشأة لأنهم كانوا لا يدفنون جثث موتاهم بل يتركونها فريسة للوحوش والطيور الجارحة .

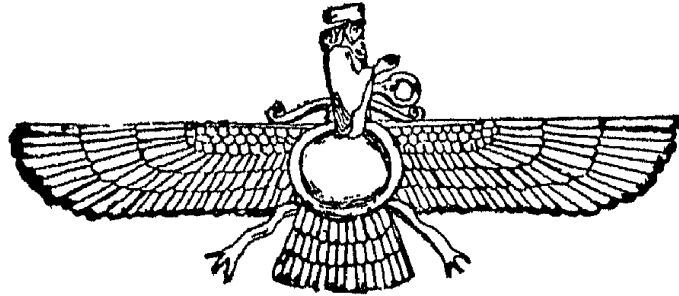
ومع أن هيرودوت ينسب إلى الفرس عدم وجود معابد أو تماثيل للالهة لديهم إلا أن الآثار تثبت غير ذلك فقد عثر على بقايا ثلاثة معابد من عصر الاخمينيين وكل منها فى هيئة برج مربع يشمل حجرة واحدة يمكن الوصول إليها بدرج وفيها كان الجوس يرعون النار المقدسة (شكل ٥٧) - ويبدو أن الاحتفالات الدينية كانت تقام فى الهواء الطلق حيث عثر على المذابح (وكانت عادة أزواجا) فى العراء بعيدة عن المعابد ، وإلى هذه المذابح كانت تساق حيوانات التضحية فى موكب حافل بالعربات التى تجرها خيول مقدسة ، وكانت التضحية تتم فى حضور الملك من أجل إله الشمس ، كذلك صنع الفرس التماثيل لآلهتهم ، وتبين نقوش المقابر الملكية الامراء وهم يقومون بالتضحية أمام مذبح من فوقه قرص مجنح يبرز منه رأس وكتفى الإله « أهورامزدا » (شكل ٥٨) الذى كان يعتبر الإله الحكيم الذى يحكم السماء ويشمل الأرض ويحميها بجناحيه كما يحمى الملك الذى يعد نائباً عنه على الأرض .

وقد نشأت هذه الديانة على يد حكيم يعرف باسم « زرادشت » كان يعيش فى ميديا ولكنه غادرها ليبشر بدينه الجديد فى شرق إيران - ومع أن تاريخه ما زال موضع جدل إلا أن من المعتقد بأنه كان يعاصر



(شكل ٥٧) : معبد النار في نقش رستم

« هيستاسبس » ، والد « دارا » ، الذي كان واليا على إقليمى « بارثيا » و« هركانيا » أيام قبيز وأن هذا الوالى كان من بين الذين استموتهم الديانة الجديدة ، ثم أخذت هذه الديانة بعد ذلك فى الانتشار تدريجيا فى أنحاء فارس - وكانت فكرتها تتلخص فى أن العالم يحكمه عاملان : الخير ويمثله الإله « أهورامزدا » والشر وتمثله روح شريرة هى « أهريمان » ، وتذهب الروايات إلى أن مولد زرادشت قد اقترن بالمعجزات وأنه نشأ محبا للحكمة ولحياة العزلة والاعتكاف وآمن بأهورامزدا كإله قدير للنور وأن هذا الإله ظهر له ووضع « الافستا » بين يديه ، وهو كتاب ملوء



(شكل ٥٨): الإله أهورامزدا

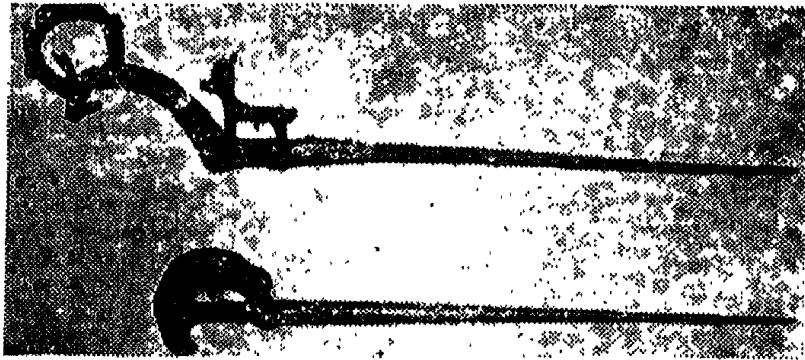
بالمعرفة والحكمة وأمره بنشر تعاليمه بين الناس جميعاً - وقد قاسى في سبيل ذلك كثيراً حتى اضطر إلى الهجرة إلى شرق إيران على نحو ما بينا وما أن تمكن د دارا ، (الأول) من اعتلاء العرش حتى رأى بأن ما يدعو إليه زرادشت يوحى بعناصر الخير في نفوس شعبه فجعله الدين الرسمي للدولة وبذلك تحول الفرس من عبادة آلهة متعددين إلى عبادة معبود واحد ، غير أنهم كانوا يعتقدون بوجود مجموعة من الملائكة الحارسين والكائنات المقدسة التي تعين على الخير وإلى جانبها توجد سبعة من الشياطين أو الأرواح الشريرة وهي تسبح دائماً في الهواء وتسمى لإغراء البشر لارتكاب الآثام والشرور ورئيس هذه الشياطين د أهريمان ، أمير الظلمة وحاكم العالم السفلى ، خالق المعاصي والآثام والثعابين والديدان والآفات وبلايا الحياة ليحطم الجنة التي أسكنها د أهورامزدا ، للسلف - والخلاصة أن في هذه الديانة ما يشبه الأديان السماوية إذ تعترف بإله واحد إلى جانبه ملائكة وتشير إلى شياطين أو أرواح شريرة رئيسها يشبه إبليس في الأديان السماوية - وقد صورت هذه العقيدة العالم في صورة مسرح يتصارع فيه الخير والشر وأن النفس

البشرية ميدان لمثل هذا النزاع إلا أن لكل إنسان قوة خارقة تحضه على الاخلاق الفاضلة أى أن الإنسان حر الإرادة يختار بين النور والظلمة وهو مسئول عن أعماله ، كذلك كانت تحض على فعل الخير وتبين أن طبيعة الإنسان الخيرة تدعوه إلى ذلك ، كما حددت واجبات الإنسان في ثلاثة أمور : أن يعمل على جعل العدو صديقاً والشريك صالحاً والجاهل عالماً ، كما بينت أن أعظم الفضائل هى الصلاح والشرف والامانة فى الأقوال والأفعال . كذلك نصت على التقرب إلى الإله بالتطهر والتضحية والصلاة ، ومع أنها نهت عن إقامة الهياكل والأصنام إلا أن معتقياً أقاموا المعابد على سفوح التلال وفى ساحات القصور وأواسط المدن وأشعلوا فيها النيران المقدسة قرباناً للإله أهوا مزدائم بالغوا فى تقديس هذه النيران حتى وصلت إلى درجة العبادة كما قدسوا الشمس باعتبارها نار السماء الخالدة .

وقد أصبح الدين الزرادشتى المصدر الروحى للفرس منذ عهد دارا الأول واكتسب رجاله قوة وتأثيراً فى الناس إلى درجة أن أصبح ملوك الفرس لا يقبلون على شىء إلا بعد استشارتهم . وتشير « الأفاستا » إلى قرب نهاية العالم حيث تبين أن زرادشت ولد قبل نهاية العالم بثلاثة آلاف سنة وسيظهر من بعده ثلاثة أنبياء من نسله ينشرون دينه فى فترات متباينة ويبيد الأخير منهم حينما تكون الدنيا خراباً فتصلح الأحوال ببعثه ثم تنتهى الدنيا وتقوم القيامة ويخلو الكون من أعراض الشينخوخة والمزال والموت إلى الأبد .

الفنون

لم يعثر على آثار كافية توضح ما كانت عليه الفنون المختلفة التي سادت بين الإيرانيين القدامى ، كما أن دولة الميديين كانت قصيرة الأجل فلم تساهم بنصيب وافر في حضارة الشرق الأدنى القديم ، غير أنه يستدل من أقدم الآثار على أن سكان الحضبة في أقدم العصور كانوا يدفنون موتاهم تحت أسفل المنازل ثم تحولوا عن ذلك إلى الدفن في جبانات بعيدة عن المدن ، وكان الميت يدفن ومعه أثاث جزى يتبين منه أنهم استعملوا الحلى وخاصة من الفضة والبرونز ، إذ عثر على دبابيس تلتهى بأشكال تمثل رؤوس الحيوان (شكل ٥٩) وأساور وحلقات وأحزمة يلبسها الرجال والنساء وخلاخيل من البرونز ومن الحديد أحيانا - كذلك ظهرت في رسوم أواني الفخار عناصر جديدة غير تلك التي كانت شائعة قبلا من الشمس وأبو منجل التي كانت تمثل في تلك الرسوم



(شكل ٥٩) : دبابيس من البرونز

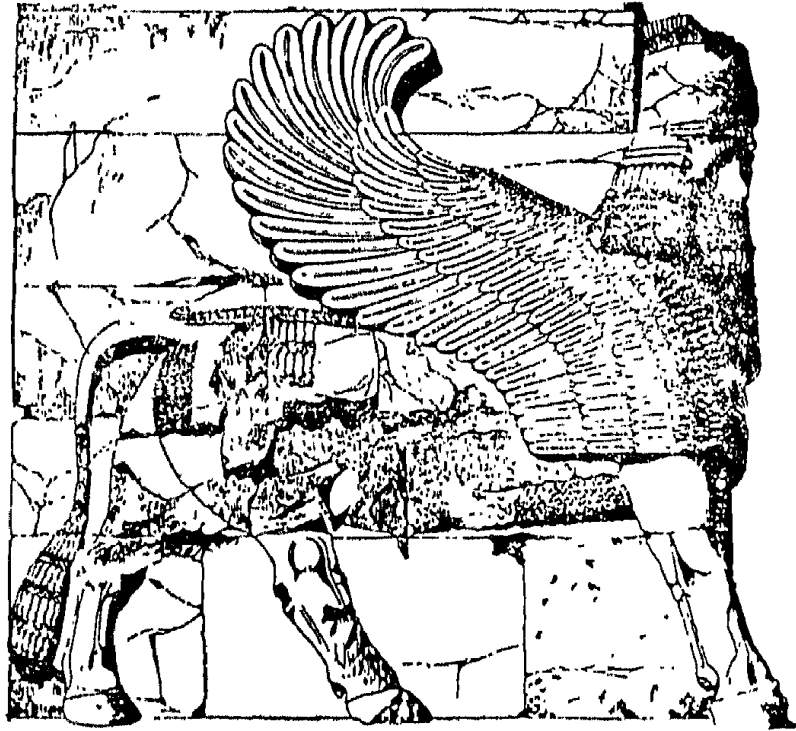
الى جانب الزخارف الهندسية المألوفة كانت الشمس والحصان هي
العناصر السائدة .

ومع أن الفرس هم الذين كونوا أقوى الامبراطوريات القديمة في
الهضبة وبلغوا أرقى مرحلة حضارية وصلت إليها ، إلا أنهم لاشك ورثوا
الكثير عن الميديين ، فقد ورثوا عاداتهم وتقاليدهم كما ورثوا طريقة
كتاباتهم ومغالاتهم في إقامة الأعمدة في عمائرهم فضلا عما ورثوه عنهم من
قوانين مختلفة ، أما من ناحية الفنون والآداب فلم يعثر من الأدلة ما يكفي
لإعطاء فكرة واضحة عنها لدى الميديين .

ومع أن الفرس ظهروا كدولة عسكرية صرفت أغلب أوقاتها في الحروب
إلا أنهم لم يهتموا شأن الفنون وإن كانوا قد اعتمدوا في ذلك على أقوام
أخرى واعتمدوا على الفنانين الأجانب في صناعة آياتهم الفنية ومع هذا
فقد تميزوا بحس مرهف جماعهم يقدرون الفنون فعشقوا الأشعار والقصص
الخيالية وأحبوا الغناء والرقص والعزف على مختلف الآلات الموسيقية، غير
أنهم كانوا يأنفون الاشتغال بها إذ كانت في نظرهم من حرفة
المأجورين والمستضعفين .

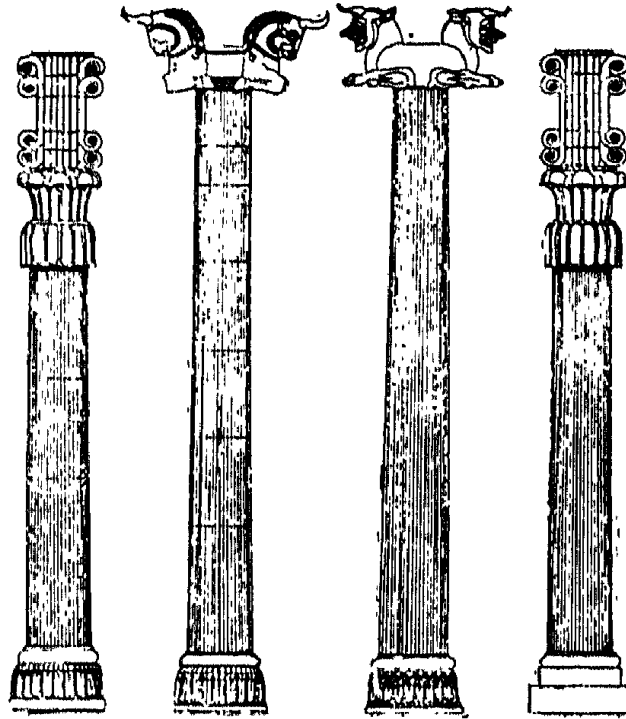
ورغم قلة الجهود الأثرية في هضبة إيران فإن ما عثر عليه من الآثار
حتى الآن يدل بوضوح على مهارتهم في فن العمارة والبناء وقد اشتهرت
بقاياها التي اكتشفت بروعتها الفنية ، فقبة كورش في «بازارجادة»
ما زالت رغم تدهورها تعد آية في الروعة والجمال ، كما أن مقبرة دارا
الأول في «نقش رستم» القريبة من «برسيبوليس» ما زالت تعد

من آيات الفن في العالم القديم - ومن أروع الآثار كذلك ما عثر عليه من بقايا قصر اكرزركسيس في « برسيبوليس » ، إذ تعد مجموعة المدرجات الحجرية والساحة الفسيحة وما بها من عمد شاهقة من آيات الفن الفارسي القديم - وما يلاحظ أن القصر كان يقام على ساحة مرتفعة يرتقى إليها من أسفل الوادي بدرج خارجي يمتاز بالجمال إلى درجة أن بعض علماء الآثار يعتبرونها أبداع الدرجات الموجودة في أية بقعة من بقاع العالم - ويبلغ ارتفاع الساحة ما بين عشرين وخمسين قدماً وطولها نحو ١٥٠٠ قدم وعرضها ألف قدم ، وفي أعلى الدرجات يوجد المدخل وهو واسع تحف به تماثيل هائلة لثيران مجنحة برؤوس بشرية (شكل ٦٠) مما يذكر بالتماثيل



(شكل ٦٠) : ثور مجنح من مدخل قصر اكرزركسيس

التي كانت تزين مداخل القصور في بلاد النهرين ، وبعد المدخل بقليل نجد مجموعة أخرى من الدرجات على جانبيها جدران قصيرة نقشت بنقوش بارزة تعد من أجمل ما عثر عليه في إيران ، وهي توصل إلى قاعة تلحق بها بعض الحجرات تشغل ساحة تزيد على مائة ألف قدم ، هذا وقد أقيم قصر اكزركسيس الأول على ٧٢ عموداً لم يبق منها إلا ١٣ فقط مازالت قائمة بين حطام القصر - وتتميز هذه الأعمدة المصنوعة من الرخام بأنها من قطع متصلة وكلها نحيلة دقيقة ويبلغ ارتفاع الواحد منها ٦٤ قدماً وتشبه قواعد الأجراس التي تغطيها أوراق الأشجار المقلوبة الوضع ، وكان كل عمود ينتهي في أعلاه بشكل صدرى ورأبى ثورين أو حصانين يتصلان من الخلف (شكل ٦١) وكانت جوانب الأبواب والنوافذ من حجر أسود لامع



(شكل ٦١) : أعمدة تنتهى في أعلاها بزخارف ورؤوس حيوانية

أما الجدران والحوائط فكانت مغطاة بأجر مصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهار وإلى خلف هذه القاعة وشرقها قاعة عرفت باسم قاعة المائة عمود لم يبق منها إلا عمود واحد .

ومن الملاحظ أن الفن الفارسي قد اقتبس بصورة واضحة من فنون الدول التي خضعت لسلطان الامبراطورية ولكنه قد طورها حتى بلغت درجة السكال ، فن المرجح أن الشكل الخارجى لمقبرة كورش متأثر بفن ليديا أما أعمدها الحجرية الدقيقة فيمكن مقارنتها بالأعمدة الاشورية ، بينما كان بهو الأعمدة الضخمة والنقوش قليلة البروز من الأمور المألوفة لدى المصريين وربما استعار الفرس فكرتها منهم - أما تيجان الأعمدة التي على شكل الحيوان فيمكن أن تكون مستوحاة مما رأوه في نينوى وبابل .

ولم يكن التصوير والنحت مستقلين عن العمارة بل كانا تابعين لها وربما كانت الكثرة الغالبة من منتجاتها من عمل فنانين أجنب وفدوا على إيران من مختلف الاقطار التي أخضعوها - وقد حاكى اليونانيون الفرس واقتبسوا منهم إلى درجة أن العناصر الفارسية تبدو واضحة في فن العمارة اليوناني ولذا يمكن أن يقال أن الفرس كانوا وسطاء في نقل مظاهر الحضارة من الشرق إلى الغرب .

خاتمة

إذا كان الإنسان في عصرنا الحاضر في أى بقعة من بقاع العالم
ينعم بنتاج وخبرات إخوانه من بنى الإنسان في بقاع العالم الأخرى
مما اختلفت المشارب فإنه قد استفاد كذلك من خبرات أسلافه في
المصور السابقة حتى أن من الممكن أن يقال بأن الحضارة في العصر
الحديث لا تخرج في مظاهرها عن كونها استمراراً وتطوراً لمظاهر
الحضارات السابقة التي ظهرت في أجزاء مختلفة من العالم - وقد تبه
الإنسان إلى فضل الحضارات السابقة واعتبرها التراث الأدى الذى يجب
المحافظة عليه ودراسته دراسة مستفيضة حتى يمكن الوصول إلى معرفة
أصول وأسس حضاراته الراهنة ، ولذا نجد أن أمم العالم جميعها
تتعاون بصورة أو بأخرى في الحفاظ على هذا التراث ومحاولة إحيائه
بشقي الوسائل ، وعلى ذلك فليس من المستغرب أن نجد الأمم المتحضرة
تساهم بنصيب فعال في إنقاذ الآثار المعرضة للخطر، كما أن كثيرا من الدول
ترسل بعثاتها للتنقيب عن الآثار أو ترميمها أو نشر معلومات وافية
عنها في مختلف الأقطار لافرق في ذلك بين جنسية وأخرى لأن التراث
الحضارى ملك للإنسانية جميعها (١).

وكثيراً ما نجد بعض الدول تأخذها العزة بوجود بعض مظاهر
حضارية قديمة فتحاول جاهدة أن تثبت أنها أقدم الأمم حضارة وأن

(١) أنظر مقدمة الكتاب

أصول الحضارة الأولى قد وجدت فيها ولكن ما دمنا قد ذكرنا بأن التراث الحضارى ملك للإنسانية جميعها فليس المهم لإثبات أسبقية دولة ما فى ميدان الحضارة ولكن المهم أن يكون لهذه الدولة فضل نقل هذه المظاهر الحضارية إلى غيرها من الدول ، والاهم من ذلك كله أن يقوم شعب ما بدور فعال فى نقل وتطور المظاهر الحضارية المختلفة وأن يعطى منها لغيره كما يتقبل من غيره بعض المظاهر الأخرى وهكذا - ومن الجدير بالذكر أن الحضارات القديمة التى لعبت دوراً هاماً فى حياة الناس هى تلك التى نشأت فى منطقة الشرق الأدنى لأن هذه المنطقة بحكم موقعها كانت تتوسط العالم القديم فهى البؤرة التى أشعت المظاهر الحضارية إلى كافة أنحاءه - وكان تناوب مختلف أجزاء هذه المنطقة فى الوصول إلى القوة والمجد سبباً فى المحافظة على التراث الحضارى القديم والاختذ بأساليب جديدة دعمت تطوره وانتشاره.

ولاشك فى أن الإنسان لم يجد متسعاً من الوقت للتفكير فى الإنتاج المثمر الذى يؤدي به إلى النهوض الحضارى إلا إذا استقر وشعر بالامن فى بيئته - وقد يرى البعض أن الحضارة تنشأ وترتقى على أساس قاعدة التحدى والاستجابة - بين الإنسان وبيئته - ولكن لاشك فى أن كل إنتاج إنما يبدأ من أجل الكفاج فى سبيل العيش أولاً ثم من أجل الرغبة فى الرفاهية ثانياً ، والأرجح أن ميل الإنسان الطبيعى للترفه هو العامل الأول فى نهضة الحضارات ورقياها .

ولذا ما نظرنا إلى إقليم الشرق الأدنى القديم بصفة عامة لوجدنا أن استقرار الإنسان يتوفر فى بيئاته الزراعية الكبرى التى تبدو فى مصر وبلاد

النهرين بصفة خاصة ووديان الأنهار في مختلف بقاعه بصفة عامة، ولذا نجد أن أقدم الحضارات في هذا الإقليم هي تلك التي نشأت في هذه الجهات الزراعية - وبقدر ما نعم سكان تلك الجهات بالأمن بقدر ما تطورت حضارتهم وتدرجوا في مراتب النهوض والرقى ، وخير دليل على ذلك ما نشاهده من استمرار الحضارة المصرية ودوامها وتطورها ، فبحكم بيئتها السهلة المنعزلة عن جيرانها أمكن اتحادها تحت لواء ملك أو أسرة حاكمة من جهة كما أنها لم تتعرض لكثير من الغزوات من جهة أخرى - وتلى بلاد النهرين مصر في هذا المضمار ولو أن الحضارة فيها لم تتخذ صفة الثبوت والاستمرار في كل جزء من أجزائها في وقت واحد بل كانت تنتقل بين أجزائها المختلفة . ومع ذلك فإن اتصال هذه الأجزاء بعضها ببعض الآخر قد أوجد نوعاً من الاستقرار لحضارتها بصفة عامة كما عملت الأجزاء التي تنتقل إليها هذه الحضارة على تطويرها والنهوض بها - ولاشك في أن سهولة اتصال بلاد النهرين نسيباً بالاقطار المجاورة لها قد جعلها ذات أثر فعال في نقل مظاهر الحضارة من تلك الاقطار وإليها .

ومن الغريب أن كلا من مصر وبلاد النهرين قد اتصلتا ببيئات مغايرة إلا أن أثر ذلك عليهما لم يكن واحداً ، فن المعروف أن مصر اتصلت منذ أقدم العصور ببلاد النوبة والساحل السوري وكان من أثر ذلك أن أعطت إلى كل من هاتين المنطقتين من حضارتها أكثر مما أخذت منها ، بل ويمكن القول بشيء من التجاوز أنها أعطت لإليها ولم تأخذ عنها - أما بلاد النهرين فقد اتصلت هي الأخرى بالساحل السوري بل وبساحل آسيا الصغرى كما اتصلت بهضبة إيران وأرمينيا وقد أعطت من مظاهرها

الحضارية إلى هذه الجهات كما أخذت القليل من مظاهر بعضها الحضارية ،
غير أن هذا القليل يمكن ملاحظته على أى حال .

ولا بد من أن نشير هنا إلى أن حضارة السهول التي انتشرت في كل
من مصر وبلاد النهرين كانت حضارة سمحة بصفة عامة لا تقسم بالعنف أو القسوة
كما هو الحال في حضارات المناطق الجبلية أو الرعوية وإن كان أهل
بلاد النهرين قد اتجهوا في بعض مظاهر حضارتهم إلى شئ من هذا
فإننا يرجع ذلك إلى ما ينتاب يبتهم أحيانا من مظاهر كونية عنيفة
كالعواصف وغيرها كما أن الجزء الشمالى منها تكثر به المرتفعات مما
يوحى بأن الآشوريين الذين سكنوا في هذه المنطقة كانوا أصلب وأعنف من
البابليين الذين نشأوا في جنوب ووسط بلاد النهرين .

ومن دراسة تاريخ المنطقة يتبين لنا أن المناطق الجبلية حينما
أخذت بأسباب الحضارة كانت تدين في أكثرها إلى حضارات سكان
السهول ، ومع أن الدول التي نشأت في المناطق الجبلية مثل الدولة
الحيثية في آسيا الصغرى والدولة الفارسية في إيران قد انتزعت السيادة
من دول السهول التي نشأت في بلاد النهرين ومصر كما انتقلت إليها
مظاهر الحضارات السابقة ونشأت فيها مظاهر أخرى جديدة إلا أن
تلك السيادة وهذه الحضارة لم يقدر لهما البقاء بل سرعان ما انتقلا
من إقليم الشرق الأدنى بسقوط هذه الدول - وعلى هذا يمكن
القول بأن الحضارة في إقليم الشرق الأدنى شهدت دورين عظيمين
أولهما ظل مستمرا في مناطق السهول والثاني كان في مناطق الجبال ،

ومع هذا ظلت المظاهر الحضارية قائمة في مناطق السهول فترة طويلة بعد أن زالت عنها سيادتها وخضعت لأهل المناطق الجبلية من إقليم الشرق الأدنى الذين سرعان ما قضى على سيادتهم أهل المناطق الجبلية الأخرى من خارج نطاق الإقليم ، وبعبارة أخرى كانت السيادة والحضارة في أيدي الساميين بصفة عامة ثم انتقلنا إلى أيدي الهندو أوروبيين .

المختار من المراجع العامة

١ - باللغة العربية :

- ١ - ابراهيم رزقانه وآخرون « حضارة مصر والشرق القديم » - القاهرة (الالف كتاب رقم ٥٩)
- ٢ - أحمد فخرى واليمن ماضيها وحاضرها، - القاهرة ١٩٥٧
- ٣ - إرمان - رائكة « مصر والحياة المصرية » - مترجم - القاهرة ١٩٥٢
- ٤ - جرنى « الحثيون » - مترجم - القاهرة (الالف كتاب رقم ٤٥١)
- ٥ - ديلابورت « بلاد ما بين النهرين » - مترجم - القاهرة (الالف كتاب رقم ٣٥)
- ٦ - طه باقر « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » - جزءان - بغداد ١٩٥٥ - ١٩٥٦
- ٧ - فرانكفورت وآخرون « ما قبل الفلسفة » - مترجم - بغداد ١٩٦٠
- ٨ - فيليب حتى « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » - مترجم - بيروت ١٩٥٨
- ٩ - كونتنو « الحضارة الفينيقية » - مترجم - القاهرة (سلسلة المراجع الجامعية رقم ١٢)
- ١٠ - محمد عبد القادر محمد « تاريخ الشرق للقديم » - القاهرة ١٩٦٥
- ١١ - محمد عبد القادر محمد « الساميون في العصور القديمة » - القاهرة ١٩٦٨
- ١٢ - مرسى « مصر ومجدها الغابر » - مترجم - القاهرة
- ١٣ - موسكاني « الحضارات السامية القديمة » - مترجم - القاهرة ١٩٦٨
- ١٤ - نجيب ميخائيل « مصر والشرق الأدنى القديم » - الاسكندرية

ب - باللغات الأوربية

- 1 — Albright, " The Archaeology of Palestine " (Pelican, A 199).
- 2 — Atiyah, "The Arabs", (Pelican, A 350) .
- 3 — Capart, "Egyptian Art", (London) 1923).
- 4 — Capart, "Primitive Art in Egypt" (London 1905).
- 5 — Capart, & Contenau, "Histoire de L'Orient ancien", (Paris 1946).
- 6 — Childe, " What Happened in History " , (Middlesex 1943).
- 7 — Contenau, " La Civilisation des Hittites et des Hurrites du Mitani" (Paris 1948).
- 8 — De Burgh, " The Legacy of the Ancient World " , (Pelican, A 284).
- 9 — Edwards, "The Pyramids of Egypt", (Pelican A168).
- 01 — Frankfort, "The Birth of Civilization in the Ancient Near East", (1951).
- 11 — Ghirshman, "Iran", (Pelican, A 239)
- 21 — Glanville, "The Legacy of Egypt", (Oxford 1942).
- 31 — Hayes, " The Sceptre of Egypt ", Vol. I, (New York 1953).
- 41 — Kees, "Das Alte Aegypten", (Berlin 1955) .
- 15 — Lloyd, "Early Anatolia", (Pelican A 354).

- 16 — Maspero, "Art in Egypt", (London 1912).
- 17 — Murray , " The Splendour That Was Egypt " ,
(New York 1949).
- 18 — Petrie, " Social Life in Ancient Egypt " , (London
1923).
- 19 — Roux, "Ancient Iraq", (Pelican A 828).
- 20 — Saggs , " The Greatness That Was Babylon " ,
(London 1962).
- 21 — Scharff & Moortgaat, "Aegyten Und Vorderasien
in Altertum", (Munich 1950).
- 22 — Steindorff & Seele , " When Egypt Ruled the
East", (1942).
- 23 — Wilson, "The Burden of Egypt", (1951).
- 24 — Wilson , " The Cultures of Ancient Egypt " ,
(Chicago 1956).
- 25 — Woolley, "The Beginnings of Civilization", History
of Mankind, Vol. II (New York 1965).

فهرس الأعلام

(١)

آبو (إليفتين) ١٢٣

آتون ٤٨ ، ٨٠

آدابا ٢٢٢

آدم ٢٢٢

آمون ٢٩ ، ٦٥ ، ٧٣ - ٧٥ - ٧٩ - ٨٢ ، ١٠٧

آنو ٢٠٠ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢

الآراميون ١٦٦ - ١٦٨ ، ٢٤٥

الآريون ٢٧٨

الاشمونيون ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤

الاشوريون ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،

٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ ، ٢٩٢

الأكديون ٢٠٥ ، ٢٢٤

الأموريون ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨

الأناضول ١٧٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩

الأنباط ١٥٣

الإيرانيون ٢٦٦ ، ٢٨٣

البابليون ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٩٢

- البترام ١٥٣ ، ١٥٤
البحر الابيض المتوسط ١٢ ، ٧٧ ، ١٥٤ ، ١٦٢
البحر الاحمر ١٥١ ، ٢٧٧
البحرين ٢٣٨
البرشه ١١٦
التلمود ١٧١
التوراة ١٤٥ ، ١٧١
الجزيرة ٨
الحجاز ١٤٥
الحوريون ٢٤٢ ، ٢٦٦
الحيثيون ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٤٢
الخليج العربي ٢٣٨ ، ٢٧٤
الدلتا ١٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ١١٨
الدير البحري ٢٩
ابسو ٢١٩
ايدوس ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ١٤٤
ايبس ٧٥
أتارجانس ١٦٨
انوم ٧٢
اختاتون ٤٨ ، ٨٠ - ٨٢
ادد ١٥٨

- ادفو ٧٦
ارتريا ١٥٣
ارمان ١٢٢
ارمينيا ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٢٩١
اسبانيا ١٦٢
اسرائيل ٢١٥
اسوان ١٢ ، ١٢٣
آشور ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢١٤ ،
٢٣٨ ، ٢٢٦ ، ٢١٧
اشوربانيبال ١٥٣ ، ٢٤٤
أغسطس ١٤٣
افروديت ١٦٥
افريقيا ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٠
افغانستان ٢٣٨
اكه ١٥٢
اجزر كسيس ٢٨٥
الاسرة الأولى ٤٤ ، ٥٣ ، ١٣٦ ، ١٣٩
الاسرة الثانية ٩٠ ، ١٣٦ ، ١٣٩
الاسرة الرابعة ٧٩ ، ١٣٠ ، ١٤٤
الاسرة الخامسة ٤٤ ، ٦٠ ، ٧٩ ، ٩٢ ، ١٣٠
الاسرة السادسة ٤٤ ، ٩٧

- الأسرة الحادية عشرة ٧٩
الأسرة الثانية عشرة ٦٢ ، ٩٥
الأسرة السابعة عشرة ٨٠
الأسرة الثامنة عشرة ٤٦ - ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١٥٧
الأسرة التاسعة عشرة ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٨٢ ، ٩٥ ، ٩٨
الأسرة العشرون ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤
الأسرة الثالثة والعشرون ١٣٩
الأسرة السادسة والعشرون ٩٨ ، ١٦٢
الرومان ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٦٨
السودان ٥٥ ، ٨٠ ، ١٠٨
السومريون ٢٠٥ ، ٢١٧
الشام ١٥٢ ، ١٥٤
الصعيد ٧٨ ، ٧٩
الصومال ١٥٣
الصين ٢٧٣
البرانيون ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤
العراق ١٦٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨
العرب ١٤٥ ، ١٥٤
الغيلاميون ١٢٥ ، ٢٤٢
الفرات ١٩٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤

الفرس ٢٦٧ ، ٢٧٣ — ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،

٢٨٧ ، ٢٨٤

الفلستينيون ١٦٩

الفينيقيون ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ — ١٦٤ ، ١٦٧ ،

١٧٠ ، ٢١٧ ،

القرآن الكريم ١٤٩

القسطنطينية ١٤٣

الكاشيون ٢٢٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦

لكرنك ٨٠ ، ١٤٣

الكلدانيون ٢٢٦

الكنعانيون ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧٠

الخا ١٤٦

المسيح ١٦٨

المدينة ١٤٥

الميتانيون ٢٤٣

الميدون ٢٦٧ ، ٢٨٤

التوبة ٨٠ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩١

النيل ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٧٥

الهكسوس ٦٣ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٩ ، ١٦١

الهند ١٥١ ، ٢٧٧

الوركاء ٢٢٠ ، ٢٢٣

- اليمن ۱۴۰ ، ۱۴۶ ، ۱۵۰ ، ۱۵۳
اليونان ۰ ، ۶ ، ۱۱ ، ۱۴۰ ، ۱۴۸ ، ۱۵۴ ، ۱۶۱ ، ۱۶۵ ،
۱۷۲ ، ۱۹۴ ، ۲۷۷ ، ۲۸۷
احتب ۶۹
امحتب الثالث ۲۹ ، ۸۰
انكيدر ۲۱۰ ، ۲۲۲
انليل ۲۱۶ ، ۲۲۱
اوب وات ۷۲
اوتونيشم ۱۲۰ ، ۲۲۱
اور ۱۵۶ ، ۲۲۴
اورشليم ۱۷۰ ، ۱۷۱
اوركاجينا ۲۲۳
اورنمو ۲۲۴
اوزريس ۶۹ - ۷۸ ، ۸۱ ، ۸۴ ، ۸۶ ، ۸۹ ، ۱۰۲ ، ۱۳۰ ،
۱۶۴
اوناس ۸۴
اونى ۹۶
اهورامزدا ۲۶۹ ، ۲۸۱ ، ۲۸۲
ايا ۲۱۶ ، ۲۲۱ ، ۲۲۲
ايو - ور ۵۲
ايتا ۲۲۲ ، ۲۲۳
ايزيس ۶۹ ، ۷۱ ، ۷۳ ، ۷۷ ، ۷۸ ، ۸۱

ايسين ٢٢٤

إيطاليا ٢٧٧

ايل ١٦٤

[ب]

يا بل ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦

بارنبا ٢٨٠

باريس ١٤٣

بازارجادة ٢٨٤

باست ٧٦

بي الاول ٩٥

بتاح ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٢

بحر قزوين ٢٦٦

بحيرة المنزلة ٤٣

برسيوليس ٢٤٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥

برايب سن ٧٩

بردية تورين ٧٧

بريطانيا ١٦٢

بس ٨٣ ، ١٦٥

بعل ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٩

بلقيس ١٤٩ ، ١٥٠

بوتو ٧٨

بونت ١٢٣ ، ١٥٣

بلاد العرب ١٤٥

بلاد النهرين ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ،

١٩٤ - ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ،

٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ - ٢٣٦

[ت]

تجلات باسر الثالث ١٥٤

تحتوت ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ - ٧٢ ، ٧٦ ، ٨٩ - ٨٧ ، ١٢٤ -

١٢٦ ، ١٢٥

تحتوت حطب ١١٦

تحتوتس الاول ١٤٣

تحتوتس الثالث ١٤٣

تدمر ١٥٣ - ١٥٤

تل المارثة ٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١

تليبليينوس ١٧٥

تيامة ٢١٩

[ع]

جب ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ - ٧٦

جبل طارق ۱۶۲

جیبیل ۱۵۷

جایگامش ۲۲۰ ، ۲۲۱ ، ۲۲۲

جودیا ۱۵۲

جوفنال ۸۳

[ح]

حتحور ۶۶ ، ۷۶

حتشبسوت ۲۹ ، ۴۶ ، ۱۲۲ ، ۱۴۳

حجر رشید ۲۴۵

حداد ۱۶۷ - ۱۶۸

حضر موت ۱۵۱

حلب ۱۵۷ ، ۱۷۲

حورابی ۱۵۷ ، ۱۷۰ ، ۲۲۴ ، ۲۲۵ - ۲۳۴ ، ۲۳۵ ، ۲۴۱

حورس ۶۹ ، ۷۱ - ۷۳ ، ۷۶ - ۸۰ ، ۸۷ ، ۹۴ ، ۱۵۲

حورعجب ۹۵

[خ]

خاق ۱۷۲

خفرع ۴۴

خنوم ۶۶ ، ۷۲

خوفو ۱۳۰

[د]

دار الأول ٢٧٣ - ٢٧٤ ، ٢٨٠ - ٢٨٢
دجلة ٢١٩ ، ٢٧٤
دشاشة ١٠٠
دمشق ١٥٢
ديودور ٩٢ ، ٩٣

[ر]

رخ م ر ع ٩٥
رشف ١٥٨ ، ١٦٥ ، ١٦٨
ر ع ٧٦ ، ٧٨ - ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٣٠
ر ع س ي س الثاني ٢٩ ، ١١٥
ر ع س ي س الثالث ٦٤ ، ٩٦
ر ع س ي س الرابع ١١٦
روما ١٤٣ ، ١٦٢

[ز]

زاجروس ٢٦٦
زام ٢٧٨
زبيبة ١٥٤
زمرى ليم ١٥٧ - ١٥٨
زوسر ٩٠

[س]

- سبأ ١٤٥ ، ١٤٨ - ١٥٢ ، ١٥٠
سبك ٧٥
ست ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٧ - ١٨٠ ، ٨٢
سخت ٦٩ ، ٧٦
سرجون الأول ٢٢٤
سرجون الثاني ١٦١ ، ٢٤٧
سقارة ٨
سنوسرت الأول ٩٥ ، ١٣٠ ، ١٤٣
سكّر ٨٤
سليمان ١٦١ - ١٦٢ ، ١٧٠
سمسى ١٥٤
سنحريب ١٥٤ ، ١٦٢
سنوحى ١٣٠
سوريا ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ٢٢٨
سوسه ٢٢٥
سومر ٢١٦
سيتى الأول ١١٥
سيناء ١١٤ ، ١٢٣

[ش]

شبه جزيرة العرب ٢٢٨

شبه جزيرة البلقان ٢٦٦

شميليون ٦

شلنصر الثالث ١٥٢

شليان ١٧٢

شمثى ١٦٨ ، ٢٢٥

شو ٧١-٧٢ ، ٧٥-٧٦

[ص]

صروح ١٤٨ ، ١٥٠

صنعا ١٤٦

صياد ١٦٣

[ط]

طروادة ١٧٢

طوروس ٢٣٨

طيبة ٧٣-٧٤ ، ١٤٣

[ع]

عائرة (عشترت) أو عشتر أو عشتر ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٦٥ ، ٢١٧ ،

٢٢٠

عمان ٢٣٨
صين شمس ٦١

[ف]

فارس ٢٤٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠
فلسطين ١٣٠ ، ١٥٨ ، ١٦٨
فينوس ١٦٥

[ق]

قبرص ٢٧٤
قطنه ١٥٧
قمبيز ٢٨٠

[ك]

كاروى ١٢٥
كاهون ٨ ، ٣٨ ، ٤٠
كبادوكيا ٢٣٨
كريت ٢٧٤
كورش ٢٨٤ ، ٢٨٦

[ل]

لبنان ١١١ ، ٢٠٣
لجش ١٥٢ ، ٢٢٣

لندن ٩٢ ، ١٤٣

ليبيا ١٦٢

ليديا ٢٧٣

(٢)

مأرب ١٤٦ - ١٥١

مارتو ١٥٧

ماری ١٥٣ ، ١٥٦ - ١٥٧

ماعت ٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٥

مايشون ٧٦

مرا ٧٨

مدينة هابو ٧٤

مردوك ٢١٦ ، ٢١٩

مصر ٥ ، ٨ ، ١٠ - ١١ ، ١٣ - ١٧ ، ٢٩ ، ٢٢ ، ٤٦ ، ٥٥ ،

٥٩ ، ٧٦ - ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٨ ،

١١٠ - ١١١ ؛ ١٢٢ ، ١٣٠ - ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٥١ - ١٥٢ ،

١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢٠٥ ، ٢٥٧ ، ٢٧١ ،

٢٧٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ - ٢٩٢

مكة ١٤٥

منف ٦٩ ، ٧١ - ٧٤

موت ٧٤

موسی ۱۶۸
موتو ۷۹
متیانی ۲۶۶
میدیا ۲۱۵
مین ۷۹
مینا ۷۷ ۷۹
میشو ۱۹۴

[ن]

نارام سن ۱۵۲
نپوور ۱۴۶
نجران ۱۵۱
نخاو ۱۶۲
نخن (هیراقونبولیس) ۱۱۸ ، ۹۵
نفتیس ۸۱ ، ۷۳ ، ۷۱ ، ۶۹
نازوا ۲۵۳
نچشزیدا ۲۵۳
نوت ۷۱
نون ۷۰ - ۷۱
نیبور ۱۹۴
نینوی ۲۸۶
نیویورک ۱۴۳

[۵]

۲۸۰ هرکاتیا

هلیوبولیس ۷۱ - ۷۲ ، ۷۴ ، ۷۷ ، ۷۹ ، ۱۴۳ ، ۱۴۴

هومیروس ۱۶۳ ، ۱۷۲

هیرودرت ۹۲ ، ۵ - ۹۴ ، ۱۱۰ ، ۱۹۴ ، ۲۶۱

[و]

وادی الحمامات ۱۲۳

وادی التطرون ۱۲۲

وادی النيل ۵ ، ۱۲ ، ۱۴ ، ۱۵

وادی میاه ۱۱۵

وهیو ۲۷۸

[ی]

یمناد ۱۵۷

ینج ۶ ، ۷

یہرا ۱۶۹

To: www.al-mostafa.com